فيليب يانسي

محاولة اللقاء مع إله غير منظور

ترجمة

سليم اسكندر حنا



ماذا نتوقع أن نجد؟



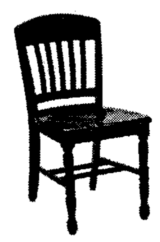
هَكَذَا قَالَ ٱلرَّبُّ:

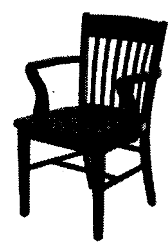
«لاَ يَفْتَخِرَنَّ ٱلْحَكِيمُ بِحِكْمَتِهِ
وَلاَ يَفْتَخِرِ ٱلْجَبَّارُ بِجَبَرُوتِهِ
وَلاَ يَفْتَخِرِ ٱلْغَنِيُّ بِغِنَاهُ.
بَلْ بِهٰذَا لِيَفْتَخِرَنَّ ٱلْمُفْتَخِرُ:
بِأَنَّهُ يَفْهَمُ وَيَعْرِفُنِي
أَنِّي أَنَا ٱلرَّبُّ ٱلصَّانِعُ رَحْمَةً وَقَضَاءً وَعَدْلاً
فِي ٱلأَرْضِ لأَنِّي بِهٰذِهِ أُسَرُّ يَقُولُ ٱلرَّبُّ»

سِفْرُ إِرْمِيَا ٩: ٢٣ـ ٢٤

فيليب يانسي

محاولة اللقاء مع إله غير منظور





ماذا نتوقع أن نجد؟

ترجمة
سليم اسكندر حنا





مكتبة دار الكلمة Logos
٤ شارع حجاج من فريد الأطرش - عين شمس الشرقية
القاهرة - مصر ت/ ٤٩١٤٢٧٦ - ٦٣٦٣٩٨٩
www.elkalema.com
Info@elkalema.com
الطبعة الأولى ٢٠٠٥

Originally published in the U. S. A. under the title: **Reaching for the invisible God**

الطباعة والتنضيد: مطبعة سان مارك ت: ٤٩٥٠٦٩٠
الجمع والإخراج الفني: زهور برنابا
تصميم الغلاف: جوزيف يونس
المراجعة اللغوية: خالد سمير
الإشراف الفني والإداري: محمد حسن غنيم
رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٧٣٩٧
ISBN :977- 384 -041-7

المحتويات

بدأت هذا الكتاب منذ اليوم الأول الذي شعرت فيه بجوع حقيقي لمعرفة الله. ويبدو أن وصفات الطعام التي اتبعتها لإشباع هذا الجوع لم تكن مُشبعة كفاية. ويتمسك المسيحيون/ المؤمنون بوعد "العلاقة الشخصية مع الله" كما لو أن هذا الوعد مُتضمناً نفس مفاعيل العلاقة مع أي شخص آخر. ورغم هذا سيسدل الستار فاصلاً بين ما هو منظور وما هو غير منظور. كيف يمكن أن تكون لي علاقة شخصية مع كائن لم أتأكد تماماً من وجوده؟ وهل هناك طريقة تؤكد لي حقيقة وجوده؟

كتبت هذا الكتاب وأنا في محطة إنتقاليّة ونقطة فاصلة من الشك إلى الإيمان، وهو ما يلخص رحلة حياتي. وأقترح على أولئك الذين يتسمون بالحذر في روحانياتهم، أو الذين يعانون من اختبارات كنسية سيئة أن يقرأوه بأسرع ما يمكن ثم يتوقفوا. وإنني أخطط لكتابة كتاب ثانٍ أكتب فيه عن المزيد من القضايا العملية في هذه العلاقة مثل الإتّصال بالله. وفي كل أمر من هذه الأمور يحضرني تعليق س.إس. لويس الذي يقول: بأننا نحتاج إلى من يذكرنا أكثر ممن يعلمنا. وأنا أتناول أقدم الأسئلة في الاختبار المسيحي، تلك الأسئلة التي أنهكت المؤمنين في القرن الأول، والتي تضنينا اليوم ونحن في القرن الحادي والعشرين.

وبسبب حساسيات معينة يجب أن أذكر هنا أنني من وقت لآخر أستخدم ضمير المذكر للتعبير عن الله. وأعلم يقيناً أن الله غير منظور وليست له أعضاء جسمية، ومن سوء الحظ أنه لا توجد في اللغة الإنجليزية ضمائر شخصية محايدة. وإنني أكره كل الحلول التي تجعل من الله أمراً مجرداً وليس شخصياً. وبسبب قيود اللغة هذه فإنني أعود إلى الحل الكتابي للضمائر التي تدل على المذكر.

وقد رافقني المحرر وقادني في طريق متعرج زاد الأمر صعوبة.

وتمكن المحرر جون سلوان من اكتشاف أخطاء احتاجت إلى أسابيع من العمل لتصحيحها، غير أنه قام بهذا العمل بطريقة تُشعرك بالتشجيع والأمل. فقد علمت أن المحرر الجيد قادر على المعالجة والعمل الاجتماعي. كما قام بوب هدسون وآخرون في دار زوندرفان للنشر بمتابعة ما كتبته في مراحل اليكترونية متأخرة. وقدمت مساعدتي الخاصة ميلسا نيكلسون الكثير من المساعدات القيمة.

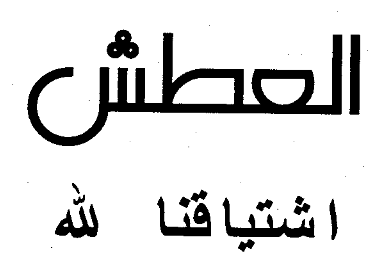
وقد أرسلت مسودة هذا الكتاب للعديدين من القراء لمعرفة وجهة نظرهم، وما تلقيته منهم أقنعني بأن العلاقة مع الله شخصية ومتغيرة مثل الشخص الذي على الطرف الآخر. كما أشكر مارك بودنارزوك، و دوك فرانك، و ديفيد جراهام، وكيثي هيلمرس، و روب موثياه، و كاثرين بانكي، و تيم ستارفورد، و دالي سدرمان، و جيم ويفر لاستجاباتهم القيمة. لقد ساعدوني ليس فقط في محتويات الكتاب بل أيضاً في البناء الكلي لفكرة هذا الكتاب. ففي بداية كتابتي للمسودة شعرت كما لو أنني في حيرة وذهول غير أن ملاحظاتهم ساعدتني في الخروج من هذه الحيرة.

أحد هؤلاء القراء كتب لي ما يلي: " تشجع يا صديقي ودع هذا الكتاب يتخذ طابع كل الكتب الدينية، فالأصبع الناقص يُشير في عدم دقة يتعذر تحديدها نحو شخص ما لا يمكننا بإشارتنا هذه نجعله موجوداً، ولكن إلى الشخص الذي منه وإليه نُشير بضعف وإبتسام ورقة"، ورداً على هذا الكلام أقول من كل قلبي.. آمين.

فيليب يانسي

الجزء الأول





العطش

اشتياقنا لله

١ - ولادة ثانية في وضع خاطيء



يا الله، أنا لا أحبك، ولا حتى أريد أن أحبك،
ولكنني أرغب في أن أريد أن أحبك"
تريزا الأفيلية

في إحدى السنوات قمت أنا وزوجتي بزيارة بيرو، وهو البلد الذي أمضت فيه جانيت طفولتها. سافرنا إلى كوزكو Cuzco و ماشو Machu لكي نشاهد آثار حضارة شعب الأنكا Inca العظيمة والتي حققت الكثير بدون أن تتعرف على الأبجدية، ولا حتى العجلة. وعلى مشارف كوزكو حيث سهل أخضر فسيح وقفنا أمام حائط مكون من أحجار رمادية اللون يزن كل منها حوالي سبعة عشر طناً.

"لقد كانت الأحجار مقطعة بطريقة يدوية، ومرتبة مكونة الحائط بدون ملاط، وبدقة بالغة لا تسمح بوضع ورقة بين حجر وآخر". هكذا قال مرشدنا السياحي، الذي هو من بيرو، بفخر. "ولا حتى أشعة الليزر الحديثة تقدر أن تقطعها بهذه الدقة. وحتى الآن لا أحد يعلم كيف فعل شعب الأنكا ذلك. ولهذا السبب قال إريك فون دانكن Erich von Daniken في كتابه "مركبات الآلهة" لابد وأن حضارة متقدمة من الفضاء الخارجي قد قامت بزيارة شعب

الأنكا".

سأل أحد أفراد مجموعتنا السياحية عن علم الهندسة الذي ساهم في نقل تلك الكتل الحجرية إلى أعلى التلة الجبلية، وبدون استخدام العجلات. غير أن شعب الأنكا لم يترك لنا أية سجلات مكتوبة يمكنها أن تجيب عن مثل تلك الأسئلة. ثم فكر بعمق مرشدنا السياحي كما لو كان سيذيع سراً عظيماً: "حسناً؛ إن الأمر هو هكذا.." وصمتت كل المجموعة علها تنال جواباً شافياً. وقال وهو ينطق كل كلمة بحذر شديد: "نحن نعرف الأدوات.. ولكننا لا نعرف الآلات". وبدت على وجهه الذي لفحته الشمس، علامات الرضى والإرتياح لما قاله.

انتظرنا أن يضيف لما قاله أكثر، وملء عيوننا عطش لأية إضافات، غير أن مرشدنا تحول بناظريه عنا ليتابع الرحلة. إذ اعتبر أن ما قاله هو الإجابة الكافية لحل هذا اللغز. وعلى مدى الأيام القليلة التالية كان يجيب بنفس العبارة على أسئلتنا، وهذا أشعره بنوع من الأهمية وهو ما كان يضايقنا. وبعد أن ارتحلنا من كوزكو صارت إجابة المرشد السياحي نكتة تتندر بها المجموعة. فعندما يسأل أحدنا: هل يمكن أن يسقط المطر بعد الظهر، يجيب عليه شخص آخر بالأسبانية " حسناً نحن نعرف الأدوات.. ولكننا لا نعرف الآلات".

وردت على ذهني تلك العبارة الغامضة عندما حضرت تجمعاً للإتحاد مع العديد من زملاء الدراسة في كلية مسيحية. وبالرغم من أننا لم نر بعضنا منذ عشرين عاماً، إلا أننا بدأنا الحديث والدردشة بمودة شديدة. كل منا ناضل في حياة الإيمان ورغم هذا تمسكنا بإيماننا. كلنا اختبرنا الألم، وجددنا معرفتنا ببعضنا البعض، وتحدثنا أولاً عن الأطفال والعمل وتحركنا من مكان لآخر، وعن درجاتنا العلمية. ثم تحولت المناقشات إلى ما هو أصعب: عن الوالدين الذين أصيبا بمرض الزهايمر، وزملائنا الذين طلقوا، والأمراض المزمنة، والفشل الأخلاقي، والأطفال الذين تحرش بهن بعض أعضاء الكنيسة.

في النهاية توصلنا إلى أن وجود الله في حياتنا الآن أكثر ضرورة ولزوماً منه في أيام الدراسة بالكلية. ولكن عندما استرجعنا بعض العبارات التي استخدمناها في التعبير عن اختباراتنا الروحية عندئذ أدركنا كم كانت تبدو غامضة وغير مفهومة. فمنذ ٢٥ عاماً حين كنا ندرس في كلية اللاهوت، كنا ندرس عن حياة مملوءة بالروح، والخطية والطبيعة الجسدية، والتقديس، والحياة الوافرة. ورغم كل هذا لم نستطع تحقيق أي مبدأ منها وبالطريقة التي كنا نتوقعها. فلكي تشرح حياة الفرح بالروح لشخص يمضي كل يومه في العناية بأحد والديه المريض بالزهايمر، فإن هذا يبدو مشابهاً لإجابة ذلك المرشد السياحي الذي كان يشرح آثار حضارة شعب الأنكا قائلاً: "نحن نعرف الأدوات.. ولكننا لا نعرف الآلات". فاللغة لا تحتوي المعني، ولا تعبر عنه.

إن الكلمات المستخدمة في الكنائس تسبب إرتباكاً للناس. فحين يقول الراعي: "إن المسيح يحيا فيك، ونحن أعظم من منتصرين"، فمع أن هذه الكلمات قد تثير في الكثيرين شعوراً بالاشتياق لهذه النصرة، غير أنه يصعب تطبيقها في أحداث الحياة اليومية. لقد سمع هذه الكلمات مُدمن للجنس، وصلى من أجل التحرير، غير أنه استسلم، وفي ذات الليلة، لرغبته الجنسية المحرمة، حين استلم رسالة على بريده الأليكتروني من فتاة تُدعى كاندي، أو هيذر تعده فيها بأنها سوف تُشبع كل نزواته. وعلى نفس المقعد تجلس إمرأة تفكر في ابنها المراهق المحجوز بإحدى المؤسسات بسبب إدمانه للمخدرات. لقد بذلت كل ما في وسعها كأم، ولكن الله لم يستجب لصلواتها. هل يحب الله ابنها بدرجة أقل منها؟

كثيرون آخرون لا يذهبون للكنيسة بمن فيهم ثلاثة ملايين أمريكي يدّعون أنهم مؤمنون إنجيليون، وبرغم ذلك فهم لا يحضرون للكنيسة. ربما كانوا مشتعلين روحياً عندما كانوا في الجامعة أو في مجموعات التبشير في الكلية ثم فتروا وإنزووا وانطفأوا. وكما قالت إحدى شخصيات جون أبديك في روايته " شهر من الأحداث A Month of Sundays": "ليس لدى إيمان، ولكن يبدو وأنه صالح

للتطبيق"

إنني أصغي لمثل هؤلاء الناس، وأتلقى الكثير من خطاباتهم. إنهم يقولون أن الحياة الروحية ليس لها تأثير مستمر، ومختلف بالنسبة لهم. فما يختبرونه شخصياً يبدو أنه محتلف عما يسمعونه موصوفاً بكل أمانة وثقة من على المنبر. ومما يُدهشني، فإن الكثيرين لا يلومون الكنيسة أو المؤمنين الآخرين. إنهم يلومون أنفسهم. تأمل في هذه الرسالة التي وصلتني من رجل من إيوا Iowa يقول فيها:

"أنا أعلم أنه يوجد إله: أؤمن أنه موجود، ولكنني فقط لا أعرف بماذا أؤمن؟.. ماذا أتوقع من هذا الإله؟.. هل هو يتدخل في حياتنا (غالباً/ نادراً) عندما نطلبه، أم أنه يجب عليّ أن أقبل ذبيحة ابنه من أجل خطاياي؟ إنني أحسب نفسي محظوظاً، وهل أجعل العلاقة تصل إلى هذا الحد؟

إنني أشعر أنني مؤمن غير ناضج: وأن توقعاتي من الله غير واقعية. وأعتقد أنني أصبت بخيبة الأمل مرات كافية حتى أنني أصلي من أجل أن لا يتكرر هذا الأمر مرات ومرات.

ما هي الصورة التي يجب أن تكون عليها العلاقة مع الله؟ وما الذي يجب أن نتوقع من الله الذي يقول أننا صرنا أصدقاوءه وأصفياءه؟

إن هذا السؤال المحير عن العلاقة يبرز بصورة غير متوقعة في الخطابات. كيف يمكنك أن تحتفظ بعلاقة مع كائن مختلف تماماً عن أي شخص آخر نعرفه، ولا نستطيع إدراكه بحواسنا الخمس؟ إنني أستمع إلى أعداد كبيرة من الناس تتصارع داخلهم هذه الأسئلة وتظهر في خطاباتهم وفي كتبي التي كتبتها بعنوان:"أين الله عندما أتألم؟"، و "خاب أملي في الله".

كتب أحدهم رسالة أخرى يقول فيها:

"اجتزت في تجربة صعبة لمدة سنتين، وكدت أتحطم تحت ضغطها. وقد اهتز إيماني بالرب يسوع ومازلت أحاول أن ألملم شتات الإيمان الذي كان قوياً ثابتاً يوماً ما. وبدأت أتساءل: هل إيماني أو ما يُسمى بـ"العلاقة الشخصية" أمر حقيقي وموثوق به. ونظرت إلى كل ما قلته وفعلته لله وتساءلت: "هل حقيقة كنت أعني ما كنت أقوله؟" وبمعنى آخر: كيف يمكنني أن أقول أن لي إيماناً بالله في حين أنني أتساءل ما إذا كان هو موجوداً؟ إنني أسمع عن أناس يُصلّون من أجل أمور معينة وأن الله أخبرهم بهذا وذاك، ولكنني أجد نفسي عندما أقول مثل هذه الأمور الروحية بأنني أحاول فقط أن أقوم بالتأثير على أحدهم، أو ربما أشعر بأنني غير أمين! أشعر بعدم إرتياح عندما أفكر في هذا الأمر، وأظل أتساءل: "متى أستطيع فهم الأشياء فهماً صحيحاً؟ ومتى تسير الأمور سيراً حسناً بالنسبة لي؟ ما هو الخطأ فيّ؟"

وكتب قارئ آخر بنفس الروح الضعيفة متسائلاً: "ما إذا كانت العلاقة مع الله تحمل أي معنى؟ وقد وصف جده على أنه رجل إيمان يمضي كل يومه في الصلاة، وقراءة الكتاب المقدس، والكتب الدينية، ويستمع إلى العظات الروحية على شرائط كاسيت. وهو يمشي بصعوبة ويسمع بصعوبة، ويتناول الأدوية للتخفيف من آلام قدميه. ومنذ وفاة زوجته وهو يعيش بمفرده في حالة من الشك والإرتياب، وينزعج من الفواتير أو الأنوار التي تُترك بدون إستعمال. وعندما أنظر إليه لا أرى قديساً فرحاً بعلاقته مع الله، ولكنني أرى رجلاً عجوزاً متعباً يجلس فقط في إنتظار موعد رحيله للسماء". وقد اقتبس القارئ فقرة من كتاب للكاتب جارسون كايلور عن العمة العجوز ماري: "كانت تعلم أن الموت هو مجرد باب للملكوت حيث سيستقبلها يسوع ويرحب بها، وهناك لا يوجد بكاء ولا معاناة، ولكنها في ذات الوقت كانت تعاني من السمنة وإعتلال بالقلب، وتعاني الوحدة مع كلابها الصغيرة، تسير في ترنح في

منزلها الصغير المظلم، والممتلئ بالتماثيل الصينية الصغيرة".

وآخر كتب موجزاً: " إنني أتساءل ما إذا كان التعبير المجازي "مولود ثانية" تعني مولود ناقص النمو".

منذ فترة غير طويلة أجرينا تدريباً مع أعضاء مجموعة المناقشة التي أنتمي إليها، ووافقوا على أن يكتب كل واحد منا خطاباً مفتوحاً إلى الله، ويأتي به في إجتماعنا التالي. وعدت لأقلّب في أوراقي لأجد خطاباً قد كتبته إلى الله منذ فترة غير بعيدة:

" عزيزي الله:

بالتأكيد أنت لا تتصرف كما لو أن الله حيٌ"— وهو نفس الإتهام الذي وجهه أصدقاء باتي إليها، وقد استحوذ عليّ هذا السؤال منذ ذلك الوقت. هل أنا أتصرف كما لو كنت أنت حياً؟

أحياناً أتعامل معك كمادة مخدرة، كالكحول أو الفاليوم، أحتاج إليه لتهدئة قسوة موقف معين، أو للتخلص منه. وأحياناً ساعياً لنسيان هذا العالم وأرغب في الذهاب إلى عالم غير مرئي، ومعظم الوقت أعتقد حقيقة أنه موجود، مثل هذا العالم الذي به الأكسجين، والخضرة، والماء. ولكن ماذا أفعل لكي يحدث العكس، ولكي أدع حقيقة عالمك أنت لأن تدخل إليّ وتحول وتغيّر حياتي اليومية المخدّرة؟

وأعترف أنني أرى تقدماً في حياتي، إذ أراك الآن كشخص أحترمه أكثر مما أخافه. والآن أشعر أن رحمتك ونعمتك تؤثر فيّ أكثر من قداستك وخشيتك. وأعتقد أن هذا هو ما فعله يسوع من أجلي. لقد روضك لدرجة كافية لكي نتمكن من أن نعيش معاً في نفس القفص، بدون أن أظل في الركن طوال الوقت. لقد جعلك جذاباً وتستحق الحب.

كما جعلني أنا جذاباً ومحبوباً لديك أيضاً. وهذا ما كنت أستطيع فعله من ذاتي، بل كان عليّ أن أصدق كلمتك. فمعظم الوقت أصدق هذا الأمر بصعوبة.

كيف أتصرف كما لو كنت أنت حياً؟ خلايا جسمي التي تعرق، وتتبول، وتكتئب، وتذهب للسرير ليلاً، كيف تحمل هذه الخلايا عظمة إله هذا الكون، بطريقة يمكن أن يراها الآخرون؟ كيف يمكنني أن أحب شخصاً بنفس الحب الذي أتيت به أنت إلينا؟

لقد أحببتك، وأحببت عالمك، وتعلمت كيف أتجاوب معه، ولكن كيف أوفق بين الإثنين؟ أعتقد أن هذه هي صلاتي: أن أؤمن بإمكانية التغيير. فلو أغلقت نفسي على ذاتي لن يحدث فيّ أي تغيير. لهذا؛ فغالباً ما يبدو الأمر وكأنه تعلم السلوك والتكيف مع البيئة كما يقول العلماء. كيف أمنحك الفرصة لتغير طبيعتي من الداخل، وتجعلني أشبهك؟ هل هذا ممكن؟

من السهل عليّ أن أؤمن بالمستحيل، وبعبور البحر الأحمر، وبالقيامة، ذلك عن أن أؤمن، فيما يبدو أنه ممكن، بإشراق حياتك البطيء والثابت على أناس مثلي، ومثل جانيت، وديف، وماري، وبول. يا الله ساعدني لكي أؤمن بما هو ممكن".

أذكر كيف إندهش جداً صديقي بول عند مطالعته لرسالتي تلك مع باقي المجموعة. وقال: يبدو أنه خطاب غير شخصي، بعيد ومؤقت. فما وصفته لا يتماشى مطلقاً مع شعوره بقرب الله منه. وعندما أحاول أن أتذكر رد فعله تثور شكوكي، وأتساءل: ما الذي يؤهلني لكي أكتب كتاباً باحثاً فيه عن علاقة شخصية مع الله. طلب مني أحد الناشرين كتاباً رعوياً، ولكنني لم أتمكن من كتابته، فأنا لست راعياً، بل سائح ورحالة يملؤه الشك. ويمكنني فقط أن أقدم رحلة شخصية وفردية تعكس ما وصفه فردريك بوشنر على أنه

"الشخص الذي يسير في طريقه وليس بالضرورة أن يكون قد سار لمسافة طويلة وفي ذهنه فكرة غامضة عمن يقدم له الشكر".

لقد عشت معظم حياتي طبقاً للتقليد البروتستانتي الذي يؤكد على العلاقة الشخصية مع الله، وأخيراً قررت أن أكتب هذا الكتاب لأنني أريد أن أعرف بنفسي كيف تسير علاقتنا مع الله بطريقة صحيحة. وموقف التقليد الإنجيلي — شخص يبحث عن الله بمفرده، بدون وساطة رعاة، أو أيقونات، أو أي وسطاء آخرين— يناسب بصورة خاصة مزاج الكاتب. ورغم ذلك؛ فقد أستعين ببعض المراجع وأجلس مع بعض الحكماء، ولكن في النهاية أكتب أفكاري أنا، التي أؤمن بها. وهذا يُشعرني بنوع من المخاطرة، لأن الحياة المسيحية لا تعني بأن يحياها شخص جالس بمفرده طوال اليوم متفكراً في الحياة المسيحية.

عندما أبدأ في كتابة أي كتاب آخذ المنجل وأبدأ في شق طريقي عبر الغابة، ليس لكي أعبدّ طريقاً للآخرين، ولكن لكي أجد طريقاً لي. هل سيتبعني أي شخص آخر؟ هل ضللت الطريق؟ فعندما أشرع في الكتابة فهذا يعني إنني لا أعرف إجابة محددة لتلك الأسئلة، ولكنني أواصل استخدام المنجل.

فالصورة غير واضحة تماماً، لذا فعندما أشق طريقي أتبع خريطة وضعها آخرون من قبلي وهم "سحابة الشهود". ونضالي في حياة الإيمان يعترف لهم بهذه الخدمة: لقد اجتازوا طريقاً طويلاً ومتميزاً من قبلي. وأجد نفس تعبيرات الشك والحيرة في الكتاب المقدس ذاته. فقد اتهم سجموند فرويد الكنيسة بأنها تُعلّم أسئلة يمكن الإجابة عليها. وبعض الكنائس قد تفعل هذا، ولكن الله بالتأكيد لا يفعل ذلك. ففي سفر أيوب، وأخبار الأيام، وحبقوق، يطرح الكتاب المقدس أسئلة صعبة، ليس لها إجابة.

أثناء بحثي وجدت أن عظماء القديسين واجهوا الكثير من العقبات في الطريق، والمنعطفات، وطرق مغلقة، وهي تلك التي اختبرتها أنا والتي عبّرت عنها الخطابات التي وصلتني. وتتجه الكنائس الحديثة

إلى إظهار بعض الشهادات لنجاحات روحية، ولا تتطرق إلى الفشل الذي قد يقود المجربين إلى حالة أسوأ. وكذلك نجد أن الكتب والشرائط المسجلة (الكاسيت/ الفيديو) تركز على الإنتصارات. ورغم ذلك؛ فإنها تحفر بعمق في تاريخ الكنيسة وسوف تجد قصة أخرى مختلفة عن أولئك الذين حاولوا أن يسبحوا ضد التيار، مثل سمك السلمون الأبيض.

يصف لنا القديس أوغسطينوس في إعترافاته، وفي تفاصيل دقيقة، يقظته البطيئة قائلاً: "كنت أود أن أتأكد من الأشياء التي لا أراها بنفس درجة تأكدي من أن ٧ + ٣ = ١٠". ولكنه لم يصل إلى هذه الدرجة من التأكد. هذا العَالِم الذي عاش حياته في شمال أفريقيا في القرن الرابع الميلادي، رضيّ واقتنع بنفس القضايا التي تزعج المسيحيين اليوم: الإيمان لا يمكن رؤيته، وهزيمة الشك المستمر والمزعج للكنيسة.

في كتاب "السر المسيحي للحياة السعيدة" شجعت الكاتبة "حنه هويتال سميث" ملايين القراء، فترة حكم الملكة فيكتوريا، على أن يحيوا حياة روحية مرتفعة، ولكنها هي نفسها لم تجد السعادة مع أسرتها. فزوجها الذي كان إنجيلياً مشهوراً، قد اخترع معادلة جديدة للإستمتاع والنشوة التي تُشبع الإشتياقات الروحية عن طريق الإستثارة الجنسية. وفيما بعد إنحرف إلى طريق الزنا وأنكر الإيمان. وظلت زوجته "حنه" معه، بينما هجر كل أبنائها الإيمان. فإحدى بناتها تزوجت الفيلسوف "برتراند راسل" وأصبحت ملحدة كزوجها. وقد وصف راسل حماته بأوصاف كثيرة، ولكنه لم يذكر أنها كانت مؤمنة منتصرة.

حضر المؤلف المعاصر "إيوجين بترسون" وهو في فترة المراهقة مؤتمراً دينياً، حيث كان الناس يلتقون كل صيف على ضفاف بحيرة. وكانت لهم قوة روحية ملتهبة، واستخدموا عبارات مثل: "الحياة العميقة"، و "البركة الثانية". وعندما راقب بترسون حياة هؤلاء الناس لاحظ نوعاً من الإستمرارية بين روحانيتهم

الشديدة في المؤتمر، وحياتهم اليومية في المدينة. "فأمهات أصدقائنا اللاتي كن زناة قبل الإيمان، واستمروا كذلك. ومدرس التاريخ بلنجتون الذي كان يتمتع بالإحترام في المؤتمر لم يتخل عما كان يفعله من تصرفات وضيعة في المدرسة الثانوية، بل أنه كان أسوأ من باقي المدرسين.

لا أذكر هذا النوع من الفشل لكي أثبط من إيمان أي شخص، ولكن لكي أضيف جرعة من الواقعية للدعاية الروحية التي تعد بأكثر مما يمكنها أن تعطي. إن فشل الكنيسة يثبت العقيدة التي نؤمن بها. فالنعمة كالمياه، تجري إلى الأعماق، ونحن في الكنيسة لدينا الإتضاع والندم، لنقدمه للعالم، وليس وصفة نجاح. غالباً ما نصرِّح في مجتمعاتنا الناجحة، شكلياً، أننا فشلنا ونفشل، وسنفشل. والكنيسة في عام ٣٠٠٠ سوف يكون لديها نفس مشكلات عام ٢٠٠٠، أو تلك التي كانت عام ١٠٠٠، ولهذا فنحن نعود إلى الله بيأس مفرط.

يقول س. إس. لويس: "إن للمسيحي إمتيازاً عظيماً يميزه عن باقي الناس، ليس لأن لديه سقطات أقل، بل لأنه يعلم أنه إنسان ساقط، في عالم ساقط".

عندما بدأت كتابي هذا، ذهبت إلى بعض الأصدقاء الذين أحترمهم كمسيحيين. بعضهم قادة في كنائسهم، وقلة منهم لهم شهرة قومية. وآخرون مواطنون عاديون في هذا العالم وهم متمسكون بإيمانهم. وسألت هذا السؤال: "إذا جاءك باحث وسألك كيف أن حياتك كمؤمن/ كمؤمنة تختلف عن حياة الآخرين غير المؤمنين.. ماذا تكون إجابتك؟. وأردت أن أسمع ما إذا كان إيمانهم قدم لهم شيئا ما غير الفشل في تحقيق الأحلام، وربما بعض الأمل في التغيير. إن لم يحدث ذلك، فلماذا إذاً أهتم بهذا؟

بعض الناس ذكروا تغييرات محددة. قال أحدهم: "بسبب معرفتي

بالرب لم ينهار زواجي، بالرغم من المشاكل الكثيرة التي لم تُحلّ". وقال آخر: "لقد تأثر إستخدامي للمال أيضاً.. فبحثت عن طرق لمساعدة الفقراء بدلاً من التفكير في رغباتي الذاتية فقط".

وتحدثت إمرأة كانت قد إجتازت عملية جراحية في الصدر، تحدثت قائلة عن قلقها: "لم أتمكن من التوقف عن القلق والإنزعاج. لقد إنزعجت من العملية الجراحية لإستئصال الورم السرطاني، وأنزعج الآن على أولادي الذين ضلوا الطريق. إنني أعلم أنه لا فائدة من هذا القلق ولكنه يحدث لي. أنا أعلم أنه يوجد لديّ نوع من الثقة في الله، ورغم ذلك فقد تبدو خادعة وأؤمن إيماناً عميقاً أن الله مسيطر على الموقف. البعض يُسمي هذا النوع دعامة أو عكازاً، وأنا أسميه الإيمان. فبالنسبة للشخص الأعرج هناك شيء واحد أسوأ من العكاز وهو أن يسير بدون عكاز".

درجة أخرى من درجات الإحساس بحضور الله هي الإحساس بأنك لست وحدك: " عليّ أن أميل أذني لأسمع الله يتحدث، أحياناً يتحدث أفضل في السكون، ولكنه يتحدث". قال أحدهم أنه يستطيع أن يكتشف التقدم الروحي بالنظر إلى الوراء. "أعرف ما إذا كانت النار قد شبّت في منزلي، فسوف أندفع لإنقاذ مذكراتي اليومية. إنها من أعظم ممتلكاتي، وهي سجل لعلاقتي مع الله. لقد كانت هناك بعض اللحظات الدرامية ولكن كان هناك أيضاً الكثير من اللحظات الحميمية معه. وعندما أقرأ الآن هذه المذكرات لاستعادة الأحداث الماضية، يمكنني أن أرى يد الله في حياتي".

وصفت ممرضة كانت تعمل في نزل للمسافرين، وصفت نتائج الإيمان التي تكون واضحة بالقرب من سرير المريض الذي يكون قد مات: " إنني أرى فرقاً في كيفية تعامل الأسر المؤمنة مع الموت. بالطبع هم يحزنون، ويبكون، ولكنهم يعانقون بعضهم بعضاً، ويصلون ويرنمون، إنهم غير مرتعبين. أما بالنسبة لغير المؤمنين، فالموت هو نهاية كل شيء، إنهم يقفون معاً، ويتحدثون عن الماضي. أما المؤمنون فإنهم يذّكرون بعضهم بعضاً بأنه يوجد

مستقبل ينتظرهم".

لربما كانت أكثر الإستجابات تأثيراً من صديق إسمه معروف في الأوساط المسيحية. إنه مسئول عن برنامج إذاعي، ويُعطي النصائح الكتابية كل أسبوع، ومع ذلك فقد إهتز إيمانه في السنوات الأخيرة، وخاصة بعد مرض كاد أن يقضي عليه. وفي البرنامج الإذاعي بدأ يجيب على الأسئلة بصوت متقطع، كما لو أنه يجيب على المستمع على الهواء مباشرة. ورغم ذلك، ففي هذه المرة فكر لبعض الوقت قبل أن يجيب، ثم قال لي:

> ليست لديّ مشكلة في أنني أؤمن بصلاح الله. وسؤالي هو: أي صلاح هو؟ لقد سمعت منذ فترة أن ابنة "بللي جراهام" كانت تجتاز في بعض المشكلات الزوجية، ولهذا سافرت عائلة بللي جراهام إلى أوروبا لكي تلتقي معهم وتصلي من أجل الزوجين. وإنتهى الأمر بالطلاق. فإذا كانت صلاة بلليّ جراهام لم تُستجب فما فائدة صلاتي أنا؟ وأنظر لحياتي... مشكلاتي الصحية، وخلافات بناتي، وزواجي. إنني أصرخ إلى الله طلباً للمعونة، ويصعب عليّ معرفة الطريقة التي يجيبني بها، وفي الحقيقة، كيف إذاً نعتمد على الله؟

صدمني السؤال الأخير، وكأنه رصاصة قد استقرت بداخلي. أعرف لاهوتيين سوف يندهشون من هذه العبارة، ويعتبرونها علامة عن الإيمان المرتكّز على الذات. ومع ذلك؛ فإنني أثق أنها تقع في قلب التحرر من الوهم مع الله. ففي كل علاقاتنا الشخصية— مع والدينا وأطفالنا، وأمناء المخازن، وعمال الغاز، والرعاة، والجيران— لدينا فكرة عما نتوقعه. ماذا عن الله؟ ماذا يمكننا أن نجني من علاقتنا الشخصية معه؟



كان شريك غرفتي لمدة عامين في الكلية المسيحية ألمانياً يُدعى

رينر Reiner، وبعد التخرج عاد إلى ألمانيا وقام بمهمة التعليم في معسكر للمعاقين، مستعيناً بما تعلمه في الكلية، وألقى عليهم محاضرة حماسية عن الحياة المسيحية المنتصرة قائلاً: "وبالرغم من الكرسي المتحرك الذي تجلس عليه، فيمكنك أن تتمتع بحياة الإنتصار. فالله يعيش بداخلك". قال هذا لمستمعيه من المشلولين، والمعاقين ذهنياً. ووجد أن هذا أمر محبط بالنسبة لهم. فرؤسهم كانت ترتعش والبعض سقط عن كرسيه، وكان لعابهم يزبد.

ووجد هؤلاء الشباب أن الإستماع لـ راينر أحبطهم، فذهب البعض منهم إلى "جراتد" مدير المعسكر، واشتكوا من عدم قدرتهم على فهم ما يقوله لهم راينر، فطلب منهم المدير أن يبلغوا راينر بذلك.

إحدى السيدات استجمعت شجاعتها وواجهت راينر، وقالت له: "إنك تشبه من يتكلم عن الشمس، ونحن في غرفة مظلمة، ليست بها نوافذ. لا نستطيع أن نفهم أي شيء مما تقوله. لقد تحدثت عن الحلول وعن الأزهار بالخارج، وعن النصرة، وهذه أمور لا تتناسب مع حياتنا".

إنسحق صديقي راينر إذ كانت الرسالة واضحة للغاية بالنسبة له، لقد كان يقتبس مباشرة من رسائل بولس.. أليس كذلك؟ وجُرحت كبرياؤه، لقد فكر أن يأتي إليهم بعصى روحية: هناك خطأ في حياتكم وتحتاجون لأن تنمو في الرب وتنتصروا على محنتكم.

وبعد ليلة قضاها راينر في الصلاة عاد إليهم برسالة مختلفة وقال لهم في الصباح التالي: " أنا لا أعرف ماذا أقول. إنني مرتبك، وبدون رسالة الإنتصار لا أعرف ماذا أقول" وظل صامتاً.

فإذا بالمرأة التي واجهته تتحدث من الغرفة المملوءة بالمعاقين قائلة: " الآن قد فهمناك، وعلى إستعداد لأن نسمعك".

> المفاهيمُ تَخْلقُ الأصنامَ، فقط الذي يتمنى أن يعرف يَفهمُ أيّ شيء.
>
> غريغوريوس النيصي

٢ - الشعور بالعطش بجوار نافورة

"الكوميديا الإنسانية لاتجذب إنتباهي بدرجة كافية. فأنا لست من هذا العالم... أنا من مكان آخر. وهذا المكان يستحق البحث عنه خلف الأسوار. ولكن أين هو؟"

يوجين يونسكو



عندما قمت بزيارة روسيا عام ١٩٩١ حضرت لأول مرة خدمة في كنيسة أرثوذكسية، والتي تعبر بصورة واضحة عن غموضٍ وعظمة العبادة فيها. فالشموع المضاءة أضفت ضوءاً هادئاً للكاتدرائية. واستمرت الخدمة ما بين ثلاث إلى أربع ساعات، بينما المتعبدون يدخلون ويخرجون متى شاءوا ذلك. ومثلما يحدث في الكنائس الأرثوذكسية فهنا لا أحد يتبادل معك السلام، أو يحييك بابتسامة، فهم يقفون— حيث لا توجد كراسي أو مقاعد— ويراقبون القساوسة الذين هم ومنذ ألف سنة لم يغيروا طقوسهم والتي تؤدى بشكل احترافي جداً.

وفي نفس اليوم اصطحبني كاهن، وممثل لجماعة خاصة تهتم بخدمة زيارة السجون، وزرت كنيسة صغيرة في بدروم أحد السجون القريبة. وفي عمل جريء قام موظف شيوعي في روسيا،

الملحدة سابقاً، بالسماح بإقامة هذا السجن وبه الكنيسة ، التي كانت سابقاً واحة للجمال في برج محصن مقيت. وقام السجناء بتنظيف الحجرة من قاذورات تراكمت عبر سبعين عاماً، وكسوا أرضية الغرفة رخاماً، وعلقوا الشمعدان النحاسي على الحوائط. وكانوا يفتخرون بكنيستهم تلك، لقد كانت الكنيسة الوحيدة، في ذلك الوقت، في كل سجون روسيا. كل أسبوع كان يسافر إليها الكهنة من أحد الأديرة ليقوموا بالخدمة هناك، وكان مأمور السجن يسمح للسجناء أن يتركوا زنزاناتهم لحضور الخدمة الروحية.

أمضينا دقائق قليلة ونحن محبون ومنجذبون لكل ما أنجزوه بأيديهم في هذه الغرفة، وأشار الأخ بونيفاتو إلى الأيقونة الموضوعة في كنيسة السجن "سيدتنا التي ترفع عنا أحزاننا" بهذه الكلمات علق رون بيكل أحد أعضاء المجموعة الزائرة، وأضاف قائلاً: لا بد وأنه يوجد الكثير من الحزن داخل هذه الحوائط، ثم تحول نحو الأخ بونيفاتو وسأله إذا كان في إمكانه أن يرفع صلاة من أجل السجناء. فنظر الأخ بونيفاتو والحيرة بادية على وجهه وقال: " هل بإمكانك أن تصلي من أجل السجناء".

وسأل الأخ بونيفاتو "هل تريد صلاة؟" فأجبنا بالإيجاب. وإذا به يختفي خلف المذبح عند نهاية الغرفة، وأحضر أيقونة أخرى وأضاء حولها الشموع والبخور. وارتدى الزي الكهنوتي الخاص بالصلاة، وصليباً ذهبياً، استعداداً لإقامة الصلاة.

تضمنت الصلاة سلسلة من الطقوس الرسمية، وبدأ الأخ بونيفاتو يقرأ مرتلاً لبعض الصلوات من كتاب خاص بالطقوس الدينية، كان موضوعاً على طاولة. وبعد عشرين دقيقة طلب رون من بونيفاتو أن يصلي من أجل السجناء، وإذ به يقول: "آمين" وخرجنا من السجن إلى الهواء الطلق.

في أماكن أخرى بروسيا تقابلت مع مؤمنين غربيين، وهؤلاء انتقدوا بشدة الكنيسة الأرثوذكسية. فالإحترام، والتسليم، والخوف... تلك هي الصفات التي ينقلها الأرثوذكس إلى المتعبدين أثناء فترة

العبادة، حيث يظل الله بعيداً، متعالياً، ولا يمكن الإقتراب منه إلا بعد إجراء إستعدادات كثيرة، ومن خلال وسطاء: مثل الكهنة والأيقونات. ومع ذلك؛ فقد خرجت وأنا مقتنع بأننا يجب أن نتعلم شيئاً من الأرثوذكس. حيث استمرت الكنيسة الروسية، وتحت قمع جبروت حكومة لا تؤمن بوجود الله، وإن اتخذت مكان الله كمركز عبادتها، فقد تحملت أقسى هجوم إلحادي في التاريخ.

عرفت أن الأخ بونيفاتو لم يكن متعمقاً في الخدمة الروحية، لأنني شاهدت خدمته بين المجرمين في زنزانات السجن. فقد سيطرت عليه التقاليد، وساعدته الطقوس لأن ينتقل من روح الإلحاح والسرعة ـــ وهذا ما تتطلبه خدمة السجون ـــ إلى مكان هادىء حيث أنغام الأبدية.

يقول توماس ميرتون: " إذا وجدت الله بسهولة عظيمة، فربما لا يكون الذي وجدته هو الله".

أشار العالم الفيزيائي "جون بولكينغورن John Polking-horne"، الذي إستقال من وظيفته في جامعة كمبردج ليصبح قسيساً إنجليكانياً، أشار إلى الفرق الكبير بين معرفة العلوم ومعرفة اللاهوت: حيث يمكن زيادة المعرفة العلمية بطريقة تدريجية: تدرس أولاً بطليموس، ثم جاليليو وكوبرنيكس ونيوتن وأينشتين. وكل واحد من هؤلاء العلماء بنى على الأساس الذي بناه الذين سبقوه، ولهذا فالعالم العادي اليوم لديه المزيد من المعرفة عن عالم الفيزياء أكثر مما كان لدى إسحق نيوتن. أما معرفة الله فتبدأ بطريقة مختلفة تماماً، فكل مواجهة مع الله هي فريدة في نوعها تماماً، مثل أي إجتماع بين شخصين. ولهذا فالمتصوف الذي عاش في القرن الخامس، أو المهاجر الأمي قد يكون لديهما معرفة عميقة بالله أكثر من اللاهوتي في القرن العشرين.

اعتاد كارل ساجان عالم الكوزمولوجيا(علم يبحث في مظهر

الكون وتركيبه العام..) أن ينطق بما قد لا يعرفه: "الكون هو كل ما هناك وكل ما سيكون". ومع ذلك فقد ظل ساجان محصناً من الرغبة في الإتصال بالآخر. وتحكي روايته "الإتصال Contact" عن حكومات ترغب في إنفاق نصف تريليون دولار لكي ترسل شخصاً لعالم آخر. وهذا الرسول، الذي لعبت دوره في السينما جودي فوستر، وقامت بهذ الإتصال فعلاً وعادت لتجد أن العلماء سخطوا على تقريرها بينما رحبت به الجماهير. وكشفت رواية ساجان أكثر مما كان يقصد أو يتوقع.

يدّعي المؤمنون أنه هناك أوقات حدث فيها إتصال شخصي مع خالق الكون، فكتب مرة توما الأكويني عن مثل هذه المواجهة فقال: "رأيت أشياء جعلت كل كتاباتي تبدو كالقش".

في فيلم "الإتصال" جلست جودي فوستر أمام أطباق الراديو الضخمة يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، حتى بدأ يصلها صوت واضح من خلال السماعات، وهي جالسة على الكرسي، وصاحت: شيء ما هناك! وبالنسبة للمؤمنين أيضاً فالإتصال أو التلامس قد يأتي بنوع من الصدمة. استمع لما يقوله س. إس. لويس:

> " إنه أمر مروع أن نواجه الحياة ونحن نعتقد أننا بمفردنا، فنصرخ ونقول: "أنظر إنه حي!"، ولهذا فإن هذه هي النقطة التي يتراجع عندها الكثيرون، ولا يتقدمون في حياتهم المسيحية. "الإله المجرد والمجهول" هو الأفضل. إله الجمال، والحق، والخير، في داخل أذهاننا، من الأفضل أن يظل كذلك. قوة حياة لا شكل لها ولا صورة تموج داخلنا، قوة هائلة يمكن أن نطلبها ونطرق بابها- هي الأفضل. أما الله نفسه الحي، والذي يجذب الحبل من طرفه الآخر، وربما يقترب بسرعة هائلة، الصياد، الملك، الزوج- فهذا أمر آخر تماماً. فقد تأتي لحظة يصمت فيها الأطفال الذين كانوا يلعبون معاً ويقولون: هل هناك وقع أقدام في الصالة؟ وقد تأتي لحظة يتراجع فيها

أناس يبحثون عن الله بكل إجتهاد ويقولون: فلنفترض أننا وجدناه؟ لم يكن هذا قصدنا. وماذا لو وجدنا هو؟

لقد شعرت أنا أيضاً بهذه الجذبة العنيفة التي هزتني وأخرجتني من حالة الثورة، لقد كانت قوية لدرجة أنها وجهت حياتي نحو إتجاه آخر جديد. ومع ذلك؛ فقد ظللت لفترات طويلة جالساً في إنتظار، وحاجة ماسة لرسالة من العالم الآخر، لتؤكد لي هذا الإتصال، ولكن لم يحدث شيء.

كيف يمكن أن شيئاً جوهرياً مثل الله الذي خلقنا لنعرفه، ونحبه، يصبح رقيقاً للغاية؟ وإذا كان الله، مثلما أخبر بولس جمهور الشكاكين، والفلاسفة في أثينا، "قد فعل هذا" حتى يمكننا أن نصل إليه ونجده، فلماذا لا يجعل نفسه في صورة أوضح بالنسبة لنا؟

إن الذين دوّنوا الوحي في الكتاب المقدس عاشوا في "الأرض المقدسة" حيث اشتعلت الشجيرات والصخور، والبراكين، وتدفقت منها إستعارات مقدسة، والنجوم تحدثت عن عظمة ومجد الله. لم يعد يحدث ذلك الآن، ويبدو أن مثل هذا العالم الذي يفوق الطبيعة قد إنزوى، تاركاً إيانا بمفردنا مع المرئيات. إن الشعور بالعطش إلى الله لكي نتواصل ونتلامس مع غير المرئي، والجوع إلى الحب من آب كوني والذي بإمكانه أن يصوغ المعنى لهذا العالم المتزاحم، شعور يحتاج إلى نوع من التحدي والمثابرة.

نحن الذي نعيش في عالم مادي في أجساد يكسوها الجلد نريد من الله أن يتصل بنا في عالمنا بطريقة نستطيع فهمها. قمت مرة بزيارة المزار المهيب لعذراء جوادلوبي Virgin of Guadelope خارج مدينة المكسيك. وفي غرفة بالمتحف توضح الإعلانات أن صورة العذراء ظهرت بطريقة معجزية لشخص هندي كان موجوداً بالموقع عام ١٥٣١م وتركت صورتها على معطفه، وكان المعطف عدما رأيته ممزقاً ومعلقاً بالداخل. وقالوا أن عين العذراء كانت تحتجز صورة ذلك الهندي، وبدأ السياح يتفحصون بدقة وجه العذراء بحثاً عن صورة الرجل الهندي. ورافقني في ذلك اليوم

آلاف السياح محملقين في تمثال العذراء بمساعدة بعض الأجهزة التي قادتنا إلى الجانب الآخر من السور الحديدي.

لست أدري ما إذا كان كارل ساجان زار هذا المكان، وبإمكاني أن أخمّن رد فعله لو كان قد زاره، فسيقول: يتخيل الناس ما يريدون كشكل من أشكال الإسقاط أو الرغبة في تحقيقه. إننا نشتاق لما هو مرأي آملين أن نحضر ما هو فوق الطبيعة إلى مستوانا المادي. وفي عام ١٩٩٩م ظهرت صورة يسوع على زجاج مبنى إداري في فلوريدا، وتمكن البعض من رؤية هذا من زاوية معينة، وفي اليوم التالي تعطل المرور على مسافة ميل بسبب موكب السيارات في الشارع، والتي جاءت لترى الصورة. أيها الأحباء إننا نفقد الصبر مع أي شيء يُظهر نفسه لنا بالصورة التي نريدها نحن.

"ألن تيرنج" وهو أحد الرواد في عالم الكمبيوتر والذكاء الإصطناعي، إقترح طريقة للإجابة على السؤال: "هل بإمكان الكمبيوتر أن يفكر؟" وهي وضع لوحة المفاتيح والشاشة إلى جانب من الحائط، وعلى الجاب الآخر شخص أو آلة (×). إسأل (×) عدة أسئلة وانتظر الإجابة حتى تظهر على الشاشة. **من فضلك أكتب لي قصيدة عن الموضوع التالي** [حدد الموضوع]. **إجمع ٣٤٩٥٧+ ٧٠٧٦٤. هل تلعب الشطرنج** [إطرح بعض ألغاز الشطرنج]. وإقترح تيرنج أن الجهازيمكنه أن يقول ما إذا كان السائل شخصاً أم آلة. وعندما كتب تيرنج هذا البحث عام ١٩٥٠ عارض الكثيرون هذا الجهاز. أما الآن فقد تقدم الذكاء الصناعي إلى الدرجة التي يستطيع فيها الكمبيوتر أن يهزم أفضل لاعبي الشطرنج في العالم، كما أن المشورة التي تُعطيها البرمجيات soft-ware بإمكانها أن تدير حوارات ممتدة مع مستخدمي الكمبيوتر. والجهاز الذي يُدمِّج فيه برنامج جيد بإمكانه أن يُذهل ويربك من يسأله لفترة من الوقت.

ولأن الله سوف يظل غير مرئي، يميل الناس إلى رسم صورة له في أذهانهم. وكتاب "أحاديث مع الله" يشتمل على ثلاثة كتب،

وهي من أفضل الكتب مبيعا، والتي اقتناها ملايين القراء، والتي إدعى كاتبها أن الله أملاه إياها. لقد إلتقيت مرة بواحد من محبي قراءة الكتب وسألته أن يصف لي "الله الذي يؤمن به هو" فقال: "إن الله غير بعيد عنا. إنه خالق كل طاقة نافعة في العالم. نحن الذين نصور الله بحسب تفكيرنا".

على النقيض من ذلك؛ يعتقد المؤمنون أن لله صفات عديدة: شخص لا يمكن التنبوء عنه، يمكن إقامة علاقة معه، حر، ذكي، عاطفي، وأحياناً متعاون أو مقاوم. والمشكلة هي في كيفية وضع الله على الجانب الآخر من الحائط لكي يجيب على أسئلتنا. إنه لم يكتب شيئاً بمثابة جواب على الأسئلة. ويقول العلماء أن الله لا يمكن إثباته بالتجربة. ونحن يجب أن نؤمن بشيء ما- كقوى الغريزة مثل: الجوع، والعطش- ولكننا لم نعد نعرف بماذا نؤمن. إن اللاهوت التقليدي يبدو لبعض الناس كما لو أنك تقرأ وصفات طعام لأناس جوعى، ومثل ظمأ لا يمكن أن يُروى.

الفيلم الذي قدمه وودي ألن بإسم "النائم Sleeper"، يقدم وودي وقد تجمد لفترة طويلة ثم استيقظ من سباته في القرن التالي، ومن خلال بعض الصور القديمة حاول أن يشرح لسكان العالم الفترة التي قضاها بعد مائة سنة. وبدأ يعلق على نورمان ميلر، و ريتشارد نيكسون، وفي صورة أخرى تحدث عن المبشر المشهور بيللي جراهام، وإدعى بأنه عرف الله شخصياً. وضحك كل من شاهد الفيلم، ومن يقدر على لومهم على ذلك؟ ومثل هذه الفكرة سخيفة ومضحكة، ومع ذلك لا شيء أفضل منها ليعبر عن الوعد الذي يحوم حولنا.

إن الله شخص؛ وأغلب اللاهوت المسيحي يطرق بشدة على جو الفلسفة اليونانية الخالصة، ويزيد من غموض هذه الحقيقة الواضحة باستخدام عبارات غير شخصية، مثل "أرض كل

الكائنات"، و"إستنتاجات لا يمكن تجنبها"، لكي يصف الله. ولكن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد يصوّر الله الذي يؤثر فينا ويتأثر بنا "لأَنَّ الرَّبَّ رَاضٍ عَنْ شَعْبِهِ" (مز ١٤٩: ٤). ويقول الأنبياء أنه في بعض المرات يتوقع الله الكثير من شعبه. وتظهر شخصية الله تقريباً في كل صفحة من صفحات الكتاب المقدس. يقول الرسول يوحنا : "اللهُ مَحَبَّةٌ، وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ يَثْبُتْ فِي اللهِ وَاللهُ فِيهِ." ومن الصعب أن نجد عبارات تعبر عن أن علاقتنا بالله شخصية أكثر من هذه الآيات.

لماذا إذا نجد أن الأمر صعب علينا في أن نتصل شخصياً بهذا الإله؟ وفي أوقات مختلفة يهتم الناس بالصلاة لقديسين محليين، والذين يبدو أنه من السهل الوصول إليهم ولا يخافونهم. ومع ذلك فالمصلحون البروتستانت والمتصوفون الكاثوليك يتحدوننا لكي نتصل بالله مباشرة، ودون أي وسيط. وتدعو الإنجيلية الحديثة لأن نعرف الله ونتحدث معه ونحبه كما نحب أصدقاءنا. استمع إلى الترنيمات في الكنائس الحديثة وستجد أنها تشبه أغاني الحب في الراديو، والفرق أننا نضع الله أو المسيح بدلاً من الحبيب.

نفس التقليد الإنجيلي الذي يحثنا على المزيد من الألفة والمودة أيضاً قد يسيء إستخدام الكلمات: "لقد سألت الرب عن أي موضوع أتحدث فقال لي: لا تتحدث عن الكبرياء، بل تحدث عن الوكالة"، "أخبرني الرب أنه يريد مركزاً طبياً جديداً في هذه المدينة"، "إن الله يهمس في أذني الآن أنه يوجد الآن من بين المستمعين والمشاهدين شخص يعاني من زواج محطم". وأعلم يقيناً أن البعض من مثل هذه الجمل خادع، ويتفوّه بها متحدثون يتلاعبون بالألفاظ بطريقة غير دقيقة. إن مثل هذه العبارات تتضمن نوعاً من الحديث المباشر بين الله والإنسان، وهذا لم يحدث، والتقرير الخاطيء يخلق نوعاً من عدم الإحترام والتقدير لإختبارات الآخرين.

القس مارتن مارتي، وهو خادم لوثري وكاتب مشهور اعترف قائلاً: "يمكنني أن أحسب على يد واحدة عدد المرات في حياتي

التي تمتعت فيها بعلاقة مباشرة مع الله بدرجة تستحق الحديث عنها، حتى للشخص الذي يجلس بجواري، ولا يمكنني أن أحسب ولا مرة واحدة تستحق الإعلان عنها للجمهور". بهذه الكلمات كان يتحدث عن فترة من تجلي الرب له، وعن الهجر والذي نزل عليه أثناء فترة طويلة من المرض لزوجته.

الكاتب فردريك بوتشنر الذي أقدره كثيراً في مهارته وإلتزامه المسيحي. ترك هذا الكاتب وظيفته كروائي لكي يحضّر محاضرات وقابلاً العمل كخادم مشيخي، ولكي يعود للكتابة كمنبر، وعظه الأول. سجل في مذكراته عن منظر مدهش استقلى فيه تحت أشعة الشمس الدافئة ملتمساً ومتوسلاً من أجل معجزة، وليرى علامة محددة من الرب.

> في أحد الأيام استلقيت على العشب وسيطرت عليّ توقعات جامحة. إحداها هو المعنى العظيم للثقة والإيمان بالله، وفي إمكانية حدوث المعجزة، ولظروف مختلفة كان لديّ شعور قوي في تلك اللحظة بأن الوقت مناسب للغاية لحدوث معجزة، فأتمتع بحياة روحية ناضجة مستعدة لحدوثها. شيء ما سوف يحدث، شيء غير عادي يمكنني أن أراه وأسمعه، وإزداد التأكيد داخلي حتى أنني عندما استعدت التفكير في الأمر إندهشت لأنني لم أتمكن بقوة الإيحاء الذاتي أن أجعله يحدث. ولكن أشعة الشمس كانت ساطعة والهواء نقياً، وخيط من شك في نفسي كان قوياً لكي يجعل من الممكن أن أتخيل أشباحاً بين أشجار التفاح، ولم يحدث شيء مما توقعت.

وكل الذي حدث بعد ذلك هو سماع الكاتب لصوت الرياح وحفيف الأغصان. هل تحدّث الله أم لا؟ لماذا لم يستخدم الله أسلوباً واضحاً لا يقودنا للشك؟وهنا نرى أن الله يتحدث للكاتب بوتشنر كما كان يتوقع.

عندما كان في الخمسينات من عمره أمضى بوتشنر مدة نصف

عام في التدريب بكلية وايتون wheaton حيث واجه ولأول مرة اللغة الحميمة والمنطلقة للإنجيليين، وعلق قائلاً: " أندهش عند سماعي الطلبة وهم ينتقلون بطريقة تلقائية، وعفوية من الحديث عن الطقس والأفلام السينمائية إلى الحديث عما فعله الله في حياتهم. ولو أن واحداً تحدث بهذه الطريقة في المكان الذي أقيم فيه في بلدي لإنهار السقف ولاشتعلت النيران بالمنزل ولإتسعت عيون الناس دهشةً". ومع أنه كان معجباً بحماسة الطلبة، كان يبدو له في البداية أن الله بالنسبة لهم كصديق كوني صالح.

هل نشبه نحن لوحة إعلانات تعلن عن مشروب البيبسي، وتثير عطشاً لا يمكننا أن نرويه؟ الأسبوع الماضي كانت كنيستي ترنم : "أريد أن أعرفك أكثر... أريد أن المسك... أريد أن أرى وجهك"، ولا يوجد مكان في الكتاب المقدس نجد فيه وعداً بأننا سنلمس الله، أو أن نرى وجهه، على الأقل ليس في هذه الحياة.

تتحدث العقيدة الأمريكية الحديثة بكلمات تتسم بالصداقة مع الله، بالرغم مما يقوله س. إس. لويس في كتابه "أربعة أنواع من الحب The four loves يقول أن الصداقة هي صورة من صور الحب التي تصف بدقة حقيقة مواجهة المخلوق مع الخالق. كيف يمكننا إذا أن تكون لنا "علاقة شخصية" مع الله الذي لا نستطيع أن نراه ونحن غير متأكدين تماماً بأنه هناك؟.

> إنني هنا أموت عطشاً ، بجوار النافورة .
>
> **ريتشارد ويلبر**



الجزء الثاني



الإيمان

عندما يبدو الله غائباً، وغير مبالٍ، أو حتى معادياً

٣ - مكان للشك



"نحن نؤمن ونشك مائة مرة في الساعة،
وهذا ما يزكي إيماننا"
إيميلي ديكنسون



يجب أن أمارس الإيمان حتى أؤمن أن الله موجود، وهذا أمر ضروري لقيام أية علاقة. ومع ذلك فعندما أرغب في اكتشاف كيفية عمل الإيمان، فعادة ما أتسلل من الباب الخلفي للشك، لأنني اتعلم حاجتي إلى الإيمان أثناء غيابه عني. ولأن الله غير منظور فهذا يؤكد أنني سوف أختبر أوقاتاً من الشك.

كل منا يتحرك على بندول الساعة الذي يتأرجح بين الإيمان والشك، ثم نعود للإيمان. وننتهي .. إلى أين؟ البعض لا يجدون الإيمان على الإطلاق. سألت مرة إحدى السيدات برتراند راسل، وهو أشهر ملحد في العالم في ذلك الوقت، ماذا سيقول لو أنه ظهر في النهاية أنه كان مخطئا ووجد نفسه خارج أبواب السماء. فلمعت عينيه وأجاب في صوت مرتفع رقيق: "سوف أقول يا الله، إنك أعطيتنا أدلة غير كافية!".

آخرون لديهم إيمان ثم يفقدونه. نشأ بيتر دي فري في بيت يتبع مباديء كالفن بكل حزم، وتخرج هو أيضاً من كلية كالفينية، واستمر

في كتابة روايات هزلية عن فقدان الإيمان. أحد شخصيات رواياته يقول: " لم يغفر لله عدم وجوده بطريقة ملموسة"، إنها كلمات تعبر كثيراً عن مدى قلقه وهواجسه على عمل الله. وتخبرنا روايته "دم الحمل" عن دون وندرهوب والد فتاة عمرها إحدى عشر سنة تعاني من اللوكيميا، وعندما بدأت العظام تستجيب للعلاج، وقاربت على الشفاء، إذا بعدوى تجتاح كل جناح بالمستشفى فتموت الفتاة. وندرهوب والد الفتاة أحضر كعكة مكتوب عليها سم ابنته، وغادر المستشفى عائداً للكنيسة حيث كان قد صلى من أجل شفائها، وقذف بالكعكة على الصليب المعلق أمام الكنيسة. والتصقت الكعكة أسفل تاج الشوك، وسقطت بعض النقاط البيضاء على وجه المسيح.

إنني أشعر بالتعاطف مع أولئك الذين هم مثل "رَسل"، الذي كان من الصعب عليه أن يؤمن، أو مثل "دي فري" الذي كان من المستحيل عليه أن يظل مؤمناً في وجه خيانة واضحة. لقد اجتزت في مثل هذه الظروف عدة مرات، وتعجبت أن الله منحني إيماناً عظيماً. وعندما امتحن الفترات التي ضعف فيها إيماني أرى كل تصرفاتي التي إتسمت بالشك وعدم الإيمان. كنت أنزوي بعيداً شاعراً أنني جُرحت، وأحياناً أخرى كنت أنتحي جانباً متعمداً العصيان، وأحياناً كنت أتراجع في علاقتي مع الله وأتساءل ... لماذا؟ موجهاً التساؤل إلى نفسي.

" إِنَّ هَذَا الْكَلاَمَ صَعْبٌ! مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْمَعَهُ؟" هذا ما قاله تلاميذ المسيح، وهو نفس القول الذي يطنُّ في أذن كل من يشك. لقد وجد الناس الذين يستمعون إلى المسيح أنفسهم منجذبين تلقائياً إليه، وفي ذات الوقت رافضين له، كإبرة البوصلة التي تقترب من المغناطيس باهتزاز. وعندما بدأت كلمات المسيح تتغلغل داخلهم، بدأ جمهور المشاهدين والأتباع في الإبتعاد، واحداً تلو الآخر، تاركين الإثني عشر تلميذاً فقط. فسألهم يسوع بنغمة حزينة: "أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً تُرِيدُونَ أَنْ تَمْضُوا؟" ، وكالعادة يجيب سمعان بطرس: "يَا رَبُّ إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟".

تلك هي الإجابة النهائية لي، والتي أتمسك بها، وأنتظرها. ولكي أُخجِّلَ نفسي فإنني أعترف بأنه من الأسباب التي تجعلني باقياً في الإيمان هو حاجتي للبحث عن بديل أفضل، لقد حاولت البحث عنه: "يا رب إلى من أذهب؟"، ومن أكثر الأمور الأكثر صعوبة من أن يكون لك علاقة مع إله غير منظور، هو أن لا يكون لك مثل هذه العلاقة معه.

إن الله غالباً ما ينجز أعماله من خلال حمقى مقدسين Holy fools، أولئك الحالمين، الذين يندفعون بقوة في إيمان مثير للضحك، بينما أنا أتخذ قراراتي بحذر وحرص شديدين. وفي الحقيقة إن عكس ذلك هو الذي يصلح لأمور الإيمان. إن العالم الحديث يحترم الذكاء، والمظهر الحسن، والثقة بالنفس، والإنسانِ رفيع الثقافة. ولكن الأمر ليس كذلك عند الله. فلكي تُنجَز أعمال لله فهذا غالباً ما يعتمد على أناس بسطاء غير متعلمين، الذين لا يعرفون أكثر من أن يثقوا به، فمنِ خلالهم تُصنع العجائب. إن أقل الناس موهبة يمكن أن يصبح سيداً، وقائداً في الصلاة، لأن الصلاة تحتاج فقط إلى رغبة قوية لأن تقضي وقتاً مع الله.

كنيستي في شيكاغو بها خليط من جنسيات ومستويات إقتصادية مختلفة. وفي إحدى الأزمات قررت أن نقضي ليلة كاملة في الصلاة. اعترض الكثيرون، هل نؤجر حرساً خاصاً ليحرس مكان السيارات؟ وماذا لو لم يحضر أحد؟ وأخيراً؛ ناقشنا مدى الجدوى العملية لهذا الأمر قبل أن نتخذ القرار الأخير بشأنه.

أكثر الأعضاء فقراً في الإجتماع هم مجموعة من أصحاب المعاشات، الذين كانت إجابتهم حماسية جداً فيما يختص بليلة الصلاة. ولم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل: كم مرة لم تُستجب صلواتهم عبر السنين- لقد عاشوا وسط الجريمة، والفقر، والمعاناة- ومع كل هذا فمازالوا يُظهرون إيمان الأطفال، وثقتهم في قوة

الصلاة. سألتهم: "كم من الوقت بإمكانكم أن ينتظروا معنا...ساعة، ساعتين؟"، سألت هذا السؤال لكي أدبر أمر عودتهم، فأجابوا: "سنصلي معكم طوال الليل".

إحدى السيدات في التسعين من عمرها، وكانت تتوكأ على عصى، وبالكاد تستطيع أن ترى، قالت لأحدى العضوات المسئولات في الكنيسة: لماذا تريدين قضاء الليل كله جالسة على مقعد بالكنيسة في منطقة مجاورة غير آمنة، فقالت: "هناك أشياء كثيرة لا نستطيع أن نعملها في هذه الكنيسة. صحيح أننا لم ننل القدر الكافي من التعليم، وليست لدينا قوة، وطاقة الشباب، ولكننا نستطيع أن نصلي طوال الليل إذا كانت هناك حاجة لذلك".

لقد أوفوا بما قالوا، وفي أثناء ذلك تعلمت مجموعة في إحدى الكنائس في وسط المدينة درساً هاماً: أن الإيمان يظهر حيث تقل وتضعف التوقعات، ويتداعى الإيمان حيث يجب أن يكون مزدهراً.

على الرغم من شكوكي الفطرية، فإنني أشتاق لأن يكون لي نفس نوعية الإيمان البسيط، والطبيعي، الذي كان لذوي المعاشات، إيمان الأطفال الذي يسأل الله من أجل تحقيق المستحيل. وأنا أفعل هذا لسبب واحد: إن يسوع يكافيء مثل هذ الإيمان، وهذ ما تبينه وتُصرّح به قصص المعجزات في الأناجيل: "إيمانك قد شفاك". وهو ما صرح به يسوع محولاً الإنتباه عن نفسه إلى الشخص الذي شُفي. فلم تأت القوة المعجزية من جانبه فقط، ولكنها اعتمدت، بشكل ما، أيضاً على من نال المعجزة.

إذا تفحصنا كل قصص المعجزات فسوف نرى أن للإيمان درجات مختلفة. قليل من الناس أظهروا إيماناً قوياً، مثل قائد المائة الذي قال ليسوع: أنه لا داعي لأن يتعب نفسه بالحضور، بل يكفي أن يقول كلمة فيبرأ الغلام. فإذا بيسوع يقول مُتعجباً: "أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ أَجِدْ وَلاَ فِي إِسْرَائِيلَ إِيمَاناً بِمِقْدَارِ هَذَا". وفي مرة أخرى كانت إمرأة أجنبية تتبع يسوع وهو يحاول أن يجد مكاناً هادئاً ليستريح

فيه. في البداية لم يقل لها ولا كلمة واحدة، بل أنه أجابها بحدة قائلاً: لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ". غير أن جوابه هذا لم يثبط من إصرار هذه المرأة الكنعانية، بل وإنتصرت بمثابرتها. وقال لها يسوع: "يَا امْرَأَةُ عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ". هؤلاء الأجانب الذي لا يستطيعون أن يعطوا مثلاً للإيمان العظيم، أعجب يسوع بهم. ماذا وضع قائد المائة والمرأة الكنعانية- لقد وضع هؤلاء الأجانب- ثقتهم وإيمانهم في المسيا، بينما أبناء وطنه وجدوا صعوبة في قبوله.

في تعارض واضح نجد أن الناس الذين كان يجب أن يعرفوه أفضل، تخلفوا وتراجعوا عن أن يكون لهم هذا الإيمان. وجيران يسوع شكوا فيه، حتى يوحنا المعمدان ، قريبه، والذي أتى ليُعدّ له الطريق، شكّ فيه. ومن بين التلاميذ شك فيه توما، وأنكره بطرس، وخانه يهوذا، وكل هذا حدث بعد أن قضوا معه ثلاث سنوات.

لقد لاحظت نفس القانون العكسي في كنيستي، في شيكاغو: إن الإيمان يظهر حيث تقل التوقعات، ويتداعى حيث يجب أن يكون مزدهراً. والذي يعطيني أملاً رغم كل هذا، هو أن يسوع يعمل مهما كان حجم بذرة الإيمان في شخص ما. إنه يُقدّرَ ويحترم إيمان كل شخص يطلب، فمن قائد المائة الشجاع، إلى توما الشكاك، والأب المضطرب الذي يصرخ قالاً: "أُومِنُ يَا سَيِّدُ فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي".

ما أكثر نماذج الإيمان التي عُرضت في الكتاب المقدس، وإنني لأتساءل: ما إذا كان الناس ينقسمون بطريقة طبيعية إلى أنواع مختلفة من الإيمان، مثلما يمكن أن نقسمهم إلى أنواع مختلفة من الشخصيات. فهناك الشخص المنطوي الذي يتعامل مع الناس بحذر، وأنا أيضاً أتعامل مع الله بنفس الطريقة. ومثما أتبع نظام المحاسبات في إتخاذ قراراتي، وأفكر في كل الجوانب، وأختبر أعراض لعنة "الجانب الآخر"، كلما أقرأ وعداً مضيئاً في الكتاب المقدس. إنني اعتدت أن أشعر بذنب دائم بالإضافة إلى إيماني العقيم. وما زلت أشتاق للمزيد، ولكنني توصلت إلى حالة من الوفاق مع مستوى

إيماني. إننا لسنا خجولين من المكتئبين، أو المنطوين، لماذا نتوقع أن يكون لنا نفس مقياس أو نوعية هذا الإيمان؟

إن الشك هو الهيكل العظمي في خزانة الإيمان، وأعلم أنه لا توجد طريقة أفضل لعلاج هذا الهيكل إلا بوضعه في الخارج والكشف عنه لمعرفة ما هو: ليس كشيء ما نخبأه أو نخاف منه، بل كتركيبة صلبة يمكن للأنسجة الحية أن تنمو عليه. وإذا طلبت من كل شخص أن يوقف القراءة عن الأشخاص الذين اضطرب إيمانهم بسبب مأساة حدثت لهم، أو محاولة للتحرر من الوهم بسبب كنيسة أو أفراد مؤمنين- لكنت أنهيت كتابي هذا بهذه الجملة. لماذا إذا تُعامل الكنيسة الشك كعدو؟. طُلب مني مرة أن أوقع على مجلة "المسيحية اليوم" على أنها مجلة الإيمان "بدون شك أو مراوغة"، وكان علىّ أن أخبرهم أنه بإمكاني، وبصراحة أن أوقع إسمي بدون شك أو مراوغة.

" إنني لا أعرف نوعية الإيمان التي يحتاجها المؤمن الذي يعيش في القرن العشرين إن لم يكن مؤسساً على إختبارات من الشك" هكذا كتب الروائي فلانري أوكنور إلى صديقه. لقد قال بطرس: "آمنت يا رب. فأعن عدم إيماني". إنها من أكثر الصلوات التي تتسم بالإنسانية والطبيعية، وبها مسحة من الحزن والألم، في كل الأناجيل، وأعتقد أنها أساس لصلاة الإيمان. إن الشك يتعايش دائماً مع الإيمان لأنه في وجود اليقين والثقة، من يحتاج إلى الإيمان؟

في طفولتي سمعت فريق الترنيم الإسكتلندي يقول: "ابتهجوا وافرحوا يا قديسي العلي... ليس هناك ما يدعو للقلق... ولا للخوف... ولا للشك". لقد أعجبتني الترنيمة كثيراً، ولكنني الآن وعندما أتأمل في كلمات تلك الترنيمة أتسأل ما إذا كان الكاتب قد قرأ نفس الكتاب المقدس الذي أقرأه أنا، والذي فيه يترنح الأبطال من أزمة إلى أخرى.

لقد كان رد فعل أصدقاء أيوب على شكوكه قوياً: "إلى متى تقول هذا وتكون أقوال فيك ريحاً شديدة؟ لماذا يأخذك قلبك حتى ترد على الله وتخرج من فيك أقوالاً؟" إن الله الذي كانت له خلافات مع أيوب، أخذ بيده وأقامه بطلاً للإيمان. وأسفاراً كتابية مثل: أيوب، وأخبار الأيام، والمزامير، ومراثي أرميا، تبين بوضوح تام أن الله يفهم قدر وقيمة الشك الإنساني، ووصفه بإسهاب في كلمة الله.

يُعلّم علم النفس الحديث بأنه طالما أنك لا تستطيع التخلص من مشاعرك، فبإمكانك أن تُعبّرَ عنها بكل صراحة، والكتاب المقدس يوافق على هذا الرأي. فأولئك الذين يواجهون شكوكهم بأمانة فإنهم ينمون في إيمان يسمو ويتجاوز تلك الشكوك.

إنني بحاجة لأن أُذكِّرَ مجموعة المؤمنين الأقوياء في الإيمان لكي أثبت السيادة والغلبة للشك في بعض الأحيان. فقد كان مارتن لوثر يناضل بإستمرار ضد الشك والإكتئاب "لأكثر من إسبوع" هكذا كتب لوثر. أما ريتشارد باكستر البيوريتاني المُتطهِّرَ فقال: "لقد فقدت إيماني تماماً بالمسيح، وهزني الشك والتجديف ضد الله" فإذ به يضع إيمانه في "الإحتمالات بدلاً من الأمور المؤكدة، وغير المشكوك فيها". و تبعه زميله البيورتاني ماذير حيث كتب في مذكراته اليومية: "لقد إنزعجت كثيراً بالإغراءات التي تدعوني للإلحاد". وإحدى الكنائس في بوسطن عطلت دعوة المبشر مودي لكنيستهم لأنهم إعتبروا أن معتقداته غير مؤكدة. والمرسل س.إف. أندراوس، وهو صديق لغاندي، وجد نفسه غير قادر على قيادة إجتماع في الهند يتبع العقيدية الأثينية، وذلك بسبب الشكوك حولها. والمتصوفة البريطانية إيفلين أندرهيل صرحت لجريدة التايمز قائلة: "إن كل الخطة والبرنامج الروحي موضع شك".

عندما أقرأ مذكرات رجال الإيمان العظام أحاول أن أجد شخصاً لم ينْمُ إيمانه على هيكل الشك، ثم بدأ ينمو حتى يختبيء هذا الهيكل العظمي. كتب مارتن جاردنر في روايته "هروب بيتر فروم The fight of Peter Fromm" عن أستاذ يقترح أن المؤمن الأمين

عقلياً، وفكرياً في أيامنا هذه يجب أن يختار بين أن يكون خائناً واثقاً من نفسه، أو كاذباً مخلصاً. آدم، وسارة، و يعقوب، و أيوب، و أرميا، و يونان، و توما، ومرثا، وبطرس، وشخصيات أخرى كثيرة في الكتاب المقدس توضح لنا أنه توجد فئة ثالثة: الخائن المخلص الذي يتساءل ويرتبك، ويثور ورغم هذا يظل أميناً ومخلصاً. إن الله يخشى الشك بدرجة أقل كثيراً جداً من الكنيسة.

الكنيسة مدينة بدين كبير للخونة المخلصين. ففي أوقات مختلفة أصرّ المسئولون في الكنيسة على صحة الإعتقاد بأن عمر الأرض أقل بستة آلاف سنة، واعترضوا على بعض الأدوية، على أنها ضد إرادة الله، وأيدو العبودية مفضلين جنساً على جنس آخر، واعتبروا المرأة أقل مرتبة من الرجل. وتساءل الشكاكون عن هذه الأمور، وعن تعاليم وعقائد أخرى، وجلبوا على أنفسهم إدانة وإضطهاداً.

الروائي "جون إيرفنج" في روايته "صلاة من أجل أوين" يصف مدرساً جعل من الإيمان أمراً جذاباً، لأنه قدّر قيمة الشك. من المحتمل أن إيرفنج كان يُشير إلى مدرس يُدعى فروبخ في مدرسته الداخلية، والذي شكره في مقدمة كتابه. كان فروبخ بوتشنر يؤمن بأن العلاقة بين الله غير المرئي والإنسان المرئي سوف يشوبها داماً عنصر الشك، فيقول: "بدون أن يدمرني في هذه العملية، كيف يستطيع الله أن يكشف عن نفسه بطريقة لا تترك مكاناً للشك؟ فلو لم يكن هناك مكان للشك، ما كان هناك مكان لي".

بعد أن امتدحت الشك كثيراً، فإنني أعترف أيضاً بأن الشك قد يُبعد الشخص عن الإيمان، وليس لعكس. وفي حالتي الشخصية فإن الشك قادني لأن أسأل عن أشياء كثيرة تحتاج للتساؤل، وأن أستفسر عن بدائل للإيمان، ولكن ولا واحدة منها كانت تناسبني. إن شكوكي هي التي حفظتني مؤمناً حتى اليوم. لأنه بالنسبة لكثيرين غيري، كان للشك أثر عكسي عليهم، إذ أنه كان بمثابة مرض في الشرايين

سبب لهم شللاً روحياً بطيئاً ومؤلماً. فكل أسبوع تقريباً أجيب على رسالة شخص عذّبه الشك، وكانت معاناتهم حادة وخطيرة مثل أية معاناة عرفتها أنا.

ومع أننا لا نستطيع السيطرة على الشك الذي غالباً ما يأتي إلينا بدون أية دعوة، فإنه بإمكاننا أن نتعلم كيف نضعه في قنوات مناسبة بطريقة تجعله نافعاً، وليس مؤذياً. وكبداية فإنني أحاول أن أتعامل مع شكوكي بإتضاع يتناسب مع حالتي الإنسانية (كبشر).

كنت غالباً ما أتساءل: لماذا لم يعط الكتاب المقدس إجابات واضحة عن بعض الأسئلة المعينة؟ فقد كان لدى الله الفرصة الكاملة كي يوجه كلامه عن مشكلة الألم في حديثه عند نهاية أيوب، في أطول حديث قاله الله في الكتاب المقدس، وبالرغم من ذلك فقد تجنب هذا الموضوع تماماً. كما أن الكتاب عالج قضايا أخرى هامة بإشارات بسيطة، وليس بآراء مباشرة وواضحة. ولي نظريتي الخاصة في ذلك، وسوف أقولها كرأي شخصي.

لديّ كتاب على مكتبتي بعنوان "دائرة معارف الجهل". يقول مؤلفه إن معظم دوائر المعارف تجمع وتضيف لنا معلومات نعرفها، ولكن هو سيحاول أن يلخص الموضوعات العلمية التي لا نستطيع تفسيرها حتى الآن: أسئلة عن الكون، مُنحنىَ الفضاء، ألغاز الجاذبية، الجسم الداخلي للشمس، الوعي الإنساني. وإنني أتساءل: ما إذا كان الله قد وضع سوراً حول منطقة معينة من المعرفة، "دائرة معارف الجهل اللاهوتي" لأسباب خيّرة. وهذه الإجابات ستظل في نطاق دائرة الله الذي يرى أن الوقت المناسب لإعلانها لم يحن بعد.

ولنتأمل في موضوع خلاص الأطفال، فقد وجد معظم اللاهوتيين مفاتيح لاهوتية كافية لتقنعهم بأن الله يرحب بكل الأطفال "تحت سن المسئولية والحساب"، بالرغم من أن الأدلة الكتابية في هذا الأمر ضئيلة. ماذا لو أن الله جعل الأمر واضحاً وقال: "هكذا قال الرب: إنني أرحب بكل طفل تحت سن العاشرة في السماء".

وبإمكاني بكل سهولة أن أتخيل الصليبيين في القرن السابع عشر وهم يصعدون إلى معركة ويقتلون كل طفل في سن التاسعة فما دون، لكي يضمنوا خلاصهم الأبدي- والذي يعني بالطبع أن ولا واحد منا ولا بعد ألف عام يستطيع أن يتأمل في مثل هذه الأسئلة. وبالمثل؛ فإن الفاتحين المتحمسين في أمريكا اللاتينية كانوا قد قضوا على كل الوطنيين لو أن الكتاب المقدس قال بوضوح أن الله لا يهتم بـ "أزمنة الجهل"، وكل هذا ينطبق على من لم يسمع شيئاً عن اسم يسوع.

إن قراءة تاريخ الكنيسة- ولن أذكر شيئاً عن تأثيره على حياتي الشخصية- هو في الحقيقة تدريب متواضع. فإذا نظرنا إلى حالة الفوضى التي أحدثنها بالأوامر الواضحة عن: وحدة الكنيسة، والمحبة كعلامة للإيمان المسيحي، والعدالة العنصرية والاقتصادية، وأهمية الطهارة الشخصية، ومخاطر الثروة، إنني أرتعد عند التفكير فيما يمكن عمله لو أن بعض التعاليم والمباديء الغامضة كانت أقل غموضاً.

تعاملنا مع القضايا الصعبة يجب أن يفيدنا كمخلوقات محدودة. خذ مثلاً: مبدأ سيادة الله وسلطانه والتي شُرح في الكتاب المقدس بطريقة تجعله يقف في حالة توتر دائم مع حرية الإنسان. فمنظور الله ككائن كُلي القدرة، والذي يستطيع أن يرى كل التاريخ في لحظة، قد أربك اللاهوتيين وسيربكهم دائماً لأن وجهة النظر هذه لا تحقق شيئاً لنا ولا يمكننا أن نتخيلها. إن أفضل علماء الطبيعة في العالم يناضلون لكي يشرحوا سهام الزمن متعددة الإتجاهات. والتعامل المتواضع مع مثل هذه الأمور يقبل هذا الإختلاف في المنظور ويتعبد لإله يتجاوز حدودنا.

إن المتشددين من أتباع كالفن يُظهرون ماذا يحدث عندما نتمسك بإمتيازات لا يستطيع إنسان أن يحملها. ولهذا فإن أتباع مالثيوس Malthus اعترضوا على التطعيم ضد مرض الجدري لأنه- كما يقولون- تَدخل في سلطان الله وإرادته. كما أن الكنائس التي تتبع

مباديء كلفن لم تشجع العمل المرسلي منذ بداياته: "أيها الشاب... عندما يريد الله أن يغير الوثنيين، فسوف يفعل ذلك بدون مساعدتك أنت وبدون مساعدتنا نحن أيضاً"، هكذا قالوا لوليم كاري متجاهلين الحقيقة الواضحة التي تقول بأن الله اختارنا لكي نحمل الأخبار السارة لكل العالم. وبعد أن وضع كالفن خطاً فصلاً بين المختارين والمرفوضين، استنتج أتباعه أننا نحن البشر نستطيع أن نتبين من الذي يقع على كلاً من جانبي هذا الخط. وينتمي "سفر الحياة" إلى فئة "الجهل اللاهوتي" وهو أمر لا نستطيع أن نعرفه، والذي من أجه يجب أن نثق في الله.

ويجب علينا بالطبع أن نتحرى عن بعض القضايا التي تشغل هوامش العقيدة. فمثلاً: وجدت تعزية في تصوير س. إس. لويس للجحيم في كتابه "الطلاق العظيم" كمكان يختاره الناس ويستمرون في إختياره حتى عندما ينتهون إلى هناك. مثلما قال شيطان ميلتون: "من الأفضل لي أن أحكم في الجحيم على أن أخدم في السماء". ومازلت مصراً على أن أهم الأسئة عن السماء والجحيم — من سيذهب وأين، وهل هناك فرصة ثانية، وما هي صورة الدينونة والمكافأة، والحالة الوسط بعد الموت — هي أسئلة مبهمة وغامضة بالنسبة لنا. إنني أشعر بالإمتنان لهذا الغموض، وبالشكر لله الذي ظهر في المسيح وهو وحده الذي يقرر الإجابة عن تلك الأسئلة.

بمرور الزمن، تعودت أن أشعر بنوع من الارتياح تجاه الأمور الغامضة، أكثر من المؤكدة. والله لا يكرهنا أو يلوي ذراعنا في الأمور الخاصة بالإيمان به كالمخرج الوحيد. وليس بإمكاننا أن نقدم البرهان النهائي لا لأنفسنا ولا لأي شخص آخر. وسوف نرى دائماً مثما رأى باسكال: "سنرى الكثير الذي ننكره، والقليل الذي نتأكد منه".

إنني أنظر إلى يسوع من أجل البرهان على رفض الله على أنه

يُكر هنا على شيء. ويسوع قد صّعّبَ الأمر على الناس حتى يؤمنوا. إنه لم ينتهك إطلاقاً حرية الفرد في إتخاذ القرار حتى وإن كان ضده (يسوع). وأتعجب كثيراً من مدى الرقّة واللطف التي عالج بها يسوع شكوك يوحنا المعمدان وهو في السجن، ومدى اللطف الذي استرد به بطرس بعد إنكاره له. وتكشف قصة يسوع عن الإبن الضال مشاعر سماوية للغفران مقدماً، والتي قد تبدو نوعاً من التساهل الخطير، ولكنها نجحت في إسترداد إبن ميت للحياة.

قال يسوع: "تعرفون الحق والحق يحرركم"، كم أحب هذه الآية الشاملة والحازمة والتي منها استنتج أيضاً أن العكس صحيح: "الحق الذي لا يحرر ليس حقاً". إن أولئك الذين سمعوا يسوع وهو يقول هذه الآية أخذوا أحجاراً ليقتلوه، لم يكونوا مستعدين لمثل هكذا حرية، وكذلك كانت الكنيسة.

وبيئة الكنيسة التي نشأت فيها لم يكن بها مكان للشك، إذ كانوا يقولون لنا: "آمن فقط.." وكل من يبتعد عن الحقيقة المحددة والمعروفة يتعرض للعقاب كمنحرف. وقد حصل أخي على تقرير "F" وهو في كلية اللاهوت على بحث قدمه في الستينات، قائلاً فيه أن موسيقى الروك ليست سيئة أو غير أخلاقية. ومع أن أخي موسيقي تقليدي ولا يتذوق هذا النوع من الموسيقى، فإنه لم يتمكن من إيجاد أي سند كتابي يدّعم به وجهة نظر الكلية. وسمعت أخي وهو يتحدث مرات عديدة - فهو مُنَاظر ماهر- ورأيت ما يكتبه في مذكراته التي قدمها، ولم يشك في أنه أخذ تقدير "F" لسبب واحد وهو أن الأستاذ لم يوافق على إستنتاجه، بل وتمادى وقال أن الله لا يوافق أيضاً على رأي أخي. لم يفقد أخي حياته وترك الكلية، بل وترك الإيمان أيضاً، ولم يعد إلى الرب مرة أخرى، وأعتقد أن كل ذلك حدث لأنه لم يدرك الحق الذي يحرر الناس، ولم يجد الكنيسة التي بها مكان للأبناء الضالين.

أما أنا فقد كان لي اختبار يختلف عن اختبار أخي. فقد كنت في كنيسة مملوءة بالنعمة، ومجتمع من المؤمنين كان فيه مكان آمن لكل

متشكك. ولاحظت في كل الأناجيل أن تلميذ المسيح "توما" ظل مع التلاميذ، وإن كان لم يصدِّق ما قالوه عن قيامته، ووسط هذا المجتمع ظهر يسوع لكي يقوي إيمان توما. وبالمثل فإن أصدقائي وزملائي في مجلة "حياة الحرم الجامعي" ومن بعدها مجلة "المسيحية اليوم"، وكنيسة لوسالي ستريت في شيكاغو، كل هؤلاء أوجدوا لي مكاناً للقبول، وجدت فيه مساندة عندما اهتز إيماني. وأذكر أنني قلت مرة لفصل كنت أقوم بتدريسه في الكنيسة: "أنا أعلم أنه يجب أن أؤمن بذلك، ولكن حقيقة، إنني أجد صعوبة في ذلك الآن". إنني أشعر بالحزن نحو من يشكّون وهم منعزلون، فإننا جميعاً نحتاج إلى من يساندنا ونحن نعاني من الشك.

يجب على الكنيسة أن تُعدّ مكاناً آمناً يملأه الإيمان، ونحن لسنا بحاجة لأن نكون مملوئين بالإيمان كتصريح دخول للكنيسة. عندما بدأت الكتابة بكل وضوح عن الشك، وتقدمت بأسئلة عن بعض العقائد الإنجيلية، توقعت الرفض والعقاب مثلما حدث معي أثناء فترة المراهقة. ولكن بدلاً من ذلك وجدت أن الخطابات الغاضبة والتي أدانتني قليلة للغاية، وفاقتها عدداً تلك التي أكدت على أسئلتي وحقي في التساؤل. وتدريجياً قلّ الشك، ووجدت حلولاً لأن الخوف قد زال. ومن ذلك تعلمت أن عكس الإيمان ليس الشك، بل الخوف.

تحتوي إحدى قصائد الشاعر جون دوني المقدسة على سطر غامض يقول فيه: "تصبح الكنائس مكاناً مفضلاً للصلاة... عندما يكون الضوء فيها خافتاً"، ويمكن تفسير هذه العبارة بتفسيرات مختلفة، والمعنى الحرفي يُشير إلى الكاتدرائيات المضاءة بالشموع فقط. وهناك تفسير آخر: الكنائس التي تدع مكاناً للأمور الغامضة- ولا تتظاهر بتفسير ما لم يفسره الله- تخلق بيئة جيدة للعبادة. إننا نتكل على الله الذي لا يعوزنا لشيء، فلماذا إذا تحاول الكثير من الكنائس أن تظهر مضيئة جداً.



أخبرنا راهب فرنسي من القرن الرابع عشر في كتابه "معضلة مجازية مشهورة A famous allegorical dilemma" عن حمار كانت أمامه بالتان متساويتان من التبن، حملق فيهما وتردد، ثم حملق فيهما مرة أخرى، وأخيراً مات لأنه لم يجد مبرراً منطقياً يدفعه لأن يتحرك نحو أي من البالتين.

فبدون عنصر المغامرة لا يوجد إيمان. كتب نثنائيل هاوثر عن هيرمان ميلفيل ما يلي: "إنه لا يستطيع أن يؤمن ولا هو راضٍ بعدم إيمانه". مثل الحمار الذي تحيّر بين البالتين، إن هذا الأمر الوسط هو خطر عظيم لأنه يزيل المشاعر من داخلنا في علاقتنا مع الله. وهنا يصبح الإيمان نوعاً من اللغز العقلي، وهذا لن يكون إيماناً كتابياً.

إن الإيمان يعني الإندفاع بقوة، بدون هدف واضح أمامك، بل ربما لا تعرف ما هي الخطوة التالية. وهو يعني أن تتبع وتثق وتمد يدك إلى مرشد غير مرئي. ومثلما عرّفه توماس جراهام عميد كلية لاهوت قال: "الإيمان هو منطق شجاع، وهو لا يتناقض مع العقل، ولكنه في درجة أعلى من العقل ولا يرضى بالحجة فقط. إنه دائماً خطوة ستظل لما وراء مدى النور".

في سنة من السنين زارني صديق لي في أواخر شهر يونيو بهدف أن نذهب سوياً لتسلق الجبال. ولأن موسم التزحلق كان في أواخره، حيث غطى الجليد كل الجبال بكثرة، حتى أن تسلقها صار من الصعوبة بمكان، هذا بإستثناء القليل منها، ولهذا اخترنا أسهلها للتسلق وهو جبل شيرمان. وعندما بدأنا من بداية الممر أدركنا بأن عاصفة ثلجية صيفية قد غيرت كل شيء. وبين الحين والآخر كانت السحب تتحرك فننظر إلى ما نعتقد أنه قد يكون القمة، ثم يتكاثف الضباب فيُغلِّفَ كل شيء حولنا، فلا نرى شيئاً.

إن القمم الزائفة تدفع الشخص للتسلق. ولمدة ثلاث ساعات ترفع

بصرك كل ثانية نحو القمة. فعيناك منجذبتان بقوة كما بجاذبية، ولا تستطيع أن تقاوم النظر إلى القمة التي تُغريك بالصعود. وعندما تصل إلى تلك القمة تدرك أنها ليست قمة على الإطلاق. و مما تراه من أسفل يخدعك، ثم ترى القمة الحقيقية على بعد نصف ميل. قد تكون غير حقيقية أيضاً.

وعند تسلقنا لجبل شيرمان بدأنا بالجليد والسحب، وإنتهينا أيضاً بهما، ورأينا القليل فيما بينهما. وعندما تأتي سحابة بيضاء لا تستطيع أن ترى الأفق ولا يمكنك أن تعرف ما إذا كنت تصعد أم تنزل.

بدأنا نناقش أنا وصديقي فكرة العودة، غير أننا قررنا المواصلة. فجلسنا وانتظرنا حتى تبتعد السحب، ولو قليلاً. ثم اخترنا طريقاً أطول يدور حول منحدرات الجبل، وكنا نسمع أصواتاً تشقق كتل الجليد في قمم أخرى حولنا. وبدأت السحب في المسير، فرأينا منحنى يؤدي بنا إلى القمة الحقيقية التي اتجهنا إليها بحذر. وكل العلامات من حولنا تدل على أننا كنا أول من تسلق هذا الجبل في هذا الموسم. ثم جاء الجزء المضحك من الرحلة، وانقشعت السحب، وكان بإمكاننا أن نختار المنحدرات، وما تسلقناه في أربع ساعات نزلناه في ساعة واحدة.

عندما فكرت في رحلة التسلق هذه فيما بعد وجدت أنها لخصت ما تعلمته في رحلة الإيمان. كان بها سوء تقدير وأمور مثيرة وصعوبات وفترات طويلة من الإنتظار، وأخرى من السير المجهد. ومهما حاولت من إعداد كل شيء وإتخاذ الحذر، ومحاولة تفادي المخاطر فلن تنج من تفادي كل الأخطاء

> "عندما نرتب منزلنا الروحي، سنشعر بأننا موتى. ويستمر هذ الشعور. وأنت تصل إلى حالة من التأكد الكافي تمكنك من شق طريقك، ولكن ذلك يحدث في الظلام. لا تتوقع من الإيمان أن يوضح لك كل شيء. أنه الثقة وليس التأكد".
>
> فلانري أو كنور

السابقة. دائماً هناك أوقات تتكاثف فيها السحب، فلا أستطيع أن أرى شيئاً وأسمع صوت تحطم الكتل الجليدية من حولي.

ومع ذلك؛ فعندما أصل للقمة، فلا يوجد شيء في لعالم يمكن مقارنته بهذا الشعور من الفرح والإنجاز.

٤ - إيمان تحت النار

"إن إيماني وإعترافي بالرب يسوع لم يكن مثل إيمان طفل، ولكن تهليلي بالمجد لله ولِدَ من آتون الشك"

فيدور دوستوفيسكي



إنني أشبه الشاعرة "آني سيكستون"، التي قالت: أنها تحب الإيمان، ولكن لديها القليل منه. فقد إكتسبت شكوكي بدرجة كبيرة في الكنيسة: وأنا أستمع إلى "شهادات" علمت فيما بعد أنها مزيفة، ورأيت نفاق القادة الروحيين، وسمعت أناساً يمجّدون الله من أجل معجزات شفاء، وبعد أسبوع يموتون. واكتشفت بطريقة عملية أن أية "إستجابة لصلاة" لها إحتمالات تفسير أخرى والتي أسرعت في أن أجدها. وأخيراً تخلصت من مرحلة الرغبة في إبراز العيوب والثقوب في إيمان الأخرين، ولكن عادة الشك تعاودني ومعها شعور مقيت لإساءة استغلال الإيمان.

لأنني كتبت عن الألم والمعاناة، لديّ درج في مكتبي مملوء برسائل مؤمنين غيورين والذين يصلون من أجل طفلهم الذي يعاني من عيب خلقي، أو ورم في المخ، أو شلل، ويطلبون المسحة بالزيت ويتبعون أية نصيحة كتابية، ورغم هذا فلا يجدون راحة من معاناتهم ولا مكافأة على إيمانهم. وقد سألت العديد من الأطباء المؤمنين ما إذا كانوا قد شهدوا أية معجزة طبية لا يمكن إنكارها.

ومعظمهم كان يفكر في الإجابة لمدة دقيقة ثم يقول ربما إثنتين.

ومن الغريب أنني وجدت أن الكتابة عن الإيمان المسيحي ليست أمراً سهلاً. وعلّق أحد الأصدقاء عن المؤمنين عامة فقال: "إذا كررت شيئاً ما على نفسك وفي ذهنك عدة مرات فبإمكانك أن تؤمن به". هل هذا هو ما أفعله أنا؟ أراجع الكلمات مرة ومرات محاولاً تصحيحها، ولكن كيف يمكنني أن أعرف ما إذا كنت أؤمن بها أم أنني مجرد أكررها لنفسي؟ عندما نتعامل مع إله لا يمكننا أن نراه، تتسلل الشكوك إلينا بطريقة لا يمكن تجنبها.

وبسبب هذه الأمور ترددت دائماً في الكتابة عن الإيمان، خشية أن يفقد شخص ما إيمانه بسببي. مع أنني لا أريد أن أعّوق صاحب الإيمان البسيط، ولا أن أزيده من توقعات غير حقيقية لما يمكن أن يحققه الإيمان. قال المطران الحكيم ليزلي نيوبيجن: "أن تجرب الله يعني أن تحاول الحصول على تأكيدات أكثر مما أعطاها الله". وكان عليّ أن أواجه حقيقة أن المؤمنين يعيشون في فقر، ويصابون بالمرض، ويفقدون شعرهم وأسنانهم، ويلبسون نظارات تماماً كما يحدث مع الآخرين. ويموت المؤمنون بنفس معدل وفيات الآخرين ١٠٠٪.

إننا نعيش على كوكب ساقط مشحون بالمعاناة، التي حتى لو لم يُستثنى منها ابن الله. أثناء حياتهما صلى كل من الرب يسوع وبولس الرسول طلبٌ للمعونة من الله لكي يتغلبوا على ما يقابلهم من متاعب على نفس هذا الكوكب، ولم يحصل أي منهما عليها. وعبّرَ عالم الاجتماع بورنسلاف مالينوسكي عن الفرق بين السحر والدين قائلاً: " يحاول الناس بالسحر أن يدفعوا الآلهة إلى تحقيق رغباتهم، بينما يحاول الناس في الدين أن يُطيعوا إرادة الآلهة". إن الإيمان المسيحي يعني طاعة إرادة الله مهما كانت. لقد صلى يسوع في جَثْسَيْمَانِي: "يَا أَبَتَاهُ إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ"، ولم يكن هذا الأمر ممكناً، فأضاف مُسلّماً: "وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ".

وقد ذكر جورج إيفرتن روس نفس افكرة التي طرحها عالم الإجتماع مالينوسكي، ولكن في كلمات مختلفة: "قمت بالخدمة لمدة إحدى وثلاثين سنة. تعلمت خلالها أنه هناك نوعان من الإيمان: أحدهما يقول:"إذاً" والآخر يقول: "ومع ذلك". واحد يقول: "إذا سار كل شيء حسناً، لو أن حياتي مزدهرة، لو كنت سعيداً، لو لم يمت أحد ممن أحبهم، لو كنت ناجحاً، عندئذ سوف أؤمن بالله وأذهب للكنيسة وأصلي، وأعطي كل ما يمكنني تقديمه". والآخر يقول: "على الرغم من أنني تصببت عرقاً في جَثْسَيْمَانِي، وبالرغم من أنني يجب أن أتجرع الكأس في الجلجثة، فإنني مع ذلك سأثق في الله الذي صنعني". لهذا صرخ أيوب قائلاً: "هُوَذَا يَقْتُلُنِي.. فَقَطْ أُزَكِّي طَرِيقِي قُدَّامَه" (أيوب ١٣: ١٥)".

لديّ بعض الأصدقاء الذين يرون شيطاناً خلف كل شجيرة، وملاكاً خلف كل مكان فارغ لوقوف السيارات، وأتعجب كثيراً لما يمكن أن يحققه إيمانهم البسيط. ومع ذلك فعندما لا تحدث معجزة ألاحظ أنهم يلجأون للآخرين في حذر شديد ومعاناة طويلة للإيمان. يعطينا الكتاب المقدس نماذج لكلا النوعين من الإيمان. فأيوب وإبراهيم، وحبقوق، وزملاؤهم من الأنبياء، والكثيرون من أبطال الإيمان المذكورين في عبرانيين ١١. أولئك الذين تحمّلوا معاناة طويلة عندما لم تحدث المعجزات، وعندما لم تُستجب الصلوات المستعجلة، وعندما بدا الله، ليس فقط غير منظور، بل غائباً تماماً. ونحن الذين نسير على نفس طريقهم اليوم، قد نختبر أحياناً قُرب الله منا وإستجابته لنا، وأحياناً أخرى يظلّ الله صامتاً، وتبدو وعود الكتاب كما لو أنها كلها زائفة وغير حقيقية.

في رحلاتي فيما وراء البحار، لاحظت اختلافاً كبيراً في لغة وصيغة الصلاة. فمؤمني البلاد الغنية يُصّلون هكذا: " يا رب ارفع عنا هذه التجربة". وسمعت مسجونين مسيحيين مضطهدين، وأناس

يعيشون في بلاد فقيرة للغاية يصّلون قائلين: "يا رب امنحنا القوة لنحتمل التجربة".

إن الأوقات الصعبة تساعد على إزدهار الإيمان، وعلى تقوية الروابط. وألاحظ ذلك في العلاقات الإنسانية التي يزداد تماسكها في أوقات المحن. أنا وزوجتي لنا جدّات تخطي عمرهن المائة عام، وعندما تحدثت إليهن وإلى أصدقائهن اكتشفت ميلاً معيناً يبدو كما لو أنه سائد عالمياً في ذكريات كبار السن: إنهن يحاولن تذكّر الأوقات الصعبة، والمضطربة، بنوع من الحنين. فقصص الحرب العالمية الثانية، والإكتئاب العظيم، كما يتحدثن بشوق عن الصعوبات التي اجتزنها مثل العواصف الثلجية، والفترة التي قضينها في الكلية عندما كنّ يأكلن الشوربة المُعلّبة، والخبز سيء المذاق ثلاث مرات أسبوعياً.

إسأل أية عائلة قوية، ومستقرة، من أين جاءتهم هذه القوة، فسوف تستمع إلى قصة محنة، أو أزمة: تجمّعنا معاً في غرفة الإنتظار في المستشفى منتظرين بلهفة بعض كلمات عن ابن كاد أن يموت، أو محاولة تهدئة ابنة لم تتم خطوبتها بعد... إن العلاقات تكتسب قوتها عندما تصل إلى حافة التحطم، ولكنها لا تتحطم.

عندما أرى مثل هذا المبدأ بين الناس يمكنني أن أفهم إحدى جوانب الغموض في علاقتنا مع الله. ويُختصر الإيمان في سؤال عن مدى ثقتنا في علاقة معينة. هل لديّ ثقة فيمن أحبهم، أم في الله، مهما كانت القضية؟ وإذا كنت أقف على صخرة الثقة فمهما ساءت الظروف فلن تُحطم هذه العلاقة.

إبراهيم الذي كان يتسلق جبل المُريا مع ابنه وحيده، وأيوب الذي كان يحك جلده بثورة تحت حرارة الشمس، وداود الذي اختبأ خوفاً في كهف، وإيليا الذي سار مكتئباً في الصحراء، وموسى الذي كان يتوسل من أجل وظيفة جديدة، كل هؤلاء الأبطال اجتازوا أزمات ربما دفعتهم لأن يقولوا عن الله أنه لا يهتم بهم، أو أنه عاجز، أو ربما يكرههم. وهم يشعرون بالحيرة في ظلام هذه التجارب واجهوا

نقطة التحول: إما أن يتركوا الله في مرارة، أو أن يتقدموا في حياة الإيمان. وفي النهاية اختار الجميع طريق الثقة والإيمان، ولهذا السبب نتذكرهم كعمالقة الإيمان.

لسوء الحظ ليس كل من اجتازوا اختبارات الإيمان هذه سلكوا نفس الطريق. فالكتاب المقدس مليء بقصص الذين فشلوا: قايين، و شمشون، و يهوذا... الذين تنبعث من حياتهم رائحة الحزن والندم.

أحد المفكرين المسيحيين ويدعى سورين كيركجارد قضى عمره في اكتشاف إختبارات الإيمان التي تستدعي لأذهاننا السؤال عن الثقة في الله. لقد كان رجلاً غريباً وله شخصية صعبة، عاش في عذاب داخلي بصفة مستمرة. رجع إلى كلمة الله ليقرأ عن شخصيات مثل: أيوب، وإبراهيم الذين احتملوا تجارب مضنية للإيمان. وأثناء تجاربهم بدا لهما كما لو أن الله يناقض نفسه- الله بكل تأكيد ليس كذلك... ومع ذلك فهو يبدو هكذا. وأخيراً خلص كيركجارد إلى نتيجة مؤداها أن أقوى وأنقى إيمان ينبثق من قلب المحنة، حتى وإن كنت أنا لا أفهم ذلك فسوف أثق في الله.

لقد تعلمت كثيراً من كيركجارد، وكذا من نظرته غير المتوازنة للإيمان. لقد استخدمت التعبير "غير متوازن" لأنه يركز بطريقة مقصودة على التجارب العظيمة للإيمان، ولم يذكر إلا القليل عن جوانب المحافظة على الإيمان اليومي في علاقتنا مع الله. وهو يصف "فرسان الإيمان"، هذه القلة التي اختارها الله لعمل غير عادي. لقد اختبرهم الله كما نختبر نحن اليوم الطائرة النفاثة، لا لكي نحطمّها، بل لنقيس مدى فائدتها لنا "هل كان سيكون في حالة أفضل لو لم يختبره الله"، هكذا تساءل كيركجارد عن إبراهيم. إن إبراهيم، بلا شك، قد سأل هذا السؤال أثناء محنته، ولكنني أشك في أنه سأل نفس السؤل في نهاية حياته.

بالنسبة للمسيحي يدور الإيمان حول الأزمة في علاقتنا الشخصية أكثر منه في شكوكنا العقلية: هل الله يستحق ثقتنا مهما بدت الأمور

كما هي في ذات الوقت؟



كتب مؤلف مسيحي أحبه وأحترمه ما يلي: "الطريقة التي يرتب بها الله الأشياء تبدو أحياناً مُصممة بعناية لتسبب لنا الإرتباك والحيرة". وأنا في طريقي للمستشفى ينفجر الإطار المطاطي للسيارة، ويفيض حوض المياه المسدود قبل وصول السباك، ويتخلى عنك صديق وأنت في أشد الحاجة إليه..." هذه التجارب بالنسبة للمؤمنين الذين يعيشون في باكستان، أو في السودان، تبدو أموراً تافهة، وغير مهمة. ولكنها بالنسبة لي قد تُبذر بذرة شك في علاقتي مع الله، وتقلل من ثقتي فيه.

تأملت في عبارة صديقي الكاتب التي قال فيها: "الطريق التي يرتب بها الله الأشياء". هل حقاً يضع الله مسماراً في الطريق لأسير عليه وأنا في طريقي للمستشفى؟ هل يسد الله البالوعة قبل وصول السباك؟ وأنا أيضاً ألوم الله عندما تحدث أمور سيئة. هل يسمح الله بإنفجار الإطار المطاطي للسيارة، أو تعطل الكمبيوتر، أو وجود الفيروس في حياتي كنوع من إختبار الإيمان، مثل اختبار إيمان إبراهيم، وأيوب الذَين احتملاه؟ إنني أشك في هذا!

إذا كان سفر أيوب يعلمنا درساً واحداً، خاصة في حديث الله بنهاية السفر، وهو أن البشر لا يصح لهم أن يقوموا بمحاولة فهمِ كل التعقيدات التي تسبب حدوث مثل هذه الأمور في الحياة. وبدلاً من ذلك، تحدى الله أيوب لأن يفعل شيئاً أفضل:

هل لديك ذراع مثل ذراع الله،

وهل يستطيع صوتك أن يُحدث رعداً مثل هذا؟

إذا زين نفسك بالمجد والبهاء

وارتدِ الكرامة والعظمة.

اطلق العنان لغضبك وغيظك،

تطلع إلى كل متكبر واسقطه

تطلع إلى كل إنسان متكبر واجعله يتواضع

إسحق الأشرار حيثما يتواجدون.

إن الله يمتنع عن التدخل المستمر فيما يحدث على الأرض، ويرفض أن يقهر كل رجل متكبر، أو أن يسحق الشرير، وهذا ما يسبب الإرتباك للضحايا. ونحن مثل أيوب، ندّعي أن الله قد رتب كل الأحداث، فنصل إلى نتائج زائفة: الله لا يحبني. الله ليس عادلاً. إن الإيمان يقدم لنا حرية اختيار استمرارنا في الثقة بالله، حتى ونحن نقبل حدود بشريتنا، والتي تعني أننا لا نستطيع الإجابة على الأسئلة التي تبدأ بكلمة ماذا؟

عندما توفيت الأميرة ديانا في حادث، جائتني مكالمة تليفونية من منتج تلفزيوني. سألني: "هل بإمكانك الظهور ببرنامجنا؟... نريدك أن تشرح لنا كيف سمح الله بهذا الحادث المروع؟". وأجبت بدون تفكير: "هل يمكن أن يكون لهذا الحادث صلة بسائق مخمور يسير بسرعة ٩٠ كم/الساعة في نفق ضيق؟". كيف يمكننا أن نُقحم الله في هذا الأمر؟

لم أتمكن من الظهور في التلفزيون، ولكن السؤال حفزني لأن أبحث عن ملف خبأت فيه بعض الملاحظات عن أشياء نلوم فيها الله. ووجدت فيه ما كتبته عن حادثة قتل الملاكم الكوري "راي" الذي قتله فيه منافسه "مانسيني" بضربة قوية من يده اليمنى. وفي المؤتمر الصحفي قال مانسيني: "أحياناً أتساءل لماذا يفعل الله مثل هذا الأمر؟". وفي رسالة إلى دكتور جيمس دوبسون سألته إمرأة شابة هذا السؤال الحزين: "منذ أربع سنوات، تواعدت مع رجل على اللقاء وأصبحت حاملاً، ومن ثم دُمرت حياتي!" سألت الله

"لماذا سمحت بهذا أن يحدث لي؟". أم تدعى سوزان سميث من جنوب كارولينا ألقت بولديها في بحيرة ليغرقا، واتهمت كذباً سيارة بأنها سبب الحادث، كتبت في إعترافها الرسمي: "نزلت إلى أكثر أماكن البحيرة عمقاً، وسمحت لأطفالي أن ينزلوا إلى الماء بدوني، وانطلقت أجري وأصيح: يا إلهي! يا إلهي! لا..! ما هذا الذي فعلته؟ لماذا تسمح بهذا أن يحدث؟".

ما هو الدور الذي لعبه الله مع ملاكم قتل زميله أثناء النزاع على حلبة الملاكمة، أو مراهقين سقطا في الخطية معاً، أو أم أغرقت أطفالها؟ إنني أتساءل. هل رتب الله لكل هذه الأحداث كإختبار للإيمان؟ على العكس تماماً، فأنا أرى فيها دليلاً واضحاً ومثيراً على الحرية الإنسانية، على كوكب ساقط. ففي مثل هذه اللحظات التي تكشف على أنها نوع من الضعف، ولحظات قاتلة، نندفع بعنف ضد شخص ما لكنه ليس الله.

بعد أن فحصت كل مرحلة للمعاناة الإنسانية المدونة في الكتاب المقدس، توصلت إلى الإقتناع بأن كثيراً من المؤمنين الذين يواجهون اختبار الإيمان يحاولون الإجابة على سؤال يختلف عن الرأي الذي يسأله الله. نحن نهرب بدافع غريزي إلى الأسئلة التي تنظر للوراء، أو لزمنٍ ماضٍ: ما الذي سبب هذه المأساة؟ هل الله له يد في هذا الأمر؟ ما الذي يحاول الله أن يخبرني إياه؟ إننا نحكم على علاقتنا معه بمثل هذه الأدلة الناقصة.

يعطينا الكتاب المقدس الكثير من الأمثلة للمعاناة (مثل أيوب) التي ليس لها أية علاقة بعقاب الله. وفي كل معجزات الشفاء نقض المسيح الفكرة التي إنتشرت في ذلك الوقت، والتي تقول بأن المعاناة، والعمى، والضعف، والبرص.. كل هذه الأمراض التي يُصاب بها الناس، لأنهم يستحقون ذلك. لقد حزن يسوع على ذلك أكثر منا بكثير. ولم يحدث، ولا مرة واحدة، أن نصح يسوع شخص ما أن يقبل معاناته على أنها إرادة الله، بل بالأحرى، كان يجول ليشفي كل مرض وضعف.

لا يعطينا الكتاب المقدس إجابات منظمة للسؤال: لماذا؟ وغالباً ما يتجنبه تماماً. فالإطار الذي إنفجر، والبالوعة لتي إنسدت، أو إلتهاب الحنجرة، هذه الإختبارات- حتى وإن كانت بسيطة- قد تولد أزمة ثقة في علاقتنا مع الله. ومع ذلك فنحن لا نجروء على الدخول إلى مناطق أغلقها الله لأنها خاصة به. والعناية الإلهية هي سر غامض يفهمه الله وحده، وينتمي إلى ما أطلقت عليه اسم "دائرة معارف الجهل اللاهوتي"، لسبب بسيط هو: أن الإنسان الذي يعيش على هذا الكوكب الثائر، وغير القادر على فهم حقائق العالم المجهول، ليست لديه القدرة على فهم مثل هذه الإجابات، لقد كانت إجابة الله على أيوب في داخل قوقعة.



غالباً ما يقرأ المؤمنون الكتاب المقدس بطريقة تُضخم وتبالغ في مواعيد الله، وهم بذلك يضعون أنفسهم، فيما بعد، في محاولة تصحيح الأفكار والتحرر من الوهم. قال الرب يسوع: "إنظروا إلى طيور السماء، إنها لا تزرع، ولا تحصد، ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. تأملوا زنابق الحقل: كيف تنمو، لا تتعب، ولا تغزل.." من هذه الآيات يفهم القاريء أن الله سوف يُعطيه دائماً، وهذا المعنى قد يُحدث أزمة في إيمانه، وبخاصة عندما يأتي الجفاف، أو تحدث مجاعة.

ولكن كيف يُطعم الآب السماوي طيور السماء، ويُنميّ زنابق الحقل؟ هو لا يدع البذور تظهر بطريقة سحرية، مثل المنّ في البرية. إنه يزوّد كوكب الأرض بالغابات، والزهور البرية، والديدان، ونحن البشر نعرف جيداً أن تقسيم الأرض إلى أجزاء صغيرة يمكن أن يكون له تأثير سيء للغاية على أعداد الطيور. وزنابق الحقل يمكن أن تنمو بلا أي مجهود، ولكن نموها أيضاً يعتمد على أنظمة دورية تخلق الطقس العادي. وفي سنوات القحط الشديد فإن هذه الطيور لا تزرع، ولا تحصد، بل تموت.

قال يسوع أيضاً: " أليس عصفوران يباعان بفلس؟ وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم. وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة. فلا تخافوا. أنتم أفضل من عصافير كثيرة". يأخذ البعض هذه الفقرة كنوع من العزاء، وتقول ترنيمة: "عينه على العصفور... وأعلم أنه يرعاني" إن يسوع قال هذه الكلمات وسط كلمات تحذيرية لأتباعه، لأنهم سوف يتعرضون للجلد، والإضطهاد، والسجن، وربما القتل.

إننا نميل إلى إعتبار تدخلات الله في الأحداث على الأرض على أنها "آتية من فوق". مثل أشعة الضوء، أو عاصفة البرد التي تسقط على الأرض من السماء. ولهذ فإن الله الذي في السماء يأتي إلى أرضنا ليتدخل فيما يجري من أحداث. وربما من الأفضل أن نصور تدخل الله مثل الطبقة الصخرية المائية تحت الأرض، أو النهر الذي يرتفع إلى السطح في شكل ينابيع. وفي كتابه "أمثلة الدينونة" يقوم الأب روبرت فارار بعمل نقلة في المنظور من فوق إلى أسفل، مقدماً أعمال الله القوية معنا لتصبح بالنسبة لنا ليست كغزوات في التاريخ، لحليف لنا يأتينا من فوق، ولكن كمعاملات بارزة لشخص ساكن فينا، ومعنا، ونحن على الأرض.

وبكلمات أخرى؛ فإن الله لا يتسلط علينا، أو يتحكم فينا، ولكنه يسكن فينا، ويرشدنا. إن حضوره يثبت ويقوي كل الخليقة في كل لحظة. ويقول بولس: "لأن فيه (في المسيح) تعمل كل الأشياء معاً". إن حضور الله يسري فينا كأفراد، إذا كنا منحازين له ومعه، فروح الله (الصديق غير المرئي) يعمل من الداخل لكي يميز الصالح من الطالح.



كثير من المؤمنين يقتبسون تلك الآية: "ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معاً للخير، للذين يحبون الله" (رو ٨: ٢٨)، على أنها تتضمن المعنى بأن كل الأشياء سوف تتحول للأفضل. ولكن الأصل اليوناني

يُترجم بطريقة أفضل كالتالي: "وأننا نعلم أن جميع الأشياء تعمل لخير الذين يُحبُّون الله"[الترجمة العربية اليسوعية]، وقد وجدت أن هذا الوعد حقيقي في كل المصائب، والمصاعب التي واجهتها شخصياً. أمور كثيرة تحدث، بعضها صالح والآخر سيء، والكثير منها فوق قدراتنا ولا نستطيع السيطرة عليها. وشعرت في كل هذه الأمور برغبة الله المستمرة لأن يعمل معي ومن خلالي، لكي تسير الأمور لصالحي. واقتنعت بأن الإيمان في مثل هذه العملية سيكافىء دائماً بالرغم من أن السؤال: لماذا؟ لم يُجاوب عليه.

هناك قصة في إنجيل يوحنا، بالإصحاح التاسع، توضح الفرق بين الإثنين في العرض. والقصة تبدأ حيث يبدأ المرض والكثيرون يتساءلون بالسؤال: لماذا؟. واجه التلاميذ رجلاً أعمى منذ ولادته، فتساءل التلاميذ: لماذا؟... "هل أخطأ هذا أم أبواه؟". فأجاب يسوع "لا هذا أخطأ، ولا أبواه. لكن لتظهر أعمال الله فيه". وأراد الرب توجيه إنتباههم للأمام، وطرح سؤالاً مختلفاً: "ما هو الهدف؟".

واعتقد أن إجابة يسوع تلخص لنا كيفية تعامل كلمة الله مع مشكلة الألم. كتب ثورنتون ولدر كتاب "جسر القديس لويس" لكي يتساءل ويستفسر عن: لماذا مات خمسة أشخاص، على وجه الخصوص، في إنهيار جسر؟. وعندما سُئل يسوع بسؤال مُشابه: لمذا مات ثمانية عشر شخصاً في حادث مشابه؟ رفض الإجابة، وبدلاً من ذلك وجه لهم سؤالاً: هل أنتم مستعدون للموت إذا سقط عليكم برجاً؟. فمن وجهة نظر يسوع، حتى المأساة يمكن استخدامها لكي تقود الإنسان ليرجع إلى الله. وبدلاً من البحث عن أسبابها، والعودة إلى الوراء، فإنه يتقدم للأمام، طالباً الغفران و التوبة.

إلى من يعودون للوراء بحثاً عن الأسباب التي وراء السؤال.. لماذا؟. الكتاب المقدس لا يعطي إجابة محددة، ولكنه يحمل أملاً للمستقبل. فحتى الألم والمعاناة، يمكن أن تتغير وينتج عنها نتائج طيبة. وأحياناً- كما في معجزة الرجل الأعمى- يظهر عمل الله من خلال معجزة درامية. وفي كل حالة يعطينا الألم فرصة لكي نقدم

عمل الله للآخرين، سواء في ضعف، أو في قوة.

إنني أكتب هذه الكلمات بعد المأساة التي حدثت في المدرسة الثانوية في ليتل تاون بكولومبيا، وهي ليست بعيدة عن منزلي. كل يوم تقوم الصحف وبرامج التلفزيون بشرح الحادث وتحليله في تفاصيل مؤلمة. وكان هناك عرض مباشر لجنازة الإثني عشر تلميذاً، ومدرسيهم الذين ماتوا في هذه المأساة. وتساءل الجميع، من خدام، وأولياء أمور، ومديرين، وكل الذين تأثروا بالحادث...لماذا؟ ولم يجدوا الإجابة. فعنصر الشر والكراهية يملأ المراهقين الأشرار، حتى أنهم أطلقوا النار على زملائهم بالمدرسة. كان عنصر الشر سائداً وعلى نطاق واسع في هذه المأساة، حتى أنه لم يجرؤ أحد لأن يربط بين الله وما حدث. سأل البعض: لماذا لم يتدخل الله لكي يمنع ما حدث؟، ولكن لم يقل أحد أن الله تسبب في حدوث كل هذا العنف.

ربما عليك أن تعيش في كولومبيا التي وقع فيها الحادث لكي تُقدّر حق التقدير الإجابة على سؤال آخر أثارته هذه المأساة: هل يمكن أن ينتج عن هذا الرعب أمر صالح؟

بعد إسبوع من حادث القتل قمت بزيارة تل في كليمنت بارك حيث دفن القتلى في الحادث وشاهدت خمسة عشر صليباً موضوعة على قبورهم، وباقات من الزهور، وقرأت ما كُتب علي شواهد القبور من كلمات الحب والتأييد، والمساندة التي جاءت من أنحاء العالم. كما قرأت الكلمات التي كُتبت للقاتلين ديلان، وإيرك، وكيف أنهما كانا منبوذين، ولم يجدا أصدقاء لهما ليثقوا بهما، ويخففوا آلامهما. كما حضرت كنائس إمتلأت بمتعبدين حزانى في الأيام والأسابيع التي تلت الحادث. وشاهدت أحد إخوة الضحايا وهو يضع يده على كتف أب لشاب قُتل ليواسيه، وليخفف عن آلامه. وسمعت الطلبة أصدقاء القتلى وهم يصفون شجاعة زملائهم الذين ماتوا عندما صوّب الجناة البنادق نحوهم، وسألوهم: "هل تؤمنون بالله". كما أنني سمعت عن نتائج أخرى: إزداد في المدينة عدد الشباب والمدرسين لأنهم

لم يُعرّفوا الآخرين بأنهم مؤمنون، وطلب المدرسون من الأولاد أن يقابلوهم بعد الدراسة لتقديم النصح والمشورة لهم، وسمعت عن أب لأحد الضحايا أنه صار مُبشراً، وآخر قاد حملة لضبط البنادق. من قلب الشر قد يُخرج الخير.

بالنسبة للكثيرين قد تخلق صدمة المأساة أو المرض، أو الموت أزمة قاتمة للإيمان. وفي مثل هذه اللحظة نريد توضيحاً، الله يريد ثقتنا. في القرن الماضي فقد خادم إسكتلندي زوجته فجأة، وبعد وفاتها قدم عظة غير عادية. قال في رسالته: أنه لا يفهم هذه الحياة التي نعيشها. ولكنه لا يفهم أيضاً كيف أن هؤلاء الناس الذين يواجهون الخسائر يتنازلون عن إيمانهم ويتخلون عنه. وقال: "يتخلون عن إيمانهم من أجل أي شيء؟".." أنتم يا من تجلسون في أشعة الشمس، قد تثقون في الإيمان، أما نحن الذين في الظل، فيجب أن نؤمن، فليس لدينا بديل آخر".

"إذا كانت معرفة إجابات الأسئلة التي تصادفك في حياتك، بالنسبة لك، ضرورية للغاية، عندئذ فلتنس الرحلة. فلن تقدر عليها لأنها رحلة الأسئلة التي لا إجابة لها. إنها رحلة الألغاز والغموض، وأمور كثيرة غير عادلة".
مدام جاني جويون



٥ - الإيمان ذو اليدين

"أشكرك من أجل كل ما حدث، ومن أجل كل ما سيحدث"

داج همرشلد



بعد سنوات من نهاية الحرب الأهلية الأمريكية، سأل أحدهم "جورج بكيت"، وهو أحد جنرالات الحرب، لكي يشرح لهم لماذا هُزم في الجانب الذي كان يحارب فيه. أجاب بعد أن عبث بلحيته قليلاً : "حسنا؛ لم أكن أعتقد أن اليانكيين (أبناء الشمال الأمريكي) كانوا يهتمون بهذا الجزء الذي كنت مسئولاً عنه".

ولكي أرسم صورة أكثر إكتمالاً، يجب أن أُذكر طريقة أخرى للنظر إلى الحقيقة. إن الله، غير المنظور، ليس هناك بمفرده. فالكتاب المقدس يقول أننا نعيش وسط "قوى" غير منظورة، البعض منها خيِّرة والأخرى شريرة. وإذا كان، في يوم من الأيام لدينا الفرصة، مثل أيوب، لكي نسأل الله شخصياً عن أمور عانينا منها أثناء وجودنا على هذه الأرض، فقد يجيبنا الله بالقول: "أعتقد أن الأمر يخص الثوار إلى حد ما".

عندما كنت أعمل في السبعينات كمراسل لحركة روحية تُدعى "حركة يسوع" قمت بعمل مقابلة تلفزيونية مع فريق "الروك" الذي ظهر في حفل موسيقي مسيحي، قدموا لي نظرتهم عن العالم،

والتي لم أسمع بها من قبل:

> "لقد تعرضنا لهجوم، وكان الرب معنا في أنيانا بولس، الروح ملأ المكان. وعندئذ وصل الشيطان عندما كنا نقود السيارة عبر الطريق، وفصل المقطورة التي كانت مربوطة بالأتوبيس الخاص بنا. واعتقدنا أن مكبرات الصوت والآلات الموسيقية قد ضاعت، وأن الرحلة قد إنتهت. ولكن الله جاء في الوقت المناسب، وقاد المقطورة التي لم تصدم أحد، ووقفت على جانب الطريق. ورجعنا لنجد كل شيء مكانه، إنه عمل الله"

وبلغتهم الخاصة بهم قدم هؤلاء الموسيقيون عالماً يشترك فيه الله والشيطان، في شن حرب على كل حادث يحدث على هذه الأرض.

بعد اللقاء مع الفريق بدأت في سماع لغة يستخدمها المؤمنون: عائلة تسافر للشرق الأوسط في زمن تزايدت فيه التوترات، وإذ بهم يقولون: "نحن بين يدي الله". رجل آخر يجتاز في طلاق كثير الصراع والمنازعات، وإذ به يقول: "إن الله يعلمني أن أنظر إليه".

واستمعت إلى بعض النكات التي قالها طلبة كلية اللاهوت عن رجل كان يتخطى حاجزاً في الطريق وتفادى بصعوبة الاصطدام بسيارة مسرعة، وإذ بأحدهم يقول: "إنها العناية الإلهية التي حفظته". وفي اليوم التالي كان يحاول نفس الرجل أن يتخطى نفس الحاجز، ولكن صدمته سيارة. وبعد عدة أشهر قضاها في المستشفى شُفي من إصابات خطيرة، قال أحد هؤلاء الطلبة: "أليس أمراً معجزياً أن يرحمه الله". وفي يوم آخر تخطى نفس الحاجز، ولكن صدمته هذه المرة سيارة فمات في الحال: "حسناً؛ لقد رأى الله أنه من الأنسب له أن يضمّه إليه".

أحياناً كثيرة يكون لنا نفس طريقة التفكير. حاول جاهداً الكاتب الروسي الكبير تولستوي أن يجد معنى في سماح الله لنابليون في

غزوه لروسيا. وفي روايته "الحرب والسلام" أخذ يدرس ويبحث في كل هجمات العدو، وهم متجهون نحو موسكو. وبالتأكيد لا يمكن أن تكون إرادة الله أن يحارب نابليون روسيا ويهزمها! هل الله نائم؟ هل يمكن لقوات الشر أن تسود على قوات الخير؟ وبينما كان الجيش الفرنسي متجهاً نحو موسكو حاول تولستوي بحماس أن يجد نوعاً من الفهم لعناية الله التي سمحت بمثل هذه الكارثة. ولم يجد شيئا فيما عدا: "أنه القدر الذي لا يُقاوم".

لدى كل شخص يؤمن بالله فكرة أساسية خاصة عن كيف يعمل الله في علاقته معنا. قال الروائي الفرنسي "فولتير" إن الكاتب العظيم يجب أن يقف في روايته مثلما يفعل الله بالنسبة لخلائقه: في مكان لا يراه ولا يسمعه فيه أحد. إن الله موجود في كل مكان، ومع ذلك فهو غير مرئي، ساكن، ويبدو غائباً، وغير مبالٍ. وقلة من المفكرين قد يستمتعون بالتعبد لمثل هذا الإله الغائب، ولكن معظم المؤمنين يُفضلون صورة الله في المسيح كآب مُحب. نحن بحاجة إلى ما هو أكثر من الساعاتي الذي يملأ الكون ثم يدعه يدور مثل عقارب الساعة. إننا بحاجة إلى المحبة والرحمة، والغفران، والنعمة، صفات لا يستطيع أن يقدمها إلا إله شخصي.

ومع ذلك؛ فكلما اتخذنا الله كإله شخصي لنا، كلما قلت نوعية الأسئلة المثيرة للأعصاب. ألا يصح أن يكون الله المُحب يتدخل أكثر بالنيابة عنا؟ كيف يمكننا إذاً أن نثق في إله لا يمكننا أن نعتمد عليه بثقة، بأنه سيأتي لمعونتنا؟

حدث ذات مرة أن إلتقيت بفتاة تعاني من عقدة جنون الإضطهاد، وكانت مقتنعة تماماً بأن العالم ضدها. فكل ما يحدث لها تعزوه إلى نظرية كُره العالم لها. وإذا حاولت أن أهدأ من روعها بالقول: "أعتقد أنك أخذت هذا التعليق على محمل سيء. إن مرثا كانت تحاول فقط مساعدتك، إنها لا تكرهك". وبالرغم من هذا فإن وساطتي هذه

كانت تزيد من شعورها بالإضطهاد، وتقول في نفسها: "إنه واحد منهم... وربما مرتبا دفعته لأن يقول هذا، إنه يحاول تهدئتي ليحطم قدرتي على المقاومة". ومهما قال لها أي شخص من كلام فإنه لا يستطيع أن يخترق درع حماية البارانويا (جنون الإضطهاد).

الشخص الذي يعاني من البارانويا يُمركز حياته حول الخوف. كانت زوجتي تعمل مع أحد المشرفين الذين اقتنعوا خطئاً أن جانيت تتجسس عليه. وكان كل إقتراح تقوله جانيت في العمل يعتبره محاولة منها للنيل منه، وكل مدح أو إطراء يعتبره مدمراً، كمحاولة للتغلب عليه. شعرت جانيت أنها لا تستطيع إقناعه بأي شيء آخر، وأخيراً إضطرت لترك الوظيفة حفاظاً على سلامتها العقلية.

لقد تعلمت أن الإيمان الناضج الذي يشتمل على البساطة والإخلاص يعمل عكس البارانويا. إنه يُجمّع كل أحداث الحياة حول الثقة في الله المحب. فعندما تحدث أمور طيبة فهي هبة من عند الله، وتستحق شكرنا. وعندما تحدث أمور سيئة لا أعتبرها أنها من الله ولا أجد فيها سبباً يدعوني لترك الرب. بل بالحري؛ أثق أن الله بإمكانه أن يستخدمه لنفعي. وهذا هو الهدف الذي أحاول أن أسعى إليه.

يرى الشخص المخلص الحياة من منظور الثقة وليس الخوف. والإيمان القوي يجعلني أؤمن أنه بالرغم من الفوضى الحادثة في اللحظة الحاضرة فإن الله هو الذي يحكم. وبالرغم من شعوري، أحياناً، بأنه لا قيمة لي، فإنني مهم في نظر الله المحب. إن الألم لن يستمر إلى الأبد، ولا الشر ينتصر في النهاية. والإيمان يرى أن أسوأ وأظلم عمل صنعه التاريخ، وهو موت ابن الله، كمقدمة ضرورية لنور ساطع.

والشخص الذي يشك قد يقول أنني قدمت مجرد تبرير كلاسيكي معروف: مبتدأ بمقدمة منطقية، ثم استخدمت ببراعة كل الأدلة لتؤيد هذه المقدمة. وهذا الشخص على صواب. نعم؛ لقد بدأت بمقدمة أن الرب صالح، ومحب، كالمبدأ الأول لهذا الكون، وأي

شيء يناقض هذه المقدمة يجب أن يكون له تفسير آخر. وفي عالم السياسة يقول وليم سافير: "إن المرشح الذي أخذ الأصوات من أجل المطر ينال اللوم بسبب الجفاف". كيف يمكنني إذا أن أبعد الله عن الأشياء المرعبة التي تحدث للناس كل يوم؟.

بداية؛ كما قلت سابقاً، أننا لا يجب أن نفترض أن كل شيء يحدث بموافقة من الله. فعندما يذهب إثنان من المراهقين لمدرسة ثانوية ويطلقان الرصاص على زملائهما في المدرسة، هل هذه هي خطة الله؟ أحد الأصدقاء أخبرني بإنفعال شديد عن الكثير من المعجزات التي حدثت أثناء الحادث في تلك المدرسة. فقد زرع القتلة ٩٥ لغماً في المدرسة، وإنفجر منها عدد قليل للغاية. أحد الطلبة أصيب برصاصتين في وجهه، وبطريقة معجزية جاءت واحدة في جانب الفك، والأخرى في الجانب الآخر، ولم يمت. وتلميذ آخر رجع إلى بيته لأنه كان مريضاً وشكر والديه الله من أجل رحمته وعنايته. سمعت هذه القصص وفرحت بالنتائج، ومع ذلك تساءلت: ما هو وقع هذا الكلام على أولياء أمور الطلبة الذين ماتوا في تلك المذبحة؟

تحدث أمور كثيرة في هذا العالم، هي بكل وضوح ضد إرادة الله. إقرأ الأنبياء، الذين اختارهم الله ليتحدثوا بكلامه، والذين ثاروا ضد الأوثان، والظلم، والعنف، وخطايا إنسانية أخرى. إقرأ الأناجيل حيث قلب الرب يسوع رأساً على عقب كل ما علمت به المؤسسة الدينية في ذلك الوقت، وحرر الناس من قيودهم، والتي اعتبروها "إرادة الله". قد تكون العناية الإلهية سراً عظيماً، ومع ذلك فلا أجد تبريراً لكي نلوم الله على ما يعارضه.

وبالرغم من ذلك فإن تساؤلات الشكاكين لم تنته: كيف يمكنني ان أشكر الله من أجل الأمور الصالحة، ولا ألومه من أجل الأمور السيئة؟ يمكنني أن أفعل ذلك بتكوين شعور من الثقة تُبنى على ما تعلمته في علاقتي مع الله.

وأجد أمراً مشابهاً في علاقاتي الإنسانية. فإذا كنت أنتظر صديقي

"لاري" في مكان معين إتفقنا على اللقاء فيه، ولم يحضر حتى بعد مرور ساعة من الموعد المحدد، فلا أبدأ بلعنه واتهامه بعدمِ المسئولية، وسوء التفكير. فسنوات الصداقة التي قضيناها معاً عرفتني أن "لاري" إنسان يقظ، ويمكن الإعتماد عليه. وافترض أن شيئاً ما- إطار السيارة قد إنفجر، أو أن حادثاً قد ألم به- قد أعاق حضوره. إن الذين أحبهم أمتدحهم لأجل الأمور الطيبة ولا أحاول أن ألومهم إذا حدث منهم أمر سيء، مفترضاً وجود قوى أخرى تعمل وقد تعطلهم. وهكذا نكون معاً قد زرعنا نموذجاً للثقة، وفهمنا المحبة بطريقة صحيحة.

بمرور الزمن، ومن خلال إختباراتي الشخصية، ودراستي لكلمة الله، عرفت صفات معينة عن الله. أسلوب الله غالباً ما يحيرني: إنه يتحرك بخطوات بطيئة، ويفضل الثائرين، والأسخياء، ويكبح قوته، ويتحدث في همس وسكون. ومع ذلك ففي هذه الصفات أرى معاناته الطويلة، ورحمته ورغبته في أن يتودد إلينا لا أن يُكره ويُجبر. وعندما ينتابني الشك، أركز على يسوع، الذي هو صورة الله. لقد تعلمت الثقة في الله حين تحدث مأساة أو يظهر أي شرحتى أنني لا أستطيع أن أساير الله الذي عرفته وأحببته، عندئذ أبحث عن تفسيرات أخرى.

لنفكر في ورطة جاسوس يعمل خلف خطوط العدو، وفجأة يفقد كل إتصال بالقوت الصديقة في بلده. هل تخلصوا منه، وقطعوا الصلة به؟ فإذا كان يثق ثقة كاملة في حكومته فسوف يفترض بدلاً من ذلك أن خط الإتصال قد تعرض للخطر، وانتهت الإتصالات التي حاولت حمايته. وإذا قُبض عليه كرهينة في بيروت، أو طهران، فلن يكون لديه أي دليل على أن أي شخص في بلده يهتم به. أما الجاسوس الأمين فسوف يثق أن حكومته سوف تبحث عنه من خلال القنوات الدبلوماسية، وتقدم المكافآت لمن يدلوا بمعلومات

عنه، وربما تقوم ببعض المجهودات السرية لإنقاذه. وعلى عكس كل الأدلة الظاهرة، فهو يثق في أن حكومته تقدره وترجو خيره ورفاهيته.

يعطينا س. إس. لويس مزيداً من التوضيح عن الأوقات التي فيها تنعدم الثقة، حتى في الحالات التي تقاوم ذلك:

"عندما تقوم بإخراج كلب من فخ نُصب له، أو تنتزع شوكة من إصبع طفل، أو تُعلِّم ولداً كيف يسبح، أو تُنقذ شخصاً كاد أن يغرق، أو أنقذت مُتسلقاً مبتدئاً للجبل من مكان خطر فوق الجبال، ففي كل هذه الأحوال قد تجد أن العقبة الرئيسية هي ثقتهم فيك. نحن نطالبهم بأن يثقوا فينا بخيالهم وذكائهم. ونطلب منهم أن يثقوا بأن الأمر المؤلم الذي سيقومون به سوف يريحهم من الألم، وما قد يبدو خطراً بالنسبة لهم سيجدون فيه أمنهم وسلامهم. إننا نطلب منهم أن يقبلوا أموراً مستحيلة ظاهرياً: مثل تحريك القدم للخلف داخل الفخ وهي الوسيلة للخروج، أو جرح الإصبع قليلاً لكي تخرج الشوكة وأن هذا سيوقف الألم، أو أن منفذ المياة سوف ينقذ الولد المشرف على الغرق، أو أن الصعود لأعلى المنحنى يحفظه من السقوط. ولكي تدعّم كل هذه المقترحات للإنقاذ، والتي يصعب تصديقها، يمكننا أن نستند فقط على ثقة الطرف الآخر فينا، ثقة لا تُبنى على العواطف التي يرونها، بل ثقة وتأكيد يرونه على وجوهنا، ويسمعونه في نغمة أصواتنا. وأحياناً؛ بسبب عدم ثقتهم قد نقوم بأعمال قوية لإنقاذهم. ولكن إذا نجحنا في عملية الإنقاذ، فذلك لأنهم وضعوا ثقتهم وإيمانهم فينا ضد أية ظواهر عكس ذلك. ولا أحد يلومنا إذا طلبنا مثل هذا الإيمان والثقة منهم. ولا أحد يلومهم لمنحنا هذه الثقة. ولا أحد يتهمهم فيما بعد بالغباء لأنهم وثقوا فينا.

والآن لكي تقبل أنت كل هذه الإفتراضات، والعروض

المسيحية المقدمة لك لإنقاذك، فلابد أن تؤمن أننا دائماً لله، تماماً مثلما كان الكلب، والطفل، والولد الذي كان يسبح، أو الذي كان يتسلق الجبال بالنسبة لنا، ولكن نحن بالنسبة لله أفضل بكثير من كل هؤلاء".

في خطاب غير عادي كتبه لويس إلى صديقه الأب جون كالابيرا قال فيه: أنه طبّق هذا المبدأ بصورة شخصية تماماً. أمضى وقته للعناية بأمه العاجزة، وبصديق آخر في منزل مشحون بالمشاجرات. وكتب في خطابه لصديقه يقول: "إلى متى يا رب؟". ووضح لصديقه عن مدى حيرته وإرتباكه، وطلب الصلاة من أجله، وقال: إن كل هذه المشكلات منعته من كتابة المزيد من الكتب. وأضاف: "إذا كان حسناً في عيني الله أن أكتب المزيد من الكتب فمبارك اسمه، وإن لم يحسن ذلك في عينيه فمبارك اسمه أيضاً. فربما يكون الأمر مفيداً لي من الناحية الروحية أن أفقد كل من الشهرة والمهارة حتى لا أصاب بهذا المرض اللعين، ألا وهو الغرور والزهو.

وكانت رسالة لويس بمثابة السهم الذي اخترق قلبي لأن الكتب كانت مصدر رزقي، ومعيشتي، وأكتب هذا الكتاب وأنا في الخمسنيات من عمري وأعرف المعنى الحقيقي الذي قصده لويس عندما يصل إلى الثقة والتسليم لله. وما كان يلوح بالنسبة له على أنه تضحية عظيمة وخسارة كبيرة، حوّله إلى قوة وبركة، وذلك لسبب واحد، لقد طرح كل ثقته في الله. وآمن لويس بأن كل شيء يحدث في حياته حتى وإن كان ضد رغباته، يمكن أن يحوله الله لمنفعته.

أطلق القديس غوريغوريوس النيصي على إيمان القديس باسيل "الإيمان ذو الوجهين" لأنه كان يرحب بالمتعة باليد اليمنى، وبالآلام باليسرى، مقتنعاً أن كلاهما سوف يخدم خطة الله في حياته. وفي القرن الثامن قلّد جان باري Jean-Pierre de Caussade إيمان القديس باسيل فقال: "إن الإيمان الحي ما هو إلا ملاحقة ثابتة لله من خلال كل ما يساعد على التنكر والتشويه والهدم، ويسعى للقضاء

عليه". وقصد جان باري أن يقبل كل لحظة على أنها رؤيا من الله، واثقاً من أنه ، بغض النظر عن كيفية ظهور الأشياء في وقت معين، فكل التاريخ سوف يحقق غرض الله على الأرض. ونصح بما يلي: "إقبل وحب اللحظة التي أنت فيها، على أنها أفضل شيء مع ثقة كاملة في صلاح الله الكلي... فكل شيء بدون إستثناء هو آداة ووسيلة للتقديس...وغرض الله لنا دائماً ما يساهم بقدر كبير لخيرنا ومصلحتنا".

سأقول ماذا يعني الإيمان "ذو الوجهين" بالنسبة لي. نظرياً إن لم يكن عملياً، إنني أتقبل "كل شيء بدون إستثناء" كعمل الله وأطلب منه أن يعرفني ماذا يمكن أن أتعلم منه، وأصلي لله أن يصلح ما فيّ من عيوب. وأنا لا أتقبل شيئاً من الله وأحاكمه أو أنتقده لأنني تعلمت أن أقبل حالتي الضعيفة كمخلوق والتي تشتمل على وجهة النظر القاصرة والمحدودة التي لا تستطيع أن ترى القوى غير المرئية في الحاضر، والمستقبل أيضاً، والتي لا يعلمها إلا الله وحده. والإنسان الذي يشك قد يفقد إيمانه في الله.. ولكن الإيمان هو: الثقة في صلاح الله بالرغم من أية دلائل تُشير إلى عكس ذلك. كما يطيع ويثق الجندي في أوامر قائده أو بطريقة أفضل كما يثق الطفل في حب والديه.

كتبت لي مرة إحدى الصديقات وكانت تعاني من الإكتئاب وقالت: "لا يمكنني أن أشرح إكتئابي لأي شخص. إنه غير معقول إذ أنه يسري في كل حياتي. فهو يلّون نظرتي للعالم وأنا أسيّج حوله، وأعتبره وجهة نظر سرية خاصة بي، ولا يستطيع أحد الدخول إليها. وعندما تنتابني روح الإكتئاب فلا أصدق شيئاً آخر غير نفسي. إن الظلام يغطي حياتي كلها. وواصلت صديقتي حديثها وقالت أنها منذ حصولها على الخلاص- وكانت قبلاً يهودية، ومازالت تخفي إيمانها عن عائلتها- إنخفض شعورها بالإكتئاب وقلّت سيطرته عليها". وفي الحقيقة بدأت أشعر بأن الإيمان يمنحني الغلبة على الإكتئاب. وهو أيضاً يلّون كل شيء. ولا يمكنني أن أشرح معناه للآخرين، ومع ذلك فإنه يجلب النور تدريجياً لحياتي المظلمة".

سأتحدث عن الشعور العكسي بالإضطهاد (البارانويا)، متجولا بين صور الإيمان التي وضّحت على أفضل ما يكون. وأعتقد أن الأصدقاء الثلاثة للنبي دانيال الذين هزموا الملك الطاغية بإعلانهم: "يَا نَبُوخَذْنَصَّرُ لاَ يَلْزَمُنَا أَنْ نُجِيبَكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ. هُوَذَا يُوجَدُ إِلَهُنَا الَّذِي نَعْبُدُهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَجِّيَنَا مِنْ أَتُونِ النَّارِ الْمُتَّقِدَةِ وَأَنْ يُنْقِذَنَا مِنْ يَدِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ. وَإِلاَّ فَلْيَكُنْ مَعْلُوماً لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنَّنَا لاَ نَعْبُدُ آلِهَتَكَ وَلاَ نَسْجُدُ لِتِمْثَالِ الذَّهَبِ الَّذِي نَصَبْتَهُ" (دانيال ٣: ١٦-١٨). وفكرت أيضاً في يسوع وهو على الصليب يصرخ: "إلهي.. إلهي.. لماذا تركتني؟"، ثم قال: " يا أبتاه بين يديك أستودع روحي؟". أصدقاء دانيال تمتعوا بخلاص معجزي من الله، أما يسوع فلم يحدث له هذا، ومع ذلك فكلا الإثنين كانت لهم ثقة كاملة في الله.

وفكرت أيضاً في حالة بولس كما هي موصوفة في رسالة فيلبي. قيمه، ومبادئه التي يبدو أنها قد إنقلبت رأساً على عقب، وقيوده وهو في السجن، وصعوبات أخرى كثيرة، واجهها، ولكن كل هذا كان له نتائج طيبة وصالحة. الثروة، أو الفقر، الراحة، أو الألم، القبول، أم الرفض، الموت أم الحياة...لا شيء من كل هذه كانت تهم بولس." فَإِنِّي قَدْ تَعَلَّمْتُ أَنْ أَكُونَ مُكْتَفِياً بِمَا أَنَا فِيهِ. أَعْرِفُ أَنْ أَتَّضِعَ وَأَعْرِفُ أَيْضاً أَنْ أَسْتَفْضِلَ. فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي جَمِيعِ الأَشْيَاءِ قَدْ تَدَرَّبْتُ أَنْ أَشْبَعَ وَأَنْ أَجُوعَ، وَأَنْ أَسْتَفْضِلَ وَأَنْ أَنْقُصَ".

كما فكرت أيضاً في الشاعر جون دون الذي عاش في القرن السابع عشر، وكان أيضاً مسئولاً عن كاتدرائية القديس بولس في لندن. أعتقد أن كثيراً مما تعلمته عن الله وعن الألم والمعاناة قد تعلمته من دون الذي هو بالنسبة لي بمثابة أنموذج للإيمان ذو اليدين.

كان جون دون رجلاً يعرف معنى الحزن. وأثناء عمله في الكاتدرائية اجتاح الطاعون مدينة لندن، وقتل ٤٠,٠٠٠ شخص.

وهرع الناس إلى دون طلباً لتفسير هذا الأمر الصعب، أو لكلمات تعزية. وأثناء ذلك أصيب هو بالطاعون، كما قال الأطباء (ولكن فيما بعد عرفوا أنها حُمى التيفود). ولزم الفراش لستة أسابيع، حتى أنه كاد أن يموت، وهو يستمع إلى جرس الكنيسة بين الحين والآخر معلناً عن وفاة شخص ويتساءل ما إذا كان قد حان دوره. وأثناء تلك الفترة المظلمة، كان ممنوعاً من القراءة والدراسة، ولكن سُمح له بالكتابة فألف كتاباً بعنوان "التكريس Devotions" تأملات في الألم. وكما قال، فقد حوّل آلته إلى باب الموت.

وفي كتابه يدعو "دون" الله لأن يعمل. كان يسخر من الله ويعيره، في بعض الأحيان، وأحيان أخرى يتذلل ويتوسل من أجل الغفران، وفي أحيان أخرى كان يُجادل بعنف. ولكن، ولا مرة واحدة في كل هذه الأحوال، حاول أن يُبعد الله عن كل هذه الأمور، بل كان حضور الله يُظلل كل فكرة، وكل جملة كتبها.

سأل "دون" نفس السؤال، مرة ومرات: "لماذا أنا بالذات؟". وفي ذلك الوقت كانت مباديء كالفن في بداياتها، واعتبر "دون" أن الطاعون، والحروب هي "ملائكة الله". ولكن بسرعة غيّر فكره، وقال: "بالتأكيد لست أنت يا الله، وليست يديك. فالسيف القاتل، والنيران المميتة، والعواصف في البرية، والأمراض التي تصيبنا، وكل ما تعذب به أيوب، كلها من يدي الشيطان، وليست من عندك". ولكنه مازال غير متأكد من ذلك، وهذا ما سبب له نوع من العذاب الداخلي. ولم يُجب كتاب دون على السؤال: "لماذا أنا بالذات؟"، ولا يستطيع أي واحد منا أن يجيب على تلك الأسئلة التي هي فوق مستوانا البشري.

على الرغم من أن كتاب "التكريس" لم يُبدد شكوكه العقلية، ولكنه سجّل حلوله العاطفية. في بداية الأمر لم يجد راحة في شعور الخوف الدائم ، وفي قلقه هذا بدأ يراجع، ويبحث عن كلمة "خوف" في الكتاب المقدس. وبينما كان يفعل ذلك، أشرقت على ذهنه فكرة أن الحياة سوف تشتمل دائماً على ظروف تدفع للخوف: فإن لم يكن

هناك مرض، ستكون هناك ضائقة مادية، وإن لم يكن هناك فقر، فسيكون هناك رفض ونبذ، وإن لم يكن هناك شعور بالوحدة، فقد تُصاب بالفشل. وفي مثل هذا العالم، كان لدى دون اختيار واضح: إما أن يخاف الله أو أن يخاف من أي شيء آخر، إما أن يثق في الله أو أن يثق في اللا شيء.

في مصارعته مع الله، غيّر دون أسئلته. وبدأ بالسؤال عن أصل الأشياء: "من سبب هذا المرض؟..ولماذا؟"ــــولم يجد له إجابة. وإنتقلت تأملاته تدريجياً إلى: هل أثق في الله وأنا في قلب الألم والضعف والخوف؟ أم أنني أبتعد عنه في مرارة وغضب؟. ويقرر دون أن الأمر لا يهم سواء كان من الله أو كان أمراً طبيعياً. ففي كلتا الحالتين سوف يثق في الله، لأنه في النهاية سوف يثبت أن الثقة بالله هي الخوف الحقيقي من الرب؟

يُشبّه دون تغييره الفكري هذا بتغيير شعوره نحو الأطباء. ففي البداية، بينما كانوا يفحصون جسده بحثاً عن أعراض جديدة للمرض وهم يتهامسون معاً خارج الغرفة، لم يتمكن من أن يمنع نفسه من الشعور بالخوف. وفي الوقت المحدد، عندما رأى إهتمامهم به وتعاطفهم معه، اقتنع بأنهم يستحقون ثقته فيهم، حتى وإن كان علاجهم مؤلماً. ويمكن تطبيق نفس هذا المثل مع الله. فمع أننا غالباً ما لا نفهم طرقه أو الأسباب التي وراءها، فالقضية الأساسية هي: هل الله يستحق ثقتنا "كطبيبنا السماوي"؟. يقول "دون": نعم.

يقول بولس الرسول في رومية ٨: "فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ وَلاَ خَلِيقَةَ أُخْرَى تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا". ويبدأ "دون" في فحص مخاوفه العظيمة: هل الأعداء أقوياء؟ إنهم لا

> "مهما يكن الإيمان، ومهما تكن الإجابات التي يعطيها لك أي مكان، فكل إجابة للإنسان لفاني تُعطي معنىً خالداً لا تحطمه المعاناة، ولا الحرمان، ولا الموت".
>
> **ليو تلستوي**

يمثلون تهديداً بالنسبة لي لأن الله يستطيع أن يمحو أي عدو. هل هي المجاعة؟ كلا؛ فالله يستطيع أن يُسدد أعوازنا. هل هو الموت؟ وحتى هذا، وإن كان هذا هو أسوأ ما يخافه الإنسان، لا يستطيع أن يُقيم حاجزاً لأولئك الذين يخافون الله. وتوصل "دون" إلى أن أفضل طريق هو أن يزرع خوف الله في قلبه، لأن مثل هذا الخوف ينزع كل مخاوف أخرى. وصلى قائلاً: "يا رب يا من منحتني توبة لن أعود عنها، إمنحني خوفاً (خوف الله) يحميني من أي خوف آخر.



٦ - الحياة بالإيمان



"إنه لأمر سهل أن تحيا في الماضي والمستقبل، أما أن تعيش في الحاضر فكأنك تُدخل خيطاً في ثقب إبرة"

ولكر بارسي



قال راعي كنيستنا في شيكاغو "بيل لزلي"، أنه غالباً ما يشعر بأنه مثل يدٍ قديمة لمضخة مياه، وهي النوع الذي مازال موجوداً في بعض المعسكرات. فكل شخص أتى إليه طلبا للمساعدة يأخذ منه الكثير. وأخيراً شعر بفراغ روحي وأنه ليس لديه ما يعطيه أكثر من ذلك. لقد شعر بجفاف شديد.

ووسط هذه الفترة ذهب بيل في أجازة لمدة أسبوع ليرى الراهبة التي كان يعتبرها مرشدته الروحية واعترف لها بحالته الروحية شديدة الجفاف. وتوقع أن يسمع منها بعض كلمات التشجيع والمديح وكم كان مضحياً في خدمته. ولكن بدلاً من ذلك قالت له: "يا بيل هناك أمر واحد فقط يمكنك عمله في حالة جفاف خزان المياه الخاص بك. لتزيده عمقاً". وعاد من أجازته مقتنعاً بأن إيمانه اعتمد بصورة أقل على رحلة حياته الخارجية وخدمته أكثر من اعتماده على رحلته الداخلية، نمو العمق الروحي.

على التلال عند سفح الجبل حيث حفر العمال بئراً على عمق ٦٤٠ قدماً حتى وصلوا إلى المياه لتصل إلى منازلنا. وبالرغم من هذا العمق الكبير كانت المياه ضعيفة حتى استخدموا أسلوباً فنياً جديداً لزيادة تدفقها. ولكي يحدث ذلك حطم الفنيون الجرانيت وحولوه إلى حصى لكي يفتحوا مجرى جديداً للمياه. وإنني متأكد أن القس بيل لزلي سوف يُعجب بهذا التشابه الجزئي: ضغط شديد في العمل أصابه بالجفاف وأجبره للبحث عن مصادر جديدة للقوة- وهو نفس السبب الذي دفعه للبحث عن المشورة الروحية في المقام الأول.

وفي تشبيه مماثل يكتب إرميا النبي عن شجيرة امتدت جذورها في تربة صحراوية. تزدهر وتنمو أثناء سقوط المطر ولكن في وقت الجفاف تذبل جذورها وتموت. ويرسم إرميا صورة تتناقض مع ذلك الشخص الذي يحيا بالإيمان:

مُبَارَكٌ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَّكِلُ عَلَى الرَّب،
وَكَانَ الرَّبُّ مُتَّكَلَهُ
فَإِنَّهُ يَكُونُ كَشَجَرَةٍ مَغْرُوسَةٍ عَلَى مِيَاهٍ
وَعَلَى نَهْرٍ تَمُدُّ أُصُولَهَا
وَلاَ تَرَى إِذَا جَاءَ الْحَر
وَيَكُونُ وَرَقُهَا أَخْضَرَ
وَفِي سَنَةِ الْقَحْطِ لاَ تَخَافُ
وَلاَ تَكُفُّ عَنِ الإِثْمَارِ.

والكتاب المقدس لا يعطينا وعوداً وردية عن العيش في ربيع دائم. ولكن بدلاً من ذلك يوجهنا نحو الإيمان الذي يساعدنا لكي نستعد للفصول الجافة. والشتاء القارس سوف يأتي ويتبعه صيف حرارته لافحة. ومع ذلك فإذا تعمقت جذور الإيمان بحثاً عن الماء الحي، يمكننا أن نتغلب على أوقات الجفاف ونزدهر في أوقات البركة.

طبقاً لما قاله ستانلي هيرواس تتكون حياة الإيمان من الصبر والرجاء. فعندما يحدث شيئاً ما ليختبر علاقتنا مع الله نستند على هاتين الفضيلتين: الصبر وقد شكلته ذاكرة طويلة، والرجاء الذي سيثبته إخلاصنا الذي يستحق المغامرة. يقول هيرواس أن كلاً من

اليهود والمسيحيين يؤكدون دائماً على تلك الفضائل لأننا نؤمن أن الله الذي هو صالح، وأمين، ويملك على هذا الكون، فالصبر والرجاء يحفظان الإيمان حياً في الأوقات التي يهاجمنا فيها الشك.

وسأعيد صياغة ما قاله هيرواس بالقول أن حياة الإيمان تتكون من الحياة في الماضي وفي المستقبل. فأحيا في الماضي لكي أضع أساساً لنفسي على كل ما فعله الله معي كوسيلة لكسب الثقة فيما يمكن أن يفعله مرة أخرى. فالارتباط بإله غير مرئي يتضمن بعض العقبات المعينة: وبدون دليل حسي في الوقت الحاضر، يجب علينا أن ننظر للوراء لنذكّر أنفسنا من هو هذا الإله الذي نرتبط به. وفي كل مرة كان الله يُعرّف نفسه "إله إبراهيم واسحق ويعقوب" وكان يُذكر شعبه المختار بتاريخه معهم - وتاريخه مع هؤلاء الأسلاف الثلاثة اشتمل على أوقات من الاختبارات والشكوك.

وأنا أيضاً أتعلم عن الإيمان بالنظر إلى إبراهيم واسحق ويعقوب، لأن الله ظهر في حياتهم بطريقة محيرة. فبعد أن وعدهم الله بنسل كنجوم السماء في الكثرة فإن ما ظهر بعد ذلك يمثل حالة تستحق الدراسة في العقم العائلي. فيبلغ إبراهيم وسارة التسعين من العمر قبل أن يريا طفلهما الأول، كما أن هذا الإبن - اسحق - تزوج بامرأة عقيم، كما كان على يعقوب الحفيد أن ينتظر أربعة عشر سنة لزوجة أحلامه، ليكتشف أيضاً أنها عقيمة. وهذا الطريق الذي اتسم بالعذاب للوصول إلى هذه الأمة كثيرة العدد يبين أن الله يتحرك وفق جدول يختلف عن توقعات البشر التي لا تعرف الصبر. ومن إبراهيم واسحق ويعقوب- وأيضاً من يوسف وموسى وداود وكثيرين غيرهم- تعلمت أن الله يتحرك بطرق لا أستطيع التنبؤ بها ولا أرغبها. ومع ذلك فإن كل من شخصيات العهد القديم تلك عاشوا وماتوا في الإيمان معلنين حتى النهاية أن الله وفى بوعده.

وعبر المزامير أنعم داود وآخرون النظر إلى أزمنة سابقة عندما ظهر الله كما لو كان ضعيفاً، ولكنه مع ذلك يبدو منتصراً نوعاً ما، عندما ظهرت الثقة كما لو كانت مجازفة طائشة ومع ذلك ثبتت

حكمتها وتعقلها. والمزامير التي تلخص تاريخ تحرير الله لشعبه غالباً ما تُبدي شك الكاتب فيما إذا كان الله سوف يتدخل مرة أخرى بطريقة مثيرة أم لا. والذكريات القوية تهدئ حاضراً غير مستقر، وعدد من المزامير يشهد بذلك.

وتعطي رسائل العهد الجديد نفس النصيحة: إدرس الكلمة باجتهاد وإتقان على أنها خريطة طريقٍ لمسابقات الإيمان. وبجانب الكتاب فإن شهادة الكنيسة تحمل تأكيداً وشهادة عن أمانة الله. وأنا أتساءل، أين سيكون إيماني بدون أغسطينوس، وجون دون، ودوستوفيسكي، ومولتمان، وتوماس ميرثون، و س. إس. لويس...؟ لقد تعلمت مرات كثيرة من كلماتهم، فكنت كمسافر مُتعب يستند على أثر في جانب الطريق.

كتب ريتشارد بيرد أثناء إقامة قوقعة في كوخ معدني في القطب الجنوبي ما يلي: "اكتشفت أنني كنت أشتاق للضوء كما يشتاق الرجل العطشان للماء". فأثناء شتاء القطب الجنوبي لا تظهر الشمس لمدة أربعة أشهر. "وتتغطى السماء بظلمة كئيبة. فتلك هي فترة ما بين الحياة والموت. وهذه هي الطريقة التي سوف ينظر بها العالم إلى آخر إنسان عندما يموت". وقبل ظهور الشمس بثلاثة أسابيع كتب في جريدته عن هذا الظهور: "حاولت أن أتخيل الصورة التي ستظهر بها الشمس ولكنني لم أتمكن من ذلك". وما أغرب هذه الكلمات عندما أعدها لتظهر في جريدته للطبع، وهو يعيش أيامه بحرية ويرى أشعة الشمس كل يوم.

وبالرغم من أنه ليست لي جريدة محددة أكتب لها فإن كتاباتي أنجزت شيئاً مشابهاً. وقد عثرت على مقالة كتبتها منذ ٢٥ عاماً وتعجبت من مدى العاطفة التي شعرت بها تجاه قضية لم أكن أفكر فيها كثيراً منذ ذلك الوقت. مثل الغضب والشك والسخرية التي يصعب التحكم فيها. ووجدت صيحات الأسى مكتوبة على هوامش كتابي المقدس، وشكرت الله على أنني سلكت هذا المسلك. وعندما أكون مملوءاً بالحماسة والمرح وأنظر إلى كتاباتي الماضية وأشعر

بالصدمة لمستنقع الكآبة الذي أتمرغ فيها، ولكن في نفس الوقت أندهش للإيمان الساطع الذي تمتعت به في ذلك الوقت. فمن الماضي أكتسبت نظرة معينة وهي أن ما أشعر به، وأؤمن به الآن، فسوف لا أشعر وأؤمن به دائماً. وهذا يقودني لتعميق الجذور تحت سطح التربة فلا تتأثر بأية تقلبات في المناخ.

وفي كل ذلك أتذكر أن علاقتي بالله تتطلب مجهوداً مقصوداً. فهي ليست شريط فيديو أشاهده بالمنزل وأرى فيه تاريخنا ونمونا معاً، كما أنه ليس هناك ألبوم لصور الإيمان الحي. ويجب عليّ أن أعمل بكل وعي لتذكر كل من تطور الألم وتطور الشفاء أيضاً.

وعندما فكر الرسول بولس في حياته كتب "صَادِقَةٌ هِيَ الْكَلِمَةُ وَمُسْتَحِقَّةٌ كُلَّ قُبُولٍ: أَنَّ الْمَسِيحَ يَسُوعَ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ لِيُخَلِّصَ الْخُطَاةَ الَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا. لَكِنَّنِي لِهَذَا رُحِمْتُ: لِيُظْهِرَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ فِيَّ أَنَا أَوَّلاً كُلَّ أَنَاةٍ، مِثَالاً لِلْعَتِيدِينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ.". وأتخيل أن الكثيرين سيشكون في بولس عندما لقب نفسه بأنه "أول الخطاة". لقد نظر بولس للماضي ليتذكر حالته السابقة ثم يعود وينظر للمستقبل ويقول: "وَمَلِكُ الدُّهُورِ الَّذِي لاَ يَفْنَى وَلاَ يُرَى، الإِلَهُ الْحَكِيمُ وَحْدَهُ، لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْمَجْدُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. آمِينَ.".

يتجمد جدول المياه القريب من منزلي كل شتاء. وعندما أنحني بالقرب منه يمكنني أن أسمع جريان المياه تحت طبقة الثلج. ولا تتوقف المياه. وتحت هذه الطبقة المتجمدة أثناء فصل الشتاء هناك دليل على وجود صيف لا يمكن تجنبه.

تتكون حياة الإيمان من صبر ورجاء، الماضي والمستقبل. إن مارتن مارتي الذي اعتبر أن نصف المزامير عاصف وبارد في نغمته قرر أيضاً أن ١٤٩ مزموراً من مجموع ١٥٠ تقودنا إلى الأمل والرجاء.

"جورجن مولتمان Jurgen Moltmann" وهو واحد من أوائل اللاهوتيين في هذا القرن يروي في كتابه الصغير "اختبارات مع الله" رحلته الشخصية نحو الرجاء. وهو في مرحلة التجنيد أُختير ليذهب إلى الجبهة في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية حيث أسره البريطانيون. وقضى ثلاث سنوات في السجن متنقلاً من سجن إلى آخر في أحد معسكرات بلجيكا وسكتلندا وانجلترا. وفي أثناء ذلك انهارت إمبراطورية هتلر ورأى بعينيه انهيار الألمان داخلياً وكيف أنهم فقدوا كل الأمل ومات البعض منهم من جراء ذلك. وحدث لي نفس الشئ تقريباً. ولكن ولادة إيمان جديد في حياتي حفظتني من هذا اليأس.

لم يكن لمولتمان أية خلفية مسيحية. وكان كل ما معه كتابان فقط: أشعار جيته وكتابات نيتشه، ولا يمكن لأي منهما أن يبعث على الأمل أو الرجاء. ولكن أحد القادة أعطاه العهد الجديد الذي يحتوي على المزامير. وقرأ مولتمان الآية التي تقول "حتى إن اضطجعت في الهاوية فأنت هناك" وبدأ مولتمان السجين يتساءل: هل يمكن أن يحضر الله في هذا المكان المظلم. وبعد أن قرأ باقي المزمور وجد كلمات استحوذت على مشاعر الأسى والوحدة. واقتنع بأن الله موجود حتى خلف أسلاك السجن.

واستمر مولتمان في قراءة المزامير ووجد شيئاً جديداً: وجد الأمل والرجاء. وبينما كان يتمشى بالليل داخل المعسكر وجد تلاً صغيراً وعليه كوخ وهو كنيسة صغيرة لمن يحب من المساجين أن يصلي فيها. وأصبح هذا الكوخ بالنسبة له رمزاً لحضور الله يشع نوراً في قلب المعاناه ومن هذا الرمز بدأ الأمل ينمو داخله.

وعندما نال مولتمان حريته تخلى عن خطته لدراسة الطبيعة (الفيزياء) ودرس بدلاً منها اللاهوت، ووجد في ذلك الوقت حركة تُدعى "لاهوت الرجاء". واستنتج أننا هنا على الأرض نعيش في حالة من التناقض بين الصليب والقيامة. ومع أننا محاطون بالفناء فإن لنا رجاء في الكمال واستعادة التناغم والنظام. وليس لدينا برهان

على أنه يمكن الوصول إلى ذلك، فيما عدا علامة في التاريخ، وهو نور قيامة المسيح من الأموات. ورغم ذلك فإذا كان بإمكاننا أن نحتفظ بإيماننا في هذا المستقبل المجيد فبإمكانه أن يغير الحاضر تماماً مثلما حدث مع مولتمان الذي بعد أن أطلق سراحه من السجن غير شعوره بالرجاء حياته واختباراته اليومية.

إن الإيمان بمستقبلنا مع الله يغير الحاضر. والشخص الذي ليس له هذا الإيمان يفترض منطقياً أن المعاناة والفوضى على هذا الكوكب تعكس شيئاً عن طبيعة الله، ولهذا فالله ليس صالحاً تماماً ولا قوياً بدرجة كاملة. أما الإيمان بمستقبلنا مع الله يجعلنا نؤمن بأن الله غير راض عن هذا العالم ويخطط لارجاع هذا الكون إلى خطته الأصلية التي وضعها له. وكما أن مولتمان آمن بإمكانية الحياة خارج السجن يوماً ما، هكذا بإمكاني أنا أن أؤمن بزمن مستقبلي فيه سيدين الله بعدل كامل.

"وبعيداً عن هذا الشك: فإلهي قد وعد، وهو عادل" هكذا كتب جورج هيربرت. إنني أحتاج إلى من يذكرني بهذا يومياً. وبإيماني في مستقبلي مع الله يمكنني أن أثق في عدل الله بالرغم من كل التناقضات الظاهرة على هذا الكوكب المتألم.

حاول نلسون مانديلا في كتابه عن سيرته الذاتية "الطريق الطويل نحو الحرية". أن يتذكر أول مرة وقعت عيناه على حفيدته. في ذلك الوقت كان يعمل عملاً شاقاً وهو سجين في جزر روبن يقطع الحجارة تحت أشعة الشمس التي كادت أن تعمي عينيه وكتب يقول: "هناك شئ واحد يحفظ السجناء من اليأس، إنهم يغنون معاً وهم يعملون. وتذكرهم تلك الأغاني بالأسرة والمنزل والقبيلة والعالم الخارجي الذي كادوا أن ينسوه".

وأثناء فترة أربعة عشر عاماً في السجن، حصل مانديلا على تصريح لكي تزوره إبنته. وإذ بالإبنة تجري نحوه وتحتضنه. ولم

يكن مانديلا قد احتضن ابنته منذ أن كانت طفلة صغيرة، وكم كان هذا الأمر مثيراً لمشاعره كما سبب له نوعاً من الدوار وهو يحتضن ابنته التي أصبحت فتاة ناضجة. ثم أعطته طفلتها حديثة الولادة، إنها حفيدته، وأمسك بها بيديه المتعبتين. "عندما أمسكت بحفيدتي المولودة حديثاً بيدين خشنتين تعودتا لفترة طويلة أن تمسك فقط بالمعول والجاروف، كان هذا مصدر فرح شديد بالنسبة لي، واعتقدت أنه لا يوجد من هو أسعد مني في تلك اللحظة".

ومن ثقافة مانديلا التي تعلمها في قبيلته تقليد يسمح للجد أن يختار اسم الحفيد عند ولادته، فاختار لها اسم زازيو Zaziwe ويعني الأمل. "إن للإسم معنى خاصاً بالنسبة لي، لأنه طوال سنواتي الطويلة التي قضيتها بالسجن لم يفارقني الأمل ولن يفارقني أبداً. وكنت مقتنعاً أن هذا الطفل سيكون واحداً من الجيل الجديد في جنوب أفريقيا والذين ستكون بالنسبة لهم سياسة التفرقة العنصرية مجرد ذكريات بعيدة .. وكان هذا حُلمي".

وقضى مانديلا بعد هذا الكلام ثلاثة عشر عاماً في السجن. ومع ذلك فقد حفظته رؤيا الأمل ورؤية Zaziwe. وبالرغم من أن الدلائل التي كانت تشير عن قرب زوال سياسة التفرقة العنصرية كانت دلائل ضعيفة وقليلة ولكنه كان يؤمن ويثق بزوال هذه السياسة في جنوب أفريقيا. وسوف يأتي الوقت سواء في حياته أم حياة حفيدته الذي تتحقق فيها عدالة جديدة. والإيمان بالمستقبل يقرر الحاضر.

وحتى هؤلاء الذين لا يعيشون تحقيق الأمل في هذه الحياة، فإن الإيمان بالمستقبل يحفظ رجائهم في القيامة. كان "دالاس ويلارد Dallas Willard" يعرف امرأة ترفض الحديث عن الحياة بعد الموت لأنها لا تريد أن يصاب أطفالها بخيبة أمل إذا اتضح أنه لا توجد حياة بعد الموت. وكما قال ويلارد: أنه إن لم تكن هناك حياة بعد الموت فلن يكون لدى الناس وعي يُشعرهم بخيبة أمل. زمن الجانب الآخر إذا كانت هناك حياة أخرى ألا يجب أن نستعد لها؟

عندما كنت أقيم في شيكاغو شاهدنا التدهور الصحي لإحدى عضوات الكنيسة وتدعى سابرينا. كان الجميع يحسدونها لصغر سنها وجمالها ورشاقتها حتى أصيبت بورم في المخ. وخصصنا لها وقتاً كل شهر لكي نصلي من أجلها للشفاء. ثم بدأت ترتدي وشاحاً ملوناً لتخبئ تأثيرات العلاج الكيميائي. ولكن بسرعة شديدة بدأت تعرج في مشيتها ولم تتمكن من استخدام أطرافها وحضرت الكنيسة على كرسي بعجلات. ثم أصيبت بالعمى وأصبحت طريحة الفراش. وقرب النهاية لم تتمكن من الكلام وأصبحت تتواصل مع الآخرين بتحريك رموش عينيها.

وبدأنا نحن الذين نعرف سابرينا الصراخ إلى الله من أجلها. ومسحها راعي الكنيسة بالزيت وصلينا من أجل حدوث معجزة. وشعرنا باليأس والغضب لعدم استجابة صلواتنا ورؤيتنا لتدهورها الصحي السريع.

وفي يوم وفاتها أُقيمت الصلاة بنفس الكنيسة وكان نصف الحضور من الاجتماع والنصف الآخر من زملائها بالعمل. وحملق زملاؤها في كتاب الترانيم وبرنامج خدمة الصلاة في الجنازة كما لو أنها كُتبت بلغة أجنبية. وبالرغم من خلفية الإيمان التي نتمتع بها شاركنا مشاعر الحزن والغضب لما حدث لسابرينا. ومع ذلك فإن زوجها والرعاة وزملاؤها بالكنيسة اشتركوا معاً في أمر لم يكن مفهوماً للحضور الآخرين: الرجاء والأمل في أن حياة سابرينا لم تنته بل لنا رجاء أننا سنلتقي بها ثانية يوماً ما.

سأل سمعان بطرس في لحظة حيرة وارتباك: "يارب، إلى من نذهب؟" إنني أشعر بمدى عمق هذه الكلمات في كل جنازة حضرتها. وبدون الإيمان بالقيامة، سيكون للموت الكلمة الأخيرة ويعلن انتصاره الساخر علينا. ولكن نور القيامة لا يبدد الظلال فقط بل وأيضاً يحتويها بالنور الجديد للأمل والرجاء.



"ليو توليستوي" الذي لم يتردد في إضافة الدروس الأخلاقية لقصصه، ختم قصته "ثلاثة أسئلة" كما يلي: "تذكر أنه يوجد وقت واحد فقط هو المهم، إنه الآن! إنه أهم وقت لأنه الوقت الوحيد الذي نمتلك فيه قوة".

إن سجلاً عن مدى أمانة الله في الماضي يرتبط بالرجاء في حياة أفضل لهدف واحد: وهو أن يعيننا على تحمل الحاضر. وكما قال تولستوي: إنه لا سيطرة لنا إلا على الوقت الذي نحن فيه الآن. فالماضي لا يمكن تغييره والمستقبل لا يمكن التنبؤ به. بإمكاني فقط أن أحيا الحياة التي أمامي الآن. والمؤمن المخلص يصلي: "لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض" ثم ينفذ مشيئة الله - المحبة، العدل، السلام، الرحمة، الغفران - في الحاضر وهو على الأرض.

وقد تعلمت مدى أهمية الوقت الحاضر في عملية الكتابة. فإذا ركزت على كُتبي ومقالاتي السابقة التي كتبتها فسينتابني شعور بالألم بسبب فشلي أو شعور بالفرح لنجاحي، أو إذا ركزت على المستقبل شاعراً بالقلق بسبب المواعيد التي يجب أن أنهي فيها كتاباتي فسوف أصاب بالشلل في الحاضر. لذا يجب عليّ أن أكرس نفسي للكلمة والجملة التي أمامي الآن، وللحظة التي أعيشها.

يعيش أصدقائي في مجموعات الاستشفاء بهذا الشعار الضروري: "يوم واحد في وقت واحد". أطلق المؤرخ الذي كتب عن السكارى المجهولين على كتابة اسم "ليس الله Not - God" لأنه، كما قال: أن أهم عقبة يجب أن يتخطاها الشخص المدمن هو أن يعرف في أعماقه أنه ليس الله، وأنه عاجز كل العجز ويلقي بنفسه بين أذرع قوة عليا". أول كل شئ يجب أن يتوقف عن القيام بدور الله، ثم بكل الإيمان ندع الله أن يقوم بدوره في حياتنا وهذا يتطلب تسليماً يومياً بل في كل لحظة.

وإذا فكرت في رحلة حياتي الروحية مرة واحدة فعادة ما أشعر بالحنين لتلك الأوقات التي كان يظهر فيها الرب لي أنه قريب جداً.

ووجدت أن الإيمان، ليس شيئاً أستقر فيه، ولا مهارة أتعلمها وأتقنها. إنه هبة من الله وأنا بحاجة لأن أصلي من أجلها كل يوم كما أصلي من أجل خبزي اليومي. ويحتوي الكتاب المقدس على ٣٦٥ آية تقول لنا "لا تخف" لكي يذكرنا يومياً أننا سنواجه صعوبات قد تولد فينا الخوف بصورة طبيعية.

ويكتب الرسول يوحنا: "لا خوف في المحبة لأن المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج"، ثم يشير إلى مصدر المحبة الكاملة: "نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً" وبكلمات أخرى فإن علاج الخوف ليس هو تغيير الظروف بل هو التعمق في محبة الله. أطلب من الله أن يكشف محبته لي مباشرة، أو من خلال علاقاتي مع أولئك الذين يعرفونه - وهي صلاة يُسر الله أن يستجيبها. وعندما أصاب بخيبة أمل بسبب فشل في الحاضر، أطلب من الله أن يذكرني بشخصيتي الحقيقية: شخص سوف يجعله الله كامل وقد متعه بالغفران. وكما ذكرنا سابقاً ما قالته الراهبة للراعي: "عليك أن تتعمق أكثر". عمّق البئر حتى لا تشعر بالجفاف ثانية. يقول "توماس ميرتون Thomas Merton": أن كل شئ في حياة المدينة الحديثة يتآمر ضد مثل هذا التسليم. نحن نقلق على المال وعلى ما نحتاج لأن نمتلكه ونعرفه وعلى من نتنافس معه وعلى من يخرج عن طوعنا. وهذا نوع من الإثارة التي أطلق عليها "الاضطراب العصبي"، وهذا ما دفعه لأن يذهب إلى دير، حيث وجد مكاناً للهدوء والتأمل. وفي الحقيقة سجل ميرتون في سيرته الذاتية اليوم الذي دخل فيه الدير وليس يوم دخوله للتجنيد. وفي كلا الطريقين وجد سعادة إذا كان هو المكان الذي رسمه الله له. "هناك سعادة واحدة فقط: أن نرضي الله. وهناك نوع واحد من الأسى والأسف، لا تُرضي الله".

لقد وجد ميرتون سر الحرية الحقيقية. فإذا كنا نعيش لإرضاء الله فقط فنحن نحرر أنفسنا من الاهتمامات والقلق الذي يضغط علينا. ولهذا فالكثير من همومي الشخصية تحول اهتمامها إلى الآخرين، سواء عندما يجدوا فيّ ما يتوقعونه مني أو يجدونني متاحاً في أي وقت. والعيشة لله فقط تتطلب إعادة توجيه جوهرية والابتعاد عن

أي شئ يُبعدني عن الهدف الأولي لإرضاء الله ومسرته. وتتطلب حياة الإيمان إرضاء الله أكثر من إرضاء الله لي.

أعرف جراحاً متخصصاً في جراحات الأيدي وإعادة تثبيت الأصابع التي تُصاب في الحوادث. وعندما يدخل إلى غرفة العمليات يعرف أنه سوف ينظر في الميكروسكوب لمدة ست أو ثماني ساعات محاولاً أن يخيط معاً الأعصاب والشرايين التي هي أكثر دقة من شعر الإنسان. وخطأ واحد يتسبب في فقد المريض للإحساس أو أي قدرة على الحركة طوال عمره. وهو لا يستطيع أن يتناول القهوة أو يذهب إلى الحمام. وفي إحدى المرات وصلت صديقي هذا مكالمة طارئة في الثالثة صباحاً وكان من الصعب عليه أن يواجه منظر بداية مثل هذه العملية الشاقة. ولكي يشجع نفسه ويساعدها على التركيز قرر أن يُهدي هذه العملية لروح والده الذي توفي منذ فترة وجيزة. وبعد بضعة ساعات قليلة، تخيل والده وهو يقف بجواره واضعاً يده على كتفه للتشجيع.

ونجح هذا الأسلوب حتى أنه خصص جراحاته للناس الذين يعرفهم. وبدأ يتصل بهم ويقول لهم: "أود أن أهدي هذه الجراحة لكم. وإذا فكرت فيكم وأنا أجري العملية فهذا سوف يساعدني كثيراً في أدائها". ثم خطرت في ذهنه فكرة: ألا يجب أن يقدم حياته لله بنفس الطريقة؟ والتفاصيل التي يقوم بها كل يوم - إجابة المكالمات التليفونية، تشغيل هيئة العمل معه، قراءة المجلات الطبية، مقابلة المرضى، عمل جدول للعمليات الجراحية - تغيرت قليلاً، ومع ذلك فإن يقظته لكي يحيا للرب تدريجياً تغلبت على كل أعماله الدنيوية. ووجد أنه أحسن معاملة الممرضات وقضى وقتاً أطول مع المرضى ولم يعد يقلق من أجل المال.



قمت بزيارة مدينة كلكتا بالهند، وهي مكان للفقر والموت والمشكلات الإنسانية التي لا حل لها. وهناك، دربت الأم تريزا

الراهبات على خدمة أفقر وأكثر الناس بؤساً على هذه الأرض. أجساد تكاد تكون ميتة كانوا يأخذونها من شوارع كلكتا. ويقف العالم في خوف ورهبة أمام تكريس هؤلاء الراهبات ونتائج خدمتهم، ولكن شيئاً ما في هؤلاء الراهبات أثر فيّ كثيراً: هو هدؤهن.

ويُعزي هدؤهن هذا إلى ما يفعلنه قبل أن يبدأن عملهن اليومي. فهن يستيقظن في الرابعة صباحاً قبل شروق الشمس، ويوقظهن جرس ودعوة تقول: "دعونا نبارك الرب" فيجيبين: "شكراً لله". وبعد أن يرتدين الساري الهندي يتوجهن للكنيسة، حيث يجلسن على الأرض (كعادتهم في الهند) ويصلين ويرنمن معاً. وعلى الحائط معلق صليب مكتوب عليه "أنا عطشان". وقبل أن يتقابلن مع أول فرد يخدمنه يندمجن في العبادة وفي محبة الله.

وشعرت أن الأخوات اللواتي يدرن البيت المخصص لهؤلاء المشرفون على الموت والمعوزين لا ينتابهن أي خوف أو ارتباك. ورأيت فيهن نوعاً من الاهتمام والعاطفة الشديدة ولكن بلا مشغولية زائدة على ما لم يتم عمله. ومنذ بداية تأسيس هذه المؤسسة خصصت الأم تريزا يوم الخميس للصلاة والراحة. وقالت: "سيكون أمامنا عمل باستمرار وإن لم ننال قسطاً من الراحة ونصلي فلن نتمكن من تأدية عملنا". وهؤلاء الراهبات لم يعملن عملاً خاصاً بوكالة للخدمات الاجتماعية. إنهن يعملن من أجل الله. ويبدأن يومهن مع الله كما أنهن يختمن اليوم معه في الكنيسة للصلاة المسائية وكل ما بين هذين الوقتين يقدمونه كتقدمة لله. والله وحده هو الذي يكافئهم ويقيّم نجاحهم.

عندما تهدد العمل الذي قام به طوال حياته، سُئل القديس إغناطيوس ماذا سيفعل لو أن البابا بولس الرابع قام بحل جمعية اليسوعيين التي كرس كل طاقته وهباته لها. فأجاب: "سوف أصلي لمدة ربع ساعة ثم بعد ذلك لا أفكر فيها مرة أخرى".

لا أستطيع أن أتظاهر بالشعور الرزين والوقور الذي كان للقديس اغناطيوس ولراهبات الأم تريزا. وأصلي أنني يوماً ما يمكنني أن

أصل إلى شئ من بساطتهم المقدسة التي يجسدونها. أما الآن فكل ما أستطيع عمله هو عملية يومية في "تركيز" حياتي في الله. وأود أن ترتبط حياتي بالحقيقة الوحيدة وهي أن الله يعرف كل شئ عني ويرغب تحقيق الصالح لي دائماً. وأود أن أنظر إلى كل ما يشتت انتباهي يومياً من منظور الأبدية. وأريد أن أهب نفسي لله الذي يستطيع أن يرفعني على استعباد ذاتي. ولن أتحرر من الشر أو التشتت ولكنني أصلي حتى أتمكن من التحرر من المشغولية والقلق الذي يتزاحم معهما.

وفي الصباح أطلب نعمة لكي أحيا لله وحده، ومع ذلك فعندما يرن التليفون برسالة تنفذ إلى نفسي أو عندما أفتح رسالة من قارئ مزعج، أجد نفسي مرتداً إلى حالة من اليقظة الذاتية التي قد تؤثر على هدوئي. وأشعر بالحاجة إلى التغيير والاستمرار لأن هذا الشعور هو الأساس الأكيد لقوة التغيير.

"تحركات النعمة وصلابة القلب والظروف الخارجية "هذا ما دونه باسكال في مذكراته السرية. هذا الأمور الثلاثة تطوّق حياتنا. فالظروف الخارجية تضغط علينا: الصراعات الأسرية، ضغوط الوظيفة، الاهتمامات المالية والكونية. وتحركات النعمة، وبداخلها مواهب الله، تسعى لكي تؤسسنا على حقائق أعمق. صلابة القلب هي وحدها التي يمكن السيطرة عليها. وكل ما أستطيع عمله هو الصلاة يومياً لله بأن "يسحق قلبي" ويذيبه بمحبته.

ويأتي التغيير في النهاية، ليس من عمل الإرادة ولكن بعمل النعمة. وبإمكاننا طلبه والاستمرار في ذلك.

> "هناك لحظة في كل يوم لا يستطيع الشيطان أن يجدها"
>
> وليام بلاك



٧ - سيادة الأمور العادية



"لكي تصل إلى ما تصبو إليه يجب أن تخترق الطريق التي لم تسلك فيها بعد"

تي. إي. إليوت



كشكل من أشكال الحقيقة في الإعلان، أشعر بأنني مُلزم باكتشاف كيفية عمل الإيمان في الحياة العملية اليومية، وليس فقط نظرياً. اشتملت حياتي الخاصة في الإيمان على الكثير من الأمور المدهشة التي لم يُعدّني لها أحد. وإن لم تشتمل الرحلة على بعض الحُفر والمطبات في الطريق، والجوانب المظلمة، والطرق الملتوية، غير المتوقعة، ما كنا بحاجة للإيمان.

يصف بعض الرهبان الحياة المتكاملة على أنها تلك الحياة التي فيها تفيض القوة الروحية إلى خارج لتغطي كل نشاط. ومعظم الرهبان يعيشون في مجتمعات روحية، ولهم أوقات معينة للصلاة، والعبادة، ولا يُعطل عبادتهم التليفون، أو التلفزيون. ولكن ماذا عنا نحن الذين تواجهنا الكثير من الأعمال التي تحتاج لأن ننجزها، ونحيا في ثقافة تدبر المؤمرات لتقضي على الهدوء والراحة.

عندما أبدأ يومي في الصباح قاصداً تركيز ذهني على الله، ومن

هذا المنطلق آمل أن الهدوء والسلام سيمتد تأثيرهما على بقية يومي. ومع ذلك؛ فحتى إن قضيت نصف ساعة في هدوء وسط يوم مرتبك، فإن ذلك يستحق المحاولة. تعودت أن أفكر بأن كل شيء مهم في حياتي— الزواج، العمل، الأصدقاء، الشركة مع الله— يحتاج إلى ترتيب وتنظيم. وإذا ارتبك واحد من هذه الأمور فسوف يرتبك الكل. وتعلمت أن أناضل مع الله وأستند على نعمته، وخاصة عندما تحتدم المشكلة وتقترب من الحافة.

لأنني أكتب وأتحدث للجميع عن إيماني، تعلمت أيضاً أن أقبل حقيقة أنني "إناء خزفي" قد يستخدمه الله في وقت قد أشعر فيه بأنني غير مستحق، أو أنني منافق. فيمكنني أن أدلي بحديث، أو أقوم بخدمة صادقة وحية بالنسبة لي، عندما أكون قد قمت بإعدادها، ومع ذلك فعندما أقدمها ينشغل ذهني بمجادلة حدثت معي أو أحاول التغلب على إهانة من صديق. بإمكاني أن أكتب ما أؤمن به، وأعتقد أنه الحق، بالرغم من شعوري المؤلم بعدم قدرتي على تطبيق ما أقوله للآخرين على حياتي الشخصية.

ممارسة الإيمان في الوقت الحاضر تعني الثقة في الله بأنه يعمل من خلال ما يواجهني، بالرغم من الفوضى، والضوضاء في بقية أمور حياتي. كما علمتنا "حركة الشفاء" أن ضعفنا الشديد يقودنا إلى الله. فقد يكتشف الشخص المدمن أن ضعفه هو هبة مختفية ومقنّعة، لأن هذا هو ما يضغط عليه يومياً ليقوده إلى النعمة، في حين أن البقية منا تحاول بزهو، وكبرياء أن تنكر حاجتها. كتبت "آني لانوت" عن إدمانها للخمر بكل صراحة قائلة: أن لديها صلاتين محببتين على قلبها: "أشكرك، أشكرك، أشكرك" و "ساعدني، ساعدني، ساعدني".

قمت بزيارة لمنزل "وليم كوبر" الكائن في قرية بإنجلترا. وقد كتب كوبر البعض من أشهر الترانيم المعروفة في الكنيسة.. ولفترة ما اشترك في السكن مع "جون نيوتن" تاجر العبيد الذي غيّره الرب، ومؤلف كتاب "النعمة المدهشة". وبينما كنت أجول

في المنزل أدركت أن كوبر اختبر قدراً قليلاً من نعمة الله. لقد عذبته المخاوف من شعوره بأنه ارتكب خطية لا تُغتفر، وطاردته شائعات بأنه ارتكب عملاً مُحرّماً وغير مشروع، وعانى كوبر من إنهيار عصبي وحاول الإنتحار عدة مرات، وأخذ إلى مستشفى للأمراض النفسية. وفي الربع الأخير من حياته تجنب الذهاب للكنيسة تماماً.

أين البركة التي عرفتها
عندما بحثت عن الرب؟
أين الندى المنعش للروح
الصادر من يسوع وكلمته؟
ما أهدأ الساعات التي استمتعت بها مرة.
وما أحلى ذكرياتها لي
ولكنها تركت فراغاً مؤماً
لا يستطيع العالم أن يملأه
فلتأتِ يا روح الله القدوس
يا رسول الراحة المعزي
إنني أكره الخطايا التي أحزنتك
وأخذتك بعيداً عن صدري

لو كنت في مثالية الشباب لكنت هاجمت كوبر واعتبرته نموذجاً للمؤمن المنافق، الذي كتب ما لا يستطيع ممارسته في حياته. أما الآن؛ وأنا أتأمل كلماته العظيمة التي تركها لنا كشاعر أرى في ترانيمه علامات واضحة على حياة حزينة مُتعَبة مليئة بكثافة الضباب وغياهب الغيوم. أعتقد أنه كان يعني ما قاله بالكلمات، من كل قلبه، كما كتبها للآخرين ليتغنوا بها. ومع أن شعوره الشخصي بها كان ضعيفاً، فقد ترك برهاناً باقياً للمحبة الفادية في كنزه المكون من ترانيم كثيرة.

فنان مثل كوبر لا يُبدع لكي يكتسب مجداً في المستقبل، بل لكي يُعبِّرَ عن كل من الألم، والحمد. ونحن الذين أتينا بعده نعطي المجد لأنه من خلال معاناة الفنان تأتي الحقيقة التي تتحدث إلى أرواحنا. حيث يمكن لنعمة الله أن تُحدث هذا التغيير فينا، مستخدمة فشل الحاضر كوسيلة لتشكلنا على صورة الله. لقد عبَّرَ كوبر عن ذلك:

أحياناً يدهش االنور
المؤمن وهو يتغنى
إنه الرب الذي يرتفع
والشفاء في أجنحته
وعندما تختفي التعزية
يمنح أرواحنا ثانية
فصلاً من النور الساطع
ليفرحنا بعد المطر

قال يسوع: "تَعْلِيمِي لَيْسَ لِي بَلْ لِلَّذِي أَرْسَلَنِي. إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعْرِفُ التَّعْلِيمَ هَلْ هُوَ مِنَ اللهِ أَمْ أَتَكَلَّمُ أَنَا مِنْ نَفْسِي". لاحظ التتابع: يختار أن يفعل مشيئة الله، ثم تأتي الثقة بعد ذلك. ويقدم يسوع رحلة الإيمان كرحلة شخصية، بدأت في عدم تأكد وثقة ضعيفة.

يتبع بعض الأطباء النفسيين مدرسة العلاج النفسي السلوكي، وذلك بتشجيع المريض لأن يسلك "كما لو أن" حالة معينة حقيقية بغض النظر عن عدم معقوليتها. وتقول هذه المدرسة أننا نغير السلوك ليس بالتنقيب في الماضي، ولا بمحاولة تنظيم الدوافع مع التصرفات، ولكن بأن نتصرف "كما لو أن" التغيير يجب أن يحدث. فمن السهل أن تحول سلوكك إلى مشاعر من أن تحول شعورك إلى سلوك.

إذا أردت أن تحتفظ بزواجك، ولكنك لست متأكداً من حبك لزوجتك، فتصرف أولاً كما لو أنك تحبها: إدهشها، وأظهر مشاعر الحب لها، قدم لها الهدايا، واستمع إليها. قد تجد أن مشاعر الحب تتجسد وأنت تقوم بهذا الدور. وإذا أردت أن تغفر لوالدك ولكنك تجد نفسك غير قادر على ذلك، أسلك كما لو أنك سامحته فعلاً. أنطق بهذه الكلمات: "إنني أغفر لك"، أو "إنني أحبك"، حتى وإن لم تكن مقتنعاً بذلك. وغالباً فإن تغيير السلوك من جانب يحدث تغييراً ملحوظاً من الجانب الآخر.

شيء من هذا القبيل يحدث في علاقتي مع الله. فأود أن تنبع طاعتي من رغبة ذاتية في أن أسعد قلب الله، ولكن؛ للأسف لا يحدث ذلك. بالنسبة لي، في بعض الأحيان، تتكون حياة الإيمان من "العمل كما لو أن" كل شيء حقيقي. وأدعي أن الله يحبني بلا حدود، وهذه الإرادة الصالحة تهزم الشر، وكل عداوة يمكن علاجها مع أنني غير متأكد من ذلك، وكلها مجرد تشجيع يدفعني في الطريق. أتصرف كما لو أن الله أب محب، وأعامل جيراني كما لو أنهم حقيقة يحملون صورة الله، وأغفر لمن أخطأوا إليّ كما لو أن الله سامحني أنا أولاً.

يجب أن أعوّل على هذا الأسلوب بسبب الاختلاف الأساسي بين إقامة علاقة مع إنسان، وإقامة علاقة مع الله. فأنا أذهب لمحل بقالة، أو أقوم بزيارة أحد جيراني الذي لم أشاهده منذ عدة أشهر. وأقول لنفسي، إن "جودي" طلقت متذكراً أننا لم نسمع عنها شيئاً منذ فترة. ورؤيتي لجودي يدفعني للتصرف، فأسأل عن حياتها، وأطفالها، وربما أدعوها للكنيسة. وأقول لزوجتي: "يجب أن نزور جودي وأطفالها".

أما مع الله فالأمر مختلف، فأنا لا "أرى" الله. ونادراً ما أجتاز في أمور مرئية تذكرني بالله ما لم أنظره. وعملية النظر، والإصرار على ذلك، تجعل الإتصال ممكناً. لهذه الأسباب، تُصرّ المسيحية دائماً على أن الثقة، والطاعة، تأتي أولاً ثم يلي ذلك المعرفة.

لأجل هذ الإختلاف أحتفظ بإلتزامي الروحي بغض النظر عن الشعور. وأفعل هذا لأجل سبب رئيسي واحد: أريد أن أعرف الله. ولكي نناضل لكي تكون لنا علاقة معه يجب أن نقبل شروط الله، وليس شروطنا. المرشد الروحي المشهور فينلون Fenelon نصح تلاميذه قائلاً: أنه في الأوقات الصعبة "قد تكون عملية الصلاة صعبة، وحضور الله أقل وضوحاً وتأكيداً، والواجبات الخارجية قد تكون صعبة وغير مقبولة، ولكن الثقة التي تلي كل هذا هي ثقة عظيمة، وهذا أمر يُرضي الرب". يجب أن نطيع أولاً، ثم نجد مصدر تعاليم الرب يسوع.

أنبياء العهد القديم كانوا صادقين عندما وضعوا الشروط المُسبقة لمعرفة الله، مثلما قال ميخا: "قَدْ أَخْبَرَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ وَمَاذَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ إِلاَّ أَنْ تَصْنَعَ الْحَقَّ وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعاً مَعَ إِلَهِكَ". وبنفس الأسلوب تخبرنا رسائل العهد الجديد أن المحبة لله تعني أن نسلك بمحبة نحو الله، ونقوي الشركة معه، ونتقدم نحو النمو. لست مضطراً لأن أعرف الله ثم أفعل إرادته، فهذا خطأ، بل يجب أن أعرفه أولاً ثم أفعل إرادته. وأدخل في علاقة حيوية معه، وهذا يعني قضاء وقت مع الله، وأن أهتم بشعب الله الذي هو نفسه يهتم بهم أيضاً، وأن أتبع وصاياه، سواء كنت أحب ذلك تلقائياً أم لا.

" كيف نحاول أن نبدأ معرفة من أنت إن لم نبدأ أن نكون جزءاً منك" هكذا سأل توماس ميرتون، ثم أضاف قائلاً:

> "إننا نتلقى نور معرفة الله على قدر ما نُعطي أنفسنا أكثر فأكثر لله بالتسليم المتواضع والمحبة. نحن لا نرى أولاً ثم نعمل، بل نعمل أولاً ثم نرى... لهذا السبب فالإنسان الذي ينتظر لكي يرى بوضوح أولاً، قبل أن يؤمن، لا يبدأ رحلته مع الله مطلقاً".

كيف يمكننا أن نُطيع قبل أن نتأكد عندما تهاجمنا رياح الشك؟ لقد توصلت إلى النتيجة بأن الإيمان يتطلب طاعة بدون معرفة كاملة.

فمثل إبراهيم، وأيوب، فإنني أقبل أنه هناك الكثير الذي يفوق فهمي المحدود، ومع ذلك فإنني أختار الثقة في الله، وأقبل بخضوع مكانتي كمخلوق تعتمد حياته على رحمة الله.

واجه معظمنا تجارب أقل من تلك التي تحملّها أيوب وإبراهيم، ولكنها تجارب على أية حال. ويُختبر الإيمان عندما يفْتُر إحساسنا بوجود الله، أو عندما تجعلنا الأمور العادية في الحياة نتساءل ما إذا كانت إستجاباتنا شيئاً مهماً. وعندئذ نتساءل: "ماذا يمكن للشخص أن يفعل؟.. ما هو الفرق الذي سيحدثه مجهودي الضعيف؟

شاهدت مرة مسلسلات تلفزيونية مشهورة بُنيت على لقاءات مع أناس أحياء معاصرين للحرب العالمية الثانية. حاول هؤلاء الجنود أن يتذكروا كيف كانوا يقضون يوماً خاصاً. أحدهم كان يقضي طول اليوم في خندقه، ومرت أمامه دبابة ألمانية فضربها. آخرون كانوا يلعبون الورق لكي يقضوا على الوقت، وقلة أخرى شاركت في حرب ضروس. وبالنسبة لمعظم الباقين كان اليوم يمر مثل باقي الأيام، بالنسبة لجنود على الجبهة. وفيما بعد عرفوا أنهم شاركوا في أكبر معركة، وهي معركة البلغار. لم أشعر بأي حماس نحوهم في ذلك الوقت، لأن ولا واحد منهم كانت لديه صورة عما يجري في أي مكان.

إن الإنتصارات العظيمة تتحقق عندما يُنفذ الناس العاديون واجباتهم المحددة. والشخص المخلص لا يناقش كل يوم ما إذا كان لديه رغبة وإستعداد لإتباع الأوامر، أو يتحمل عبء وظيفة شاقة. نحن نمارس الإيمان عندما نستجيب للعمل الذي أمامنا، لأننا نستطيع السيطرة على أفعالنا فقط في اللحظة الراهنة التي نعيشها. أحياناً كنت أتمنى من الذين كتبوا الأناجيل لو أنهم تعرضوا بالتفصيل لحياة يسوع قبل بداية خدمته، فالجزء الأكبر من حياته قضاه كنجار في قرية. هل كان يسأل عن قيمة الوقت الذي كان

يقضيه في هذا العمل المتكرر؟

رأى أغناطيوس دي ليولا، مؤسس جماعة اليسوعيين، أن معظم أتباعه يجتازون فترات من العبث. وبدا إيمانهم يفتر، وأخذوا يتساءلون عن جدوى ما يفعلونه، لأنهم شعروا بأنهم بلا فائدة. ووضع أغناطيوس سلسلة من الإختبارات للمساعدة على تشخيص حالة اليأس الروحي الذي إنتابهم. وفي كل مرة يصف نفس العلاج: "في وقت الأسى والحزن لا تُحدث أي تغيير، ولكن لتظل ثابتاً وأميناً في قراراتك، وتصميمك الذي كنت عليه في اليوم الذي يسبق حزنك، أو اليوم الذي كنت تشعر فيه بإرتياح". ونصح بالنضال في المعارك الروحية بنفس الأسلحة القوية لكي تصمد في مثل هذه الأوقات: بالصلاة والتأمل، واختبار النفس، والتوبة. فالطاعة فقط هي التي تخرجك من هذه الحالة.

الشخص الذي تربى في بيت مسيحي وتشبع بالإيمان مع القيم العائلية الأخرى من آباء موثوق فيهم سوف يواجه، يوماً ما، محنة تختبر مدى أمانته. قد يكون له اختبارات روحية، أو يشعر بقربه من لله. وبدون أي تحذير، قد يختفي هذ الإساس، ويشعر بأنه لا يوجد شيء سوى الشك في كل ما سبق، ويفقد الإيمان كل تأييد للمشاعر، ويتساءل ما إذا كان يعيش في وهم. ففي مثل هذه اللحظة قد يشعر بالغباء إذا تمسك بالإيمان. ومع ذلك فنصيحة إغناطيوس هي أن هذا هو الوقت لكي "نقف فيه بحزم وصمود". يمكن للإيمان أن يتجاوز فترات الظلمة، ولكن فقط إذا تعلقنا وتمسكنا به في وسط هذه الظروف الحالكة.

كثيراً ما تزعجني الشكوك، وأتساءل عن المعارك في الكتاب المقدس، وعن المعاناة والظلم، وعن الفجوة الكبيرة بين المُثل وحقيقة الحياة المسيحية. وفي هذه الأوقات أتجه نحو فكرة: "إعمل كما لو أن" الأمر حقيقة معتمداً على عادة التصديق، مصلياً من أجل تأكيد أن الإيمان آتٍ رغم أنه لم يحمِني من عودة الشك مرة أخرى.

وكعازف على البيانو، أجد أن كفاءتي تعتمد على التدريب المتواصل. وأستمتع كثيراً بممارسة مختلف الألحان والنغمات. ومع ذلك؛ فعندما أقوم بهذا أجد أن ما أُمارسه كما لو كان عملاً مفروضاً عليّ، وليس أمراً يجلب لي السرور. فأنا لا أعزف السلم الموسيقي لمجرد الممارسة، ولكن لكي يمكنني من أن أعزف ما هو أصعب، ولذلك يجب عليّ أولاً أن أمارس ما هو عادي.



يقول أندرو جريلي: "إذا أراد أحد أن يتخلص من الشك، والتوتر، والإرتباك، والفوضى في حياته، فلا يجب أن يتشكك في العودة إلى الرب". لقد تعلمت أن العلاقة مع الله تجلب النظام، والثقة، والتعقل الهاديء للحياة. ولكنني إكتشفت أن حياة الإيمان تتطلب الكثير من الجهد الحركي.

عبر تاريخ الكنيسة، أظهر القادة المسيحيون ميلاً للتقليل من شأن كل شيء كالسلوك والتعاليم، وجعل الأمور مُطلقة، والتي يمكن إجابتها في إختبارات زائفة. إنني لا أجد مثل هذا الإتجاه في الكتاب المقدس. وبدلاً من ذلك فإنني أجد الغموض والشك الذي يميز أية علاقة، وخاصة العلاقة بين إله كامل، وكائنات بشرية معرضة للخطأ.

قال ج. ك. تشيسترتون G. K. Chesterton، في عبارة مشهورة، وقد أصابت حجر الزاوية في لاهوته: " لقد تغلبت المسيحية على صعوبة الربط بين الأمور شديدة التعارض، بإبقائها معاً، وبنفس مستوى الشدة والقوة". ومعظم الهرطقات كان سببها تغليب تضاد على حساب آخر.

الكنيسة التي لا ترتاح للأمور المتناقضة تميل إلى إتجاه واحد من الإثنين، وعادة ما ينتج عن ذلك نتائج مدمرة. إقرأ ما كتبه اللاهوتيون في القرون الأولى عندما حاولوا أن يفهموا من هو الرب يسوع، مركز إيماننا، وهو إله كامل وإنسان كامل. ثم إقرأ ما

كتبه اللاهوتيون في عصر الإصلاح عندما اكتشفوا عظمة المعاني التي تتضمنها سيادة وسلطان الله ثم حاولوا أن يُبعدوا أتباعهم عن أن يثقوا في القضاء والقدر. إقرأ اللاهوتيين اليوم وهم يتناقشون في الأمور المعقدة لسفر الرؤيا: كتاب مقدس يُعبّر عن كلمة الله لنا كتبها أفراد مختلفي الذكاء والشخصية وأسلوب الكتابة.

أولون يكونون أخرين، إربح حياتك بأن تخسرها، لا يهم إي إنجاز بعيداً عن المحبة، تمموا خلاصكم بخوف ورعدة لأن الله هو العامل فيكم، إدخل ملكوت الله كطفل، خادم القوم سيدهم، قدِّرَ قيمة نفسك ليس بما يقوله الناس عنك، ولكن بما تفكر أنت عنهم، حيثما إزدادت الخطية كثرت النعمة جداً، لأننا خلصنا بالإيمان ولكن إيمان بدون أعمال ميت، كل هذه المباديء العميقة للحياة تظهر في العهد الجديد، ولا واحدة منها تخضع لسياق المنطق. "الحق ليس في الوسط، ولا على الطرف الآخر، إنه في كلا الطرفين" هذا ما قاله القس البريطاني شارلز سيمون. كنت قد أظهرت بعض المعارضة في البداية ولكنني وافقت في النهاية.

تأمل في مكونات الإنسان، في داخل كل إنسانٍ على الأرض يمكننا أن نجد صورة الله، ومع ذلك ففي داخله أيضاً يوجد وحش. وأي نظام ديني أو سياسي لا يعتقد في ذلك سوف يفشل. قال أحد الحاخامات : "يجب على الإنسان أن يحمل في جيبه حجرين، يحفر على أحدهما عبارة "أنا تراب ورماد"، وعلى الآخر عبارة "من أجلي خُلقت الكلمة" وعليه أن يستخدم أي منهما بحسب الحاجة.

يظهر الجهد الحركي في حياتنا اليومية ليكشف عن حقيقة ما بداخل قلوبنا. حظي كتاب سكوت بيك والذي عنوانه "الطريق الأقل إجتيازاً The Road less Travelled" قدراً كبيراً من الأعجاب، وكان أكثر الكتب مبيعاً بحسب إستفتاء مجلة نيويورك تايمز، وأعتقد أن سر نجاحه قد ظهر من أول جملة قرأتها: "الحياة صعبة"، وكان يتحدث عن أسلوب حل المشكلات وخاصة بين المؤمنين.

عندما تضع سيدة طفلاً معاقاً فإن هذا الكتاب سيساعدها في التغلب

على آلامها. الفقر والظلم لا يختفيان بالرغم من برامجنا العظيمة للقضاء عليها. الأولاد في الأحياء الفقير يقتلون زملاءهم بالمدرسة. المشاكل الزوجية تظل بلا حل. الموت سوف يشملنا جميعاً في النهاية. وأي إيمان لا يوضح لي كل هذه المتناقضات لا يستقر فينا طويلاً. ولأننا بشر فنحن ضعاف، ولسنا ملائكة، فنحن نصاب بالسرطان، ونفقد وظائفنا ونجوع. أنا أحتاج إلى إيمان يسندني في وسط المعاناة، ويعلمني الحق أثناء الحمد والتسبيح.

لقد تعودت على الإيمان بأن المسيحية تحل المشكلات، وتسهل الحياة. وبمرورِ الأيام اكتشفت أن إيماني عقّدَ الحياة. كمؤمن لا يمكنني أن أهمل البيئة، أو التشرد، أوالفقر، أو العنصرية والإضطهاد الديني، أو الظلم والعنف. الله لم يعطني حق الاختيار هذا.

يقول إلتون تروبلود فيلسوف طائفة الكويكرز: "في كثير من الجوانب يضع الإنجيل أثقالاً على الناس بدلاً من رفعها عنهم". ويُذكر أن جون ولمان وهو ينتمي لنفس الطائفة، أنه عاش حياة مريحة إلى أن بكّته الله على جريمة شراء وبيع العبيد فمنحهم الحرية، وإرتدى ملابس غير مصبوغة لكي يتجنب إستخدام الصباغة التي ينتجها العبيد، وسافر على أقدامه مع العبيد الذين سُمح لهم بركوب العربات، ورفض أن يأكل السكر أو أن يشرب الشراب المسكر أو أية منتجات يشترك في إنتاجها العبيد. كل ذلك حدث أثناء "الثورة الهادئة" عام ١٧٨٧م. والتي فيها لم يمتلك أمريكي واحد عبداً. كتب تروبلود : "إننا نتحدث عن أن المسيحية تحل المشاكل، ولدينا شعور بذلك. وبالرغم من ذلك، فقبل أن تفعل هذا بوقت طويل فهي تزيد من عدد وكثافة المشاكل. وكلما إزدد إيماننا، كلما إزدادت أسئلتنا العقلية... إذا أراد إنسان ما أن يتجنب التأثير المزعج لهذه التناقضات، فإن أفضل نصيحة هي أن يترك الإيمان المسيحي".

تقع هذه المتناقضات في قلب الإنجيل. فقد قدم لنا المسيح الراحة

يقول: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم"، ولكن هذه الراحة تشتمل على حمل جديد، حمله هو: "إحملوا نيري عليكم، وتعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم، لأن نيري هين وحملي خفيف".

قدم لنا المسيح السلام الممزوج بمعاناة جديدة، وراحة تتطلب أعمالاً جديدة: "وسلام الله الذي يفوق كل عقل" هذا السلام الموعود به في العهد الجديد هو سلام وسط الحرب وهدوء وسط الخوف، وثقة وسط الشك. فعندما تعيش كغريب في أرض غريبة، مواطن لمملكة سرية، ما هو نوع السلام الذي يجب أن تتوقعه؟ في هذا العالم يكون القلق وليس الراحة هو علامة صحية. ويستخدم الكتاب كلمة " يتفكر" عندما يتعرض المؤمن لهذا النوع من التوتر. وعندما واجهت مريم أم يسوع أموراً لم تتمكن من فهمها، يقول الكتاب أنها "تفكرت" بها في روحها محتملة هذا التوتر والجهد، مفضلة ذلك عن التخلص منه.

كان حماي معلماً للكتاب طوال حياته، متبعاً مباديء كالفن، وقد وجد في أواخر عمره أن إيمانه قد تعب. لازم السرير بسبب مرض في الأعصاب، قد حرمه ذلك من معظم الأنشطة التي كانت تُدخل السرور على قلبه. لقد عانت إبنته بشدة التي بلغت التاسعة والثلاثين من العمر من مرض السكر، وزادت الضغوط المالية. وفي أثناء محنته كتب رسالة في عيد الميلاد لبعض أفراد أسرته. وكثير من الأمور التي علمها مرة للآخرين شعر بعدم إرتياح نحوها الآن. ما الذي يستطيع أن يصدقه بتأكيد؟ وتوصل إلى أمور ثلاثة: "الحياة صعبة، الله رحيم، السماء مؤكدة". وهذه هي الأمور التي وثق فيها واعتمد عليها. وعندما توفيت إبنته بسبب مرض السكر في الأسبوع التالي تعلّق بهذه الحقائق بأكثر قوة.



ذكر بولس الرسول ثلاثة فضائل مسيحية: الإيمان، والرجاء،

والمحبة (١كو ١٣) في هذا الإصحاح العظيم عن المحبة، وكل واحد منها به نوع من التناقض.

تتطلب المحبة رعاية للناس الذين لا نفضل الإهتمام بهم. وفي كلمات بولس نجد معنى الصبر في المحبة، فالمحبة تتأنى، وتصبر ولا تحسد، ولا تطلب ما لنفسها، ولا تحتد، ولا تظن السوء، وتصدق كل شيء وترجو كل شيء. فمثل هذا البرنامج قد يبدو معقولاً في كوكب آخر تديره قوانين مختلفة عنا، وليس في كوكبنا حيث يسلك الناس بالظلم والوضاعة والثأر. وبطبيعتنا البشرية نظن السوء، ونقول عن الخطأ إنه صحيح ونطالب بحقوقنا، ولا نحب.

إن الرجاء يمنحنا القوة لكي ننظر إلى ما وراء الظروف وإلا يصيبنا اليأس. وهو يحفظ الرهائن أحياء عندما لا يمتلكون الدليل المعقول، ولا يهتم بهم أحد في ورطتهم. وهو الذي يُغري الفلاح لأن يزرع في الربيع بعد ثلاث سنوات عجاف. "الرجاء الذي يُرى ليس برجاء على الإطلاق"، هذا ما قاله بولس لأهل رومية. لقد ذكر بعض الأمور الطيبة التي يمكن أن نجنيها من الضيقات: "الضيق يُنشيء صبراً، والصبر تزكية، والتزكية رجاء"، ويضع بولس الرجاء في النهاية، وذلك بدلاً من وضعه أولاً كما كنت أتوقع أنا، لأنه الطاقة التي تحفظ الإنسان مستمراً في الحياة. إن الرجاء ينبع من المعاناة، وهو من ثمار الإخلاص والأمانة.

الإيمان يعني دائماً الثقة بما لا يمكن إثباته، وتصديق ما لا يمكن أن نتأكد منه. ومن يحيا بالإيمان يجب أن يتقدم نحو ما لا يمكن إثباته، ويثق مقدماً في ما قد يبدو مناقضاً للعقل. كتب "دينيس

> "لا شيء يستحق القيام به يمكننا أن ننجزه في فترة حياتنا، ولهذا يجب أن نخلص بالرجاء. ولا شيء حق، وجميل، وخير بإمكانه أن يعطينا معنىً كاملاً لأي نص تاريخي، لهذا يجب أن نخلص بالإيمان. ولا شيء مما نفعله، مهما كان فاضلاً، يمكن إنجازه بمفرده، ولهذا يجب أن نخلص بالمحبة"
>
> **ريتشارد نيبهور**

كونفنجتون": "إن الغموض أو السر ليس غياباً للمعنى، ولكنه وجود معانٍ أكثر من أن نفهمها".

لعدة قرون بيعت كل سنة نسخ أكثر من أي كتاب آخر ما عدا الكتاب المقدس من كتاب "سياحة المسيحي". وإندهشت عندما قرأت ما كتبه يوحنا بنيان عن أن الحياة المسيحية تختلف عن كل ما قرأته في الكتب المسيحية اليوم. ففي بضعة صفحات يرتكب المسيحي بعض الأخطاء الغبية التي كادت أن تؤدي بحياته. فهو يسير في طرق خاطئة، كما أن صديقه الوحيد يغرق في حمأة اليأس. ثم يستسلم المسيحي للإغراءات العالمية، ويفكر في الإنتحار. وفي تلك اللحظة يأتيه الرجاء ويؤكد له: "إفرح يا أخي لأنني أشعر بقرب النهاية...".

وبدأ يتصرف بشجاعة الإيمان وواصل رحلته، وفي النهاية وصل إلى المدينة السماوية. لقد كان هذا الكتاب مرشداً قيماً لملايين المؤمنين عبر سنوات طويلة. كما أن كُتب شيري Cheery "حل المشكلات" تقدم خريطة أفضل لطريقتنا اليوم، ولكنني أتساءل: ما الذي فقدناه عبر طريقنا.



الجزء الثالث





التواصل مع غير المنظور

٨ - معرفة الله أو أي شخص آخر

"إنه لشئ مبهم أن الله يجب أن يكون موجوداً، وشئ مبهم أيضاً أن لا يكون موجوداً، وأن الروح يجب أن ترتبط بالجسد وأن لا يكون لنا روح، وأن العالم يجب أن يُخلق وأن لا يُخلق"

بلاسي باسكال



في إحدى الليالي سهرت حتى الثانية صباحاً مع صديقين يحكيان لي عن متاعب علاقتهما مع الله. أخبرني ستانلي كيف أنه قضى حياته في صراع لكي يؤمن ويثق أن الله يهتم ويعتني به. وقاطعت "جودي" الكلام في عدم صبر وقالت: "لا يمكنني أن أخبرك كم عدد المرات التي حاولت فيها أن أتواصل مع الله. وكل ما حصلت عليه بعد هذه المجهودات هو شعور بارد وسكون مستهجن".

ولأنني أعرف هؤلاء الأصدقاء جيداً، لم أتمكن من أن أمنع نفسي من الظن بأنهما ربما يحاولان أن يعطونا فكرة عن الخلل في علاقاتهما الأسرية مع الله. فقد فقدت جودي والدتها وهي في سن صغيرة، وبالرغم من أن والدها كان يعمل بكل اجتهاد لكي يربي الثلاث بنات في بيت مستقر، ولكنه لم يمنحهم الحب والدفء

الكافي. فكانت تنظر إليه كالمدرس أو المدرب الذي سيحكم غلى أدائها. أما عن الله، فقالت جودي أنها سمعت جملة واحدة في جنازة والدتها: "إن الله أخذها لأنه يحتاج إليها أكثر منكم". وهذه الجملة تسببت في إقامة حاجز في علاقتها مع الله ومازالت تحاول أن تتغلب عليه.

أما ستانلي فقد جاء من عائلة كبيرة تتكون من سبعة أفراد وتمتعت بالحب والدفء. ولأن ترتيبه كان الرابع في الأسرة وكان توأماً، كان لديه الشعور بأنه مهمل من الأسرة. كان أبوه يخبره باستمرار "لو اختفيت فجأة عن الأسرة فسوف نتنبه إلى ذلك ربما بعد أسبوع من غيابك". وكان يقول ذلك بابتسامة ساخرة.

هذه الليلة ذكرّتني بأن كل واحد منا له صورة الله ولكنها شُوهت بطريقة ما- والله يفوق قدرتنا على أن نتصوره. وترتبط خبراتنا عن الأسرة والكنيسة بلمحات متفرقة نأخذها من الأدب والأفلام لكي نرسم صورة عن الله في أذهاننا. كيف إذن يمكننا أن نعرف الله الحقيقي؟

إن معرفة الله غير المنظور لها علاقة مشتركة مع معرفة أي شخص حي آخر. وكلما زادت معرفتنا عن كيفية عمل المخ كلما اتضح لنا أن المعرفة- لله وللناس ولأي شئ آخر- تتضمن نوعاً من الشك وتتطلب عمل الإيمان.

وتحدث عملية المعرفة في المخ، أكثر أجزاء الجسم انعزالاً. فالمخ لا يرى حتى وإن عرّضه الجراح للضوء. والمخ لا يسمع وهو محصن ضد الصدمات حتى أن خلايا المخ يمكنها أن تعرف فقط الأصوات المرتفعة مثل الطائرة النفاثة التي تسبب اهتزازها. وليس لدى المخ خلايا تستطيع أن تلمس أو تتألم: ويجب على جراح الأعصاب أن يعطي مخدراً حتى يتمكن من قطع الجلد والجمجمة، وبذلك يمكن أن يجري عمليته دون إيذاء المريض. ودرجة حرارة المخ لا تتغير كثيراً فيما عدا درجات قليلة ولهذا فهو لا يشعر بالحرارة ولا بالبرودة.

ولأن المخ معزول، فكل شئ يكوّن معرفتي عن العالم يتناقص حتى يصل إلى إشارات كهربية، مثل النقط والشُرط التي كانت في نظام التلغراف Morse، تسجل من ملايين الأعصاب الحساسة. فكّر في الصوت الذي يأتيك عبر التليفون. شخص يتحدث على الطرف الآخر ويحوّل الجهاز الالكتروني الموجات الصوتية إلى إشارات كهربية التي تصل إلى محطات معينة تُعيد تجميعها في تليفونك في صورة اهتزازات تُنتج صوتاً مسموعاً. وإذا استخدم من يطلبك التليفون المحمول (الموبايل) فإن الصوت يُترجم إلى نظام رقمي وينتقل عبر الهواء، مثل الإرسال الإذاعي، قبل دخوله إلى الموبايل الخاص بك. ومع ذلك فإنك تسمع صوت والدتك كما لو أنه حقيقة. وبالمثل، فإن المخ المعزول يعتمد على الرسائل بنظام رقمي من أعضائه الحساسة.

ويدق جرس الباب وأسرع لكي أفتح. ويحضر لي توم السائق الخاص بالبريد، طرداً فأشكره وأوقع على الإيصال وأعود لمكتبي وأواصل عملي. والخلايا التي تتلقى الأصوات في أذني تتبين ترددات جرس الباب ثم تترجم الصوت الأعلى الصادر من توم.

وعين الإنسان التي بها ١٣٠ مليون خلية للاستقبال تسجل فوراً الشكل والصفة المميزة ولون شفاه توم وحاجبيه وأنفه وشعره. ولن أكون مضطراً لتجميع كلٍ هذه المعلومات لأن المخ يقوم بكل ذلك دون أي مجهود حاملاً التقرير من خلايا العين إلى بنك الذاكرة الذي به كل صور الوجوه التي أعرفها ويتعرف على توم في جزء من الثانية.

إن شخصاً يعاني من عمى الألوان لا يمكنه ملاحظة عيون توم الزرقاء، كما أن الأصم لا يعرف صوته. وفي الحقيقة فإن لكل منا استثناءات قد تسئ توصيل المعلومات إلى المخ وقد تعطي لأي شخص فكرة مختلفة عن العالم. ومع ذلك فإن للمخ قدرة لملء الفراغات وخلق الشعور بالحقيقة. فالمؤلف الموسيقي العظيم بيتهوفن كان يتمكن من سماع سيمفونية كاملة في رأسه بالرغم

من أنه كان أصم تماماً.

لقد ذكرت كل هذه الخلفية التشريحية لكي أوضح أن معرفتي بالآخرين، مثل توم سائق البريد، تعتمد أساساً على عمل الإيمان. وبالرغم من أن مخي قد اختزن صورة أصدقائي ومعارفي، فإنني أدرك أن تلك الصورة تتطلب قدراً كبيراً من الثقة. فأثق أن توم لا يرتدي قناعاً أو يضع شارباً مستعاراً وأنه يعمل سائقاً بهيئة البريد وليس لصاً أتى ليسرق منزلي. وأعتقد أنني أعرفه، ولكن كيف أتأكد من ذلك؟ ربما يكون لتوم توأماً يشارك أخيه في الوظيفة.

ومرات كثيرة أدهشني الناس وخدعوني. فعرفت مرة أن إحدى أعز صديقاتي في حياتها الخاصة تُدمن الجنس وأخرى مارس والدها الجنس معها لمدة ١٥ عاماً. واعتقدت بأنني أعرف هؤلاء الصديقات فقط لأكتشف بأنني أفتقد معلومات هامة عنهم. فكل العلاقات الإنسانية موجودة على منصة الشك التي تحتفظ بصفة الغموض التي للآخرين. وفي معرفتنا لبعضنا البعض، كلنا لنا عيوبنا الخاصة.

وبالرغم من ذلك، فإنني أثق أن هؤلاء الأصدقاء يعيشون كأفراد حياة عادية مثلنا. هل يمكنني أن أتأكد من ذلك؟ إن مشكلة "العقول الأخرى" أنها تمتلك لغزاً كبيراً شغل الفلاسفة لعدة سنوات. أنا أعلم أنني موجود، وأعتقد بأنني أعرف عقلي. ولكن كيف يمكنني أن أعرف عقلك؟ فمثلاً، عندما تغلق باب السيارة على إصبعك يحدث شئ في داخلك يشابه ما أختبره أنا عندما أغلق باب السيارة على إصبعي. ومع ذلك فلا يمكنني أن أعرف ذلك بالتأكيد لأنني لا أستطيع أن أدخل داخل عقلك، وبالرغم من ذلك فأنا أصدق كلامك عندما تحكي لي عن مدى الألم الذي شعرت به.

كيف تعرف أنت بأنني موجود؟ أنت تقرأ الكلمات التي أكتبها على صفحات الكتاب ولكن ربما يكون اسم "فيليب يانسي" اسم مستعار وليس الحقيقي. وإذا حاولت الاتصال بي عبر الإنترنت، فلن يمكنك معرفة ما إذا كنت أنا الذي أجيب أو اسم ملفق على الشاشة. بالنسبة

لي أنا ضمير المتكلم "أنا" وبالنسبة لأي شخص آخر أنا ضمير المخاطب "أنت" وهذا الفرق يتسبب في إحداث شك شديد.

إن معظم الناس في الواقع لا يتساءلون ما إذا كانت العقول أو الأشخاص الآخرين موجودين. نحن نصدق بدون أي تفكير. ومع ذلك فإن العقول الفردية تكوّن صوراً مختلفة عن نفس الشخص. ولنأخذ مثلاً كتّاب الأناجيل الأربعة، كل منهم كتب عن جوانب مختلفة من شخصية وحياة يسوع. وعند تفكيرهم فيما عرفوه عنه تواردت إلى أذهانهم كلمات ومناظر مختلفة. ومثل آخر عن التلاميذ الإثنى عشر: كلهم تبعوا يسوع لمدة ثلاث سنوات ولكن ما أكثر الفرق الذي توصل إليه كل من يهوذا ويوحنا عن الرب يسوع. وفيما بعد اعتقد شاول الطرسوسي أن لديه صورة حقيقة عن يسوع حتى قابله وهو في طريقه إلى دمشق فغير فكره واتجاهات حياته. إن "معرفة" شخص آخر عملية قد يشوبها نوع من الخداع وتتضمن تقديراً تقريبياً ونوعاً من الغموض.



وعملية التعرف على الآخرين والتواصل معهم قد تُلقي ضوءاً على كيفية التعرف على الله. في المقام الأول، إنني أدرك أن التعرف على "عقول الآخرين" سواء كانوا أشخاصاً أم الله، فإن ذلك يحتاج دائماً إلى عمل الإيمان. ويطبق هذه الحقيقة "ألفين بلنتيفا"، وهو فيلسوف معاصر، على سؤال وجود الله. فيقول: إنه لا يمكنني التأكد من وجود الله ولا من إثبات ذلك عقلياً. كما أنني غير متأكد من وجود أي شخص آخر، فقد يكونون جميعاً من نتاج خيالي. وأثق بأنني لست الوحيد في هذا الكون، ولكن ما أنني لا أستطيع الدخول لعقل أي شخص آخر إذن يجب أن أقبل هذا الاعتقاد بهذا التشابه الجزئي أو بالإيمان. ويذهب بلنتيفا بعيداً ويقول: بعد مجادلات فلسفية كثيرة، بأنه لدينا الكثير من الأدلة لنؤمن بالله مثلما لدينا من أدلة لنثق في الآخرين.

وبالإضافة إلى ذلك، فيجب أن أفترض بأن حواسي لن يمكنها أن تكوّن صورة كاملة عن شخص آخر. وبإمكاني أن أعرف الكثير عنك من خلال مراقبتي لك واستماعي إليك ولمسي إياك. ومع ذلك فسيظل جزءاً منك متعذراً معرفته، فالشخص الذي داخل جسدك "حقيقتك" وجوهرك. وفهمت هذا بكل وضوح في الناس المعاقين الذين فقدوا الصلة القريبة والوثيقة بين العقل والجسم.

أعرف صديقة رائعة مصابة بشلل دماغي لعدة سنوات ووُضعت في منزل مخصص للمعاقين ذهنياً. وذراعاها ترتعشان بسبب الشلل التشنجي، ولا تستطيع المشي، ويصدر عنها بعض الأصوات غير المفهومة بدلاً من الكلمات. ومعظم من التقوا بها- حتى من أفراد أسرتها - قالوا إنها مُعاقة. وفي الوقت المناسب أدرك المتخصصون أن كارولين لديها مخ سليم تماماً في داخل هذا الجسد المعتل. ونقلوها إلى مكان أفضل، ووصلت إلى المدرسة الثانوية ثم إلى الجامعة. وأخيراً أصبحت كاتبة. وفي إحدى المرات، وهي في الكلية، قرأت لها إحدى صديقاتها عظة مكتوبة بكنيسة الكلية. وجلس الطلبة في هدوء كامل يستمعون لكلمات كارولين البليغة وهي جالسة على الكرسي المتحرك على المنبر بجوار صديقتها التي قرأت عظتها بدلاً عنها. واختارت للعظة الآية الموجودة في ٢كورنثوس "لنا هذا الكنز في أواني خزفية". الجميع كانوا قد رأوا هذا الكرسي المتحرك داخل مباني الجامعة والبعض استهزئ بها، وقليلون هم الذين حاولوا أن يعرفوا تفوقها العقلي داخل جسد كارولين المريض.

وصديق آخر يُدعى دون، يعاني من مرض في الأعصاب. عرفت "دون" كرجل رياضي قوي يدير مزرعة لتربية الخيول، كما يشارك في سباق القوارب. وبالرغم من ذلك، ففي المرة الأخيرة التي زرته فيها وجدته جالساً على كرسي متحرك. ومع أنه كان قادراً على الكلام فإن أعصابه التي تتحكم في الصوت واللغة لم تتمشى مع تعليماته العقلية. وكان يتعثر في الكلام. وفضّل أن يكتب أفكاره على كمبيوتر صغير يحمله على رجليه، والذي يستطيع أن يتكلم نيابة عنه. وأي شخص يمر بالغرفة سوف يجد رجلاً جالساً

في هدوء، لا يتكلم وتعلو وجهه ابتسامة رقيقة. ولكن الكلمات التي كتبها وينطق بها الكمبيوتر والرسائل الالكترونية التي تصلني منه حتى هذا اليوم، تبرهن على أنه بداخل هذا الرجل الهادئ خارجياً، عقل ذكي مشحون حيوية.

كم أشكر الله من أجل التكنولوجيا الحديثة التي سمحت لأناس مثل: "دون" و"كارولين" أن يتواصلا مع الآخرين حتى بعد أن فقدوا بعض وظائف أعضاء الجسد التي تساعدهم على الكلام. "ستيفن هوكنج" واحد من أذكى علماء العالم كان بإمكانه أن يحرك إصبعاً واحد في يد واحدة فقط، ومع ذلك فبمساعدة الكمبيوتر يستطيع أن يتحدث إلى أي تجمع للعلماء. حتى وإن فقد هؤلاء الناس كل القدرة على التواصل بسبب الشلل الكامل، فإنني أدعي أنه يوجد بداخلهم عقلاً كاملاً سيساعدهم على الاستمرار في الحياة. ومع ذلك فإننا يجب أن نعوّل على أجساد الآخرين لأنهم من خلالها ينقلون لنا ما بداخل عقولهم.

هذا التمهيد الذي كتبته عن التواصل مع أصدقائي المعاقين يُبرز سؤالاً لاهوتياً مهماً. لأن الله لا جسد له، كيف يمكننا أن نتخيله؟ كيف يمكننا أن نتواصل معه؟ هل لأننا نمتلك القدرة للمعرفة المباشرة لله، بمعنى عدم التعويل على الجسد وحواسه؟ إذا كان الأمر كذلك فإن معرفتنا بالله سوف تعمل بطريقة تختلف عن تعرفنا على الآخرين. إننا نتصور، أن روح الله بإمكانه استخدام نوع من الإيمان المباشر لكي يتواصل مع الناس في عملية تحكمها قوانين مختلفة، لأن الله لا يحتاج لأجسادنا لكي يصل إلى عقولنا، كما قال الشاعر تينسون في أشعاره: "إنه أقرب إلينا من التنفس وأقرب إلينا من قرب أيدينا وأقدامنا".

وقد أشار الرب يسوع إلى ذلك بوضوح بأنه بعد موته سوف تكون هناك طريقة جديدة للمعرفة: ليست الطريقة العادية للمخ المنعزل في الرأس والذي يكوّن صوراً للحقيقة ولكنه طريق داخلي ومباشر للمعرفة. قال يسوع "وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ رُوحُ الْحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى

جَمِيعِ الْحَقِّ لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ.ذَاكَ يُمَجِّدُنِي لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ".

وكل مخلوق على الأرض له طريقته في التواصل مع البيئة المحيطة به. وسأطلق على هذا الأسلوب كلمة التراسل أو المراسلة. وفي بعض الحالات، يتفوق كثيراً تواصل الحيوان على قدراتنا الإنسانية. فالخفافيش تلتقط الحشرات التي تأكلها بالسونار (جهاز الموجات الصوتية المنعكسة). والجرّيث (نوع من السمك) يمسك بالفريسة عن طريق الكهرباء، ويطير الحمام لمسافات طويلة بالمجال المغناطيسي وكلاب المطاردة تعمل عن طريق حاسة شم خاصة بها، وهي غير ممكنة لنا.

وهذا العالم غير المنظور ربما يتطلب جهازاً داخلياً خاصاً للتواصل يعمل من خلال نوع خاص من التنشيط الروحي. الله ليس "موجوداً هناك" في العالم المادي الذي نعيش فيه، ويمكننا أن نتخيله فقط باكتساب مقدرة جديدة على التواصل والمراسلة. قال الرسول بولس: "ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأن عنده جهالة. ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحياً". (١كو٢: ١٤- ١٥). وقال يسوع: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته". وفي قلب القصة المسيحية يوجد الوعد بالتواصل المباشر مع العالم غير المنظور، حلقة عميقة للغاية وقد شُبهت بالولادة الجديدة ومفتاح الحياة التي بعد الموت العضوي.

ويقدم الكتاب المقدس الإيمان كالطريق إلى العالم غير المنظور والذي تعرّفه الرسالة إلى العبرانيين بأنه: "الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى". وموسى "رأى ما لا يُرى" ويواصل هذا الفصل (عبرانيين ١١) موضحاً عمل التواصل والمراسلة غير العادية. فمن أول صفحة في الكتاب المقدس حتى آخر صفحة يعرض الكتاب المقدس تقريراً عن حقيقة أخرى تعمل في ذات الوقت- وعادة ما تكون مخفية عنا- مع الحقيقة المادية في الأرض.

في بعض الأحيان قد "يستعير" العالم غير المنظور شيئاً من العالم المنظور في محاولة للاتصال، مثل العُليقة المشتعلة التي رآها موسى بعينيه. وباستثناء تلك الأمثلة غير العادية، فنحن البشر نعتمد مبدئياً على "وسائط النعمة". مثل الكنيسة والمبادئ الروحية والقربان المقدس لكي نتواصل مع العالم غير المنظور. والصلاة، مثلاً، هي بمثابة التنفس، إنها تُبقينا أحياء روحياً. وكما قالت إيفلين أندرهيل: "إننا مخلوقات حساسة وروحية ويجب أن نعيش حياة ثنائية الطبيعة".

وطبقاً لكلمة الله فإن الفرق الكبير بين البشر ليس مبنياً على الجنس، أو الذكاء، أو نسبة الدخل، أو الموهبة. إنه اختلاف مبني على مدى اتصالنا بالعالم غير المنظور. إن "أبناء النور" لديهم هذا النوع من الاتصال أما "أبناء الظلمة" فليس لهم. ويوماً ما سوف نصل إلى الاتصال الكامل مع هذا العالم. كما قال الرسول يوحنا: "أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله ولم يُظهر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو" (١يو ٣: ٢).



عندما ناقشت مشكلة "العقول الأخرى" لم أذكر كل شئ عنها. والسبب الذي يجعل الفلاسفة يقلقون على مثل هذه الأسئلة بينما معظم الناس الآخرين لا يفعلون ذلك، وهو أن الفلاسفة يجلسون في حجراتهم وسط الكتب ويسمحون للأفكار المجردة أن تطفو وتدور في أذهانهم، بينما بقية الناس ينشغلون بأمورهم المعيشية مثل إعداد أطفالهم للمدرسة، أو قضاء بعض الأمور في مجلس المدينة، أو رعاية الأقرباء من كبار السن. ونثق في العقول الأخرى لأننا نواجهها طوال اليوم ونتواصل معها.

وفي الحقيقة، نحن نقرر الحالة التي نكون عليها من خلال تلك العلاقات. فنحن لم ندخل هذا العالم بعقول متميزة وُضعت بطريقة سحرية داخل أجساد منظورة. إن خبراتنا وعلاقاتنا هي التي تشكلنا

كأشخاص. الأطفال المتوحشون- هؤلاء الأطفال النادرون ولكنهم حالات موثقة وقامت بتربيتهم حيوانات متوحشة- لم تنمو فيهم القدرة على التواصل مع الآخرين، ويصعب أن نعتبرهم كأشخاص بأي شكل من الأشكال. وبالمثل، فالأطفال الذين حُبسوا في أماكن مغلقة لعدة سنوات في ظروف صعبة وسيئة، واعتُدي عليهم، لم يتعلموا مهارات لغوية، وأعيق نموهم الطبيعي.

ويقضي الإنسان في نموه فترة أطول من الحيوان. فالظبي يمكنه أن يخرج من رحم أمه ويقف ويتمكن من الجري والأكل في ظرف ساعات قليلة. وعلى النقيض من ذلك فإن الأطفال يعتمدون بعد ولادتهم على الآخرين لشهور طويلة. والطفل لا يمكنه أن يصبح شخصاً عاقلاً بعيداً عن العلاقات الإنسانية.

وبالمثل، فإن الحياة الروحية، كقدرة، تُبنى داخل الإنسان، ولا يمكنها أن تنمو إلا بالعلاقة مع الله. ويقول القديس أوغسطينوس: "إنني أدعوك لتأتي إلى روحي التي أعددتها أنت لكي تقبلك بالشوق الذي خلقته أنت فيها". ومع أننا جميعاً نمتلك القدرة فسوف يظل اشتياقنا الروحي غير مُشبّع إلى أن نتصل ثم ننمي مهارات "التواصل". إن الولادة الجديدة، وهي بداية عملية الاتصال بالحقيقة الروحية، تُوقظ فينا الحياة الجديدة. وكأولاد الله نصبح على الحالة التي نحن فيها من خلال علاقتنا مع الله ومع شعبه.

إنني أفكر الآن في الشخص الذي أثّر على حياتي المسيحية أكثر من أي شخص آخر: وهو المرسل الجرّاح بول بروكنول. ولأكثر من خمسة عشر عاماً، كتبت ثلاثة كتب مع الدكتور براند. وصاحبته في رحلته إلى الهند وانجلترا حيث استعدنا الأحداث الرئيسية في حياته. لقد أمضيت مئات الساعات وأنا أسأله أية أسئلة عن خبراته مع الطب والحياة ومع الله. وأجريت مقابلات مع مرضاه السابقين ومع زملائه وأسرته والممرضات اللاتي عملن معه. لقد كان الدكتور براند رجلاً صالحاً وعظيماً وأشعر بامتنان كبير له من أجل الوقت الذي قضيناه معاً. وفي مرحلة من مراحل

نموي الروحي عندما لم تكن لديّ ثقة كافية لأكتب عن إيماني، كانت لدي ثقة كاملة لكي أكتب عن إيمانه هو.

لقد تغيرت نتيجة لعلاقتي مع الدكتور براند الذي أصبح قناة للنمو الروحي بالنسبة لي. وتقوّي إيماني لأنه كان لديّ مثلّ حي لشخص يتقدم في كل شئ من خلال علاقته مع الله. وأنا الآن أنظر إلى العدالة وأسلوب الحياة والأمور المالية من خلال نظرته هو لها، وأرى البيئة الطبيعية من حولي بطريقة مختلفة، كما أنظر إلى الجسم الإنساني، وخاصة الألم بنظرة مختلفة تماماً. وعلاقتي مع الدكتور براند أثّرت فيّ بعمق في داخلي وكياني. ومع ذلك فعندما أستعيد ذكرياتي معه، أجد أنه لم يحدث ولا مرة واحدة أنه قد فرض نفسه عليّ أو حاول أن يغيرني بالقوة. لقد تغيرت بكامل إرادتي وبكل سرور لأن عالمي الخاص ونفسي تقابلت مع عالمه ونفسه.

وأعتقد أن عملية مشابهة تعمل مع الله. فأنا أصبحت مؤمناً بعلاقتي مع الله. وبطرق غامضة يصعب وصفها تغيرت بمرور الوقت كنتيجة لتواصلي مع الله.

وإذا تمكنت من عمل لقاءات مع الشخصيات الكتابية مثل إرميا، ويعقوب، وأيوب، ويهوذا ..، كل واحد منهم سوف يعطيني إجابة مختلفة على السؤال: "أخبرني عن علاقتك مع الله - كيف كانت؟" وإذا سألت داود وكتّاب المزامير الآخرين فسوف أحصل على إجابات مختلفة من نفس الشخص. والعلاقة تختلف من مزمور لآخر بل قد تختلف في نفس المزمور. فمثلاً مزمور ١٤٣ يتفكر في "الأيام الماضية" عندما كان الله قريباً جداً لهم، ثم يصيح داود ويقول "لا تحجب وجهك عني". وداود، على وجه الخصوص، ربما يفهم أفضل من أي شخص آخر، مدى العلاقة الحية المتحركة التي تحدث بين الإنسان والله.

وفي الحقيقة فإنني أرى أوجه شبه كثيرة بين معرفة الله ومعرفة أي إنسان آخر. فأول كل شئ أعرف اسم الشخص. وشئ ما في شخصيته تجذبني إليه. ثم أقضي وقتاً مع صديقي الجديد وأعرف منه نوعية

الأنشطة المشتركة بيننا. وأعطيه بعض الهدايا وقد أقدم له بعض الخدمات. وأشاركه في ظروفه الطيبة والصعبة نضحك معاً ونبكي معاً. وأكشف له عن كل أسراري. وأحتمل الكثير للحفاظ على هذه العلاقة. وألتزم معه بأمور كثيرة. وقد نختلف ونتجادل معاً ثم نصطلح. كل هذه المراحل في العلاقة يمكن تطبيقها مع الله أيضاً.

قد يعترض أحدهم ويقول، إنك قد جعلت هذا التماثل سهلاً للغاية. إن لي الكثير من العلاقات الناجحة مع الناس الآخرين. فبإمكاني رؤيتهم وسماعهم ولمسهم. ولكن عندما أحاول أن أقيم علاقة مع الله غير المنظور لا يحدث شئ. وقد لا يتولد لديّ الإحساس على الإطلاق وأن الله موجود هناك. وأنا لا أقلل من مثل هذا الاعتراض لأنه في عدة مرات في حياتي اجتازت نفسي هذا الشعور. وحتى الآن فعلاقتي مع الله ترتفع وتنخفض على أساس إيماني.

ويمكنك رؤية المشكلة بمشاهدة مناظر الاختبارات الدينية في الأفلام. وفي كلمة واحدة إنها متعبة ومرهقة. فالقديس يركع ويصلي وينتهي الأمر كله بأن يتعثر. ونقول، إن شيئاً ما يحدث ولا تستطيع الكاميرات تسجيله. العملية غير المنظوره والتي- بالنسبة لكل الناس- تستحوذ على اهتمام ضئيل للغاية، بل أقل من أية مناظر مرتبطة بالأجساد مثل الجنس.

أنا أعلم أن علاقتي مع الله لا يمكن مساواتها تماماً مع علاقاتي بالبشر، وفي بعض الجوانب تختلف في أمور أساسية. إن الله غير محدود وغير ملموس وغير المنظور. إذا كان بإمكاني استخدام هذه اللغة، فنحن البشر لدينا القليل من التعاطف مع المشاكل التي يجب أن تواجه الله الذي يرغب في التواصل معنا. سجل "بارون فون هجيل" التشابه بين علاقات الإنسان مع الكلب*. كان التشابه كريماً بالنسبة لنا. إله غير محدود يتصل بالإنسان، فإن هذا يمثل تحدياً أكثر من

* كلابنا تعرفنا وتحبنا ومع ذلك فهي فقط تعرفنا باندفاع وليس عن معرفة ووضوح، فأحياناً نُتعب عقولها فتتركنا وتذهب بين الأطفال والخدم، فالحقيقة هي تحب أن تهرب من صحبة الإنسان .. ومع ذلك، كم هو رائع!. إن الكلاب تحتاج إلى مثيلاتها التي هي فارغة وواضحة، ولكنها أيضاً تحتاج إلينا، إنها تحتاج إلى ما يمكن أن تفهمه .. إن مصدر وموضوع الدين، إذا كان الدين وموضوعه أمراً حقيقياً، فلا يمكن، بأية إمكانية، أن يكون واضحاً بالنسبة لي، مثلما أكون أنا بالنسبة لكلبي".

علاقة الإنسان بكلبه.

والتواصل بين مثل هذه المخلوقات غير المتساوية سوف يتسبب بالضرورة في نوع من الارتباك والحزن لكلا الطرفين. ما نريده نحن كبشر من علاقتنا قد يتعارض في أهدافه مع ما يريده الله. نحن نريد من الله أن يكون مثلنا: ملموساً، مادياً، يمكن تخيله. نريد أن نتحدث إليه بكلمات مسموعة يمكننا أن نفهمها. وبعيداً عن التجسد والظهورات النادرة فإن الله يُظهر اهتماماً قليلاً في التواصل على مستوانا. الله ليس لديه سبب لأن يُحد نفسه بوقت أو مكان غير ما هو ضروري لذلك. وبالحري، فالله يريد منا تواصلاً في مجال روحي ويُظهر سروراً أكثر في أنواع أخرى من النمو: العدالة، الرحمة، السلام النعمة والمحبة، صفات روحية تعمل بين الناس في عالم مادي. وباختصار فإن الله يريدنا أن نشابهه. كتب كاتب قديم ما يلي: "لا يمكننا أن نفهم الله بعقولنا. فإذا كان من الممكن فهمه فلن يكون إلهاً". ونحن مختلفون اختلافاً عميقاً، الله وأنا، وهذا ما يوضح: لماذا لم تكن الصداقة النموذج الأول الذي استُخدم في الكتاب المقدس لوصف علاقتنا معاً. إنها العبادة.



بعد أن أفلت من الموت وكُتبت له الحياة بعد فترة قضاها في المعسكرات النازية، أصبح فيكتور فرانكل طبيباً نفسياً. وهو يستعيد ذكريات هذه الفترة وتذكر عندما كان يخاف الموت في أية لحظة، وكيف أنه هو ومسجونين آخرين كان الحراس يُكرهونهم على السير نحو اتجاه مجهول .. وكتب ما يلي:

"... وبينما كنا نسير لمسافة أميال على كتل من الجليد كنا نشدد بعضنا بعضاً بين الحين والآخر، ولكننا نسير في سكون، وكنا نعرف بعضنا البعض فكل منا كان يفكر في زوجته. نظرت إلى السماء ولكن عقلي كان متعلقاً بصورة زوجتي متذكراً إياها بذكاء مفرط. سمعتها تجيبني ورأيت ابتسامتها المشجعة. وسواء كان

هذا حقيقة أم سراباً فقد كانت نظرتها أشد إشراقاً من الشمس التي كادت أن تشرق.

واستحوذت فكرة على عقلي: لأول مرة في حياتي رأيت الحقيقة كما عبر عنها الكثير من الشعراء في صورة أغنية وأعلنها الكثير من المفكرين على أنها قمة الحكمة. وهذه الحقيقة هي أن الحب هو الهدف الأسمى الذي يصبو إليه الإنسان. وعندئذ فهمت معنى أعظم سر يجب أن ينقله الشعر الإنساني والفكر والإيمان الإنساني: إن خلاص الإنسان هو من خلال الحب وفي الحب ...

ولأول مرة في حياتي استطعت أن أفهم معنى الكلمات "واختفت الملائكة في تأمل أبدي لمجد بلا حدود".

وحينما أقرأ ذكريات فرانكل هذه، كنت أعلم بدون أدنى شك أنني كنت سأفكر لو كنت قد وُضعت في مكان الرعب والمعاناة والموت. ومثلما عمل فرانكل كنت سأثبت كل قواي وتركيزي على وجه زوجتي التي شاركتني الحياة وعلمتني معنى الحب: وأتساءل ما إذا كنت أستطيع أن أحب الله، لو لم أكن أتعلم أولاً من خلالها أن أحب. وإذا كنا قد أصبحنا أشخاصاً من خلال العلاقة، فالشخص الذي أنا عليه اليوم يرجع الفضل كله في هذا إلى زوجتي. وبالرغم من أنني عندما التقيت بها كنت خجولاً بدرجة شديدة وغير كفؤ اجتماعياً ومُحطّم عاطفياً، تغاضت عن كل هذه العقبات وغمرتني بحبها ورعايتها.

وأنا أكتب هذه الكلمات تقوم زوجتي بزيارة عائلتها على مسافة ألفي ميل ومع ذلك فهي "تعيش" في داخلي. فالتاريخ الذي شاركناه معاً يملأ تفكيري ويكوّن شخصيتي. طوال اليوم وأنا أشعر بوجودها معي رغم غيابها عني. وأفكر فيما قد تفعله الآن. وأصلي من أجلها. لقد افتقدتها كثيراً.

وبينما أفكر في الطريقة التي تؤثر بها جانيت عليّ، فهمت قصد الكتاب المقدس عندما يشير إلى المحبة والزواج لكي يصور لنا العلاقة التي يريدها الله معنا. وعندما كان فرانكل يفكر في زوجته،

فهم ولأول مرة معنى العبارة التي غابت عن فكره دائماً. نحن لسنا بملائكة اختفت في مجد أبدي، ولكننا بشر مخطئون نُثبت عدم قدرتنا على الاستمرار في عقد حبنا مع الله ومع إخوتنا. إن زواجي الذي استمر لثلاثة عقود مبني على عهد أساسي نُنجزه ونُتممه كل يوم. الإخلاص والأمانة، وليس الرومانسية، هي التي حفظتنا معاً.

في بداية زواجنا نصحنا زوجين قديمين بما يلي: "لا تعتمدا على الحب الرومانسي فلن يظل طويلاً. إن الحب هو قرار وليس مجرد شعور". وفي شهر العسل نسيت هذه النصيحة واعتبرتها من أناس من جيل مضى، ولكنني الآن وبعد مضي سنوات فإنني أوافق عليها. نعم فإن الزواج يحيا على الحب، ولكنه نوع الحب الذي يطلبه الوالدين أو التلمذة المسيحية: قرار حازم وشجاع للسير للأمام خطوة خطوة.

وبالنسبة لي، فقد ظل الكثير كما هو منذ أن اتخذت قرار اتباعي للرب يسوع. بعض الأمور ازدادت صعوبة وتعقيداً. ومع ذلك، فبالنسبة للزواج، وجدت أن حياتي مع الله ممتعة ومشبعة إلى حد بعيد. واتباع الرب هو نقطة البداية لاختيار الطريق الذي ستسير فيه. ومازلت أسير في نفس الطريق لسنوات عديدة. إن الله يعيش داخلي، وغيابه عني هو نوع من الحضور، إنه يغيرني ويوجهني ويذكرني بهويتي الحقيقية.

وستظل دائماً الفوارق بين عهد الزواج والعهد مع الله. وكلا العهدين يتطلبان الإخلاص والأمانة، ولكن الإنسان يحتاج إلى الإيمان بمعنى أن نكون "متأكدين مما لا

> كثيراً ما نسمع الناس يقولون: "لا يمكنني معالجة الأمر وفهمه" عندما يرفضون صورة الله الكتابية كأب وكأم وكالسيد، الله المحب والذي يغضب، الله على الصليب. وإنني أجد أن هذا الاختيار لتلك الكلمات يكشف عما بداخلهم ومع ذلك فهو يعكس الألم الذي يشعرونه في الداخل: فإذا بحثنا عن "إله" يمكننا أن نفهمه فسوف يكون هذا ما سنحصل عليه تماماً. إله يمكننا أن نناور به فيما حولنا وهنا نكون قد جزئنا رحمته.
>
> **كاثرين نوريس**

نراه". إنني لن أشك في وجود زوجتي لأنه في كل صباح يمكنني أن أراها وألمسها وبذلك يكون عندي برهان ملموس.

ومن طبيعة الله أنه يُظهر ذاته ويعرّف نفسه. ومع ذلك فهو أيضاً يخفي ذاته. "الأسرار للرب إلهنا" هكذا قال موسى لبني إسرائيل. إننا نعيش بين أسرار تُخفى عنا ربما لحمايتنا، وأمور أخرى تُكشف لنا. إن الله الذي يروي عطشنا هو ذاته غير المعروف والذي لا أحد يراه ويعيش. إن غياب وحضور الله لازمين لبقائنا وحياتنا.



٩ - لمحة شخصية عن الله



"الله يمنحنا القدر الكافي للبحث عنه ولكن ليس كافياً لكي نجده بصورة كاملة. ولكي نفعل أكثر بحثا عنه فهذا سوف يضر بحريتنا التي هي عزيزة للغاية عليه"

رون هانسن



إن "السمات الشخصية" لله تجعل بكل تأكيد أية علاقة معه نوعاً من التحدي الرهيب. وتميل كتب اللاهوت إلى استخدام كلمات جامدة- كلي الوجود، لا يتألم، رابط الجأش- لكي تصف شخصية الله، ولكن الكتاب المقدس يخبرنا أن الله ليس بجامد أو غير متفاعل. لقد دخل الله التاريخ يناصر المظلوم ويجادل مع البشر (وقد يسمح لهم بالغلبة أحياناً)، وقد يُظهر قوته ويستخدمها أو قد يكبحها. إن الحياة مع الله في الكتاب المقدس تبدو كقصة غامضة أو رومانسية، أكثر منها قصة لاهوتية. وما أجده في صفحاته يختلف كثيراً عما أتوقعه، وما يتوقعه معظم الناس في محاولةً معرفتهم لله. والمظاهر الآتية عن شخصية الله قد تُدهش أو تحير من يبحث عن علاقة مع الله.

الله خجول: لست أقصد بهذا أنه جبان ورعديد. إن الله بإمكانه أن يتحدث بصوت يشبه الرعد، وعندما يُظهر ذاته، يسقط البشر على وجوههم مرتعبين. بل أنني أقصد أن الله ينأى بنفسه عن التهديد بالقوة. وعندما يفكر في الأمور الكثيرة التي تغضبه على هذا الكوكب فإن الله يمارس قدراً كبيراً (لا يصدق) من ضبط النفس.

ويقدم لنا الكتاب المقدس هدف الخليقة على أنه كيوم السبت يوم الراحة عندما يمكن لله وكل خليقته أن يستمتعوا بالسلام والتآلف. ولكن التاريخ يواصل إزعاج هذه الراحة بمعوقات ومشاحنات مزعجة. وفي العهد القديم، على وجه الخصوص، يتغلب الله على خجله عندما يبلغ الشر أو المعاناة إلى درجة الأزمة. وأحياناً يتدخل الله بظهور شخص مباشر، وأحياناً أخرى من خلال الظواهر الطبيعية وفي معظم الأحيان بتكليف شخص لكي يوصل كلمته نيابة عنه.

وبالمقارنة مع الكتابات المقدسة للديانات الأخرى فإن الكتاب المقدس يقدم مناظر قليلة عن الارتباط بين العوالم المرئية وغير المرئية. وسوف نركز على المعجزات والظهورات المثيرة والدرامية مثلما ظهر لموسى في العليقة المشتعلة وللأنبياء في الأحلام والرؤى. ومع ذلك فهذه الأحداث موجودة في فترات ليس لدينا عنها أية سجلات عن العالم غير المنظور وظهوراته. وعادة ما يظهر تدخل الله بعد تضرعات وصلوات كثيرة، ربما تكون قد تأخرت لحقب أو ربما قرون كثيرة. إن الله ليس عنيفاً بل حذراً ومتحفظاً عندما يعمل.

لماذا هذه الصفة؟ ليس بإمكاني التحدث نيابة عن الله ولكن الإجابة يجب أن تعكس "مشكلة" كائن غير منظور يتصل بأناس في عالم مادي. وإذا كان عالم غير منظور موجود مشابه لما نحن فيه، كما يقول الكتاب، فإننا بحاجة إلى جهاز حساس لكي نكتشفه. إنني لم أشاهد على الإطلاق مؤمناً له قوة إيليا لكي يرى العربات النارية. حتى بعد أن نُنمّي ونطور مراسلاتنا مع العالم غير المنظور، فنحن

نفعل ذلك بالإيمان الذي عرفته رسالة العبرانيين بأنه "الإيقان بأمور لا تُرى".

ولكن الله يواجه موقفاً معاكساً. فالله ليس مثلنا، فله نظرة شاملة تنظر إلى العالم الذي نراه نحن والعوالم الأخرى المخفية عنا. وبالإضافة إلى هذا، فالله يرى كل تاريخنا في لحظة. ولأنه غير محدود بجسد، فالله موجود في كل مكان في آن واحد.

نفس الحاجز الذي يمنعنا عن الله هو نفسه الذي يمنع الله عنا ولكن بطريقة مختلفة تماماً. ففي كل مرة يختار الله أن يعلن عن ذاته لعالمنا، يجب أن يقبل حدوداً. إنه يتنازل ليكون معنا ويتواضع ويوافق على وجهة نظرنا.

رأى موسى العليقة المشتعلة التي أذهلته وغيرت طريق حياته كما غيرت التاريخ. ومن النار المشتعلة سمع صوت الله يتحدث. ومع ذلك فإن الله ذاته اختبر نفس هذه العليقة المشتعلة كسكن له ليحدد مكانه فيها. وظهرت العليقة أمام موسى في برية سيناء ولكن ليس في الصين أو في أمريكا اللاتينية. ولهذا بدأ ما يسميه النقاد "فضيحة الخصوصية" لماذا يختار الله إسرائيل بالذات دونا عن كل القبائل الأخرى؟ لماذا يأخذ الله صورة الجسد ويتجسد في المسيح في موضع خلفي منعزل في فلسطين؟ إن اختيار الله محدود إذا أراد أن يتواصل بطريقة تُمكن الإنسان من أن يفهمه. ولكي يرتبط بعالمنا، كان على الله أن يُخضع نفسه لقوانين ذلك العصر. فأية اتصالات بين العالم غير المنظور والمنظور، بين الله والبشر، يعمل في اتجاهين، كلاهما يتأثر بالآخر.

تشابه جزئي: بإمكاننا أن نتخيل أن الإنسان يوماً ما سيعرف لغة الحيتان، حتى يمكننا التواصل معها من خلال الأصوات القصيرة الحادة التي يمكن للحوت أن يفهمها. وإذا تمكنا من أن نفعل ذلك، فسوف نضع أنفسنا في درجة أقل، ونُحد ذواتنا بطريقة مفهومة لدى الحيتان. إنهم لن يفهموا المعنى الكامل للإنسان، فبإمكاننا فقط أن نتحدث معها عن السمك والمحيطات وليس عن الكمبيوتر

وناطحات السحاب والفرق المشهورة لكرة السلة. وهذا التشابه الجزئي يعطينا صورة مصغرة عن كيفية أن الله كلي القدرة وكلي المعرفة يتواصل مع البشر.

وباختصار؛ إن الله هو الذي يجب أن يُحدد مدى التواصل، حتى يمكننا أن نعرف الله كما يختار هو كيفية الإعلان عن ذاته. إن الشركة غير المتكافئة بين الله غير المنظور، والإنسان المخلوق المادي، تتضمن أن الكثير سيظل غامضاً وغير معروف، والله يعرفنا جميعاً ولكننا لن نستطيع أن نعرف كل شيء عن الله. كما قال الله لأرميا: "هل أنا فقط إله قريب، ولست إلهاً بعيداً؟".

لا يحوي الكتاب المقدس أية إشارت واضحة، أو سبب واحد يمنع الله من أن يتدخل مرات عديدة بطريقة مباشرة: إن الله يمتنع عن ذلك رحمة منه بنا ولمنفعتنا. بطرس الرسول يجيب على الذين يسخرون ويشكّون في أن الله يتحكم في التاريخ بالقوة: "إن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة. وألف سنة كيوم واحد. لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطؤ، لكنه يتأنى علينا، وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع إلى التوبة".

عندما أنظر إلى تدخلات الرب المذهلة في العهد القديم— فلك نوح، برج بابل، الضربات العشر على مصر، السبي الأشوري والبابلي— أشعر بالإمتنان العظيم لصفة الخجل السماوي. يقول "جون أوبديك" :" لا يمكنني أن أوقف إحساس أن الله يتمتع بصفة السكينة والهدوء"... "لو أظهر الله قوته سيكون عنيفاً وجباراً، وماحقاً، بدلاً من كونه مشجعاً لنا بلا حدود، نحن الكائنات المضطربة والخائفة".

الله يحتجب: يقول الفيلسوف اليهودي "مارتن بوللر": "يُعرّفنا الكتاب المقدس أن الله يحجب وجهه في المرات التي يبدو فيها أن الصلة بين السماء والأرض مقطوعة. ويبدو أن الله أخلى نفسه تماماً

عن الأرض ولم يعد موجوداً بها، وعندئذ يمتليء فراغ التاريخ بالضوضاء؟ كما أنه فرغ من نسمة الله". هل نعيش في مثل هذا الوقت الآن، وأتساءل أحياناً: هل يمتليء العالم بالضوضاء، ولكنه خالٍ من وجود الله؟ ولماذا يتوهج حضور الله في لحظة ويختفي في أخرى؟

قال إشعياء النبي: "أنت حقاً إله الذي يحجب نفسه". ويقول بلدن س. لان، في تعليقه على هذه الآية: إنه إعتاد أن يقلق من طريقة لعب أطفاله "الأستغماية/ الغميضة". يقول ابنه "مستعد" عندما يجد مكاناً جيداً للإختباء. ويواصل "لان" الأب مراجعة الهدف من هذه اللعبة. "من المفروض عليك أن تختبيء، ولا يعرف مكانك أحد"، حتى أنه في يوم ما تبادر إلى ذهنه أنه نسي هدف هذه اللعبة. فكل المتعة تأتي عندما يجدك الأطفال أخيراً، ومن منا يرغب في أن يُترك وحده، ولا يكتشفه أحد؟

يقول ميستر إيكهارت: "إن الله يشبه شخصاً يرفع صوته حين يحتجب، كما لو أنه يريد أن يُعرّف الآخرين مكان إختبائه". وربما يشعر الله بالسرور عندما يجده الآخرون.

استخدمت ابنة "لان" أسلوباً آخر في لعبة "الأستغماية". فهي تتظاهر بأنها تجري وتختبيء، ثم تتسلل وتختبيء بجوار والدها بينما هو مازال منتظراً إختباءها وعيناه مغلقتان. مع أنه يسمع صوت لهاثها وهي واقفة على بُعد بوصات منه، فلن يُظهر إطلاقاً أنه يعرف مكانها. وبدلاً من ذلك يتظاهر بالفرح وهو يفتح عينيه قائلاً لها: "هل أنت جاهزة لأبحث عنك، إنني سأبدأ البحث"، وهنا يرى إبنته تُسرع إليه وتلمسه قبل أن يبحث عنها. وعن ذلك يقول "لان":

"بالطبع كانت إبنتي تخدعني، ولا أعرف لماذا، ودائماً ما كنت أتركها تفعل ذلك. هل لأنني أشتاق كثيراً لتلك اللحظات التي نقترب فيها من بعضنا البعض، متظاهرين بأننا لا نسمع بعضنا البعض، في لعبة تنتهي في لحظات

بين أب وإبنته، وتعطينا الحرية أن نتلامس معاً، ونبحث عن بعضنا البعض، ونحاول أن يجد كل منا الآخر. إنه عمل النعمة البسيط والجدير بالإهتمام، عندما لم أكن أُعرّفها بأنني أعرف مكانها. ومع ذلك فإنني أشك أنني بهذا العمل أكون قد عكست صورة الله لطفلتي أفضل من أي طريقة أخرى. ويبدو أنه حتى هذا اليوم، الله بالنسبة لي هو إبنتي ذات السبع سنوات، تتسلل نحوي عبر الحشاش وهي تكتم أنفسها لكي تدهشني بحضورها القريب مني أكثر مما كنت أتوقع. لقد أعلن إشعياء مرة : "أنت حقاً الله الذي يحجب نفسه". إنها لعبة هزلية وسر غامض يندمجان معاً في هذا الحق العظيم والمُعقّد".

هل يجد الله صعوبة في البحث عنا وإكتشافنا؟ ومرة أخرى، لا يمكنني التحدث نيابة عن الله. فأحياناً يصور الكتاب المقدس الله بأنه هو الذي يبدأ بحثه عنا، وتعقبنا، ومع ذلك؛ فعندما نعتقد أننا صرنا مع الله، نشعر فجأة بما شعر به إشعياء الذي يبحث عن شخص يظهر ثم يختفي. الآن أنت ترى الله، والآن أنت لا تراه.

نعلم أن الله في علاقاته مع البشر يضع مكافأة للإيمان، الذي يمكن فقط ممارسته في ظروف قد تسمح بتسرب الشك إلينا، مثل إحتجاب الرب عنا في مثل هذه الظروف. لقد أجاب يسوع أولئك الذي تساءلوا عن إحتجاب الله وتكتمه بهذه الكلمات: "ألا يُنصف الله مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً؟ أقول لكم إنه ينصفهم سريعاً" ثم يضيف هذا التحذير الكئيب: "ألعل إبن الإنسان عندما يأتي يجد الإيمان على الأرض". فيما بعد كتب يوحنا لرسول: "وهذه هي الغلبة التي نغلب بها العالم، إيماننا".

فإذا كان الله يريد فقط أن يُعرّف كل الناس على الأرض بوجوده، إلا أنه إله محتجب. ومع ذلك؛ فحضور الله المباشر سوف يهيمن على حريتنا ويحل المنظور بدلاً من الإيمان. وبدلاً من ذلك فإن الله يريد نوعاً مختلفاً من المعرفة، معرفة شخصية تتطلب إلتزاماً

مَن الشخص الذي يبحث عنه ليعرفه.

إن فهمي لفكرة إحتجاب الله ترتد للوراء لا إلى لعبة الأطفال "الأستغماية"، بل إلى أول زيارة قمت بها لمتحف التاريخ الطبيعي. هناك حدّقت بإندهاش إلى الدب الرمادي الضخم، وإلى الأفيال الضخمة التي إنقرضت، والهياكل الصفراء للحيتان والديناصورات المُعلّقة بالسقف. إنه معرض يتميز بالجاذبية، وخداع العرض. عندما مررت بالحيوانات رأيت مناظر نباتات الصيف والشتاء جنباً إلى جنب، وعندما حدقت النظر فيها رأيت الحيوانات المختبأة في حجرة مظلمة، ونظرت إليها من خلال ثقب في جدار الحجرة ورأيت حيواناً يُدعى ابن مقرض يطارد الأرانب الوحشية في منظر الشتاء، ثم رأيت ما يُسمى بالسرعوف، أو فرس النبي، والطيور، والفراشات في منظر الصيف. وكان هناك لافتة تعلمنا بعدد الحيوانات المختبأة، وأمضيت نصف اليوم في تأنٍ محاولاً معرفة مكان كل حيوان في هذه اللوحات.

ذكرت في مكان آخر كيف أنني رجعت إلى الرب: فلا الكتاب المقدس، ولا الكتب المسيحية، ولا أية خدمة روحية، أعانتني في الرجوع إلى الرب. لقد رجعت للرب لأنني اكتشفت صلاح الله ونعمته في هذا العالم: من خلال الطبيعة، والموسيقى الكلاسيكية، والحب الرومانسي. وأنا ستمتع بكل هذه العطايا بدأت أبحث عن المُعطي نفسه، وأنا مملوء بالإمتنان والشكر، كنت أشعر بحاجتي إلى من أشكره على كل هذا. ومثل الحيوانات التي كانت في المتحف الطبيعي، كان الله هناك طوال الوقت منتظراً من يلاحظه. ومع أنه ليس لديّ أي برهان، قادتني مفاتيح اللغز لممارسة الإيمان.

في إحدى السنوات تركت إحتفال رأس السنة قبل منتصف الليل بفترة قصيرة لكي أتفادى زحام المرور عند عودتي. وكنا نقود السيارة لمدة ساعتين لحضور هذا الحفل في كلورادو، وكنا نرجو أن نُقصِّرَ المسافة لبضعة أميال قبل أن يأتي السكارى المترنحون معطلين المرور. ولم أكن أعلم أن بعض متسلقي الجبال لديهم تقليد

يمارسونه ليلة رأس السنة. إنهم يملأون حقائبهم التي على ظهورهم بالألعاب النارية ويسيرون على الجليد في الظلام حتى يصلوا إلى قمة تُدعى "بيك". وفجأة بينما كنت أقود سيارتي في منتصف الليل رأيت الصواريخ الحمراء والزرقاء والصفراء تنطلق من قمة الجبل. لم أسمع صوتاً نظراً لإرتفاع الجبل العالي. ولكن هذه الصواريخ شكلت أشكالاً من الزهور الضخمة سابحة في سكون السماء، مضيئة قمة جبل بيك. لقد كان منظراً رائعاً، وبديعاً. لقد كان هناك، ولكن لم تكن لنا العيون لكي نراه.

قال يعقوب: "الرب موجود في هذا المكان بكل تأكيد، ولكنني لم أدرك ذلك"، ونحن إذا لم نشعر بوجود الله في العالم فنحن بذلك نكون قد نظرنا إلى أماكن خاطئة، أو نظرنا ولم نر النعمة أمام عيوننا.

الله لطيف و وديع: لا أعرف طريقة أفضل لتوصيل هذا الحق إلا من خلال التعارض. الإصحاح التاسع من إنجيل مرقس يُعطينا وصفاً حياً لإمتلاك الروح الشرير على الغلام. ففي كلمات الأب المُعذَّب تصف للمسيح معاناة إبنه: "...وَحَيْثُمَا أَدْرَكَهُ يُمَزِّقْهُ فَيُزْبِدُ وَيَصِرُّ بِأَسْنَانِهِ وَيَيْبَسُ. فَقُلْتُ لِتَلاَمِيذِكَ أَنْ يُخْرِجُوهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا...وَكَثِيراً مَا أَلْقَاهُ فِي النَّارِ وَفِي الْمَاءِ لِيُهْلِكَهُ. لَكِنْ إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ شَيْئاً فَتَحَنَّنْ عَلَيْنَا وَأَعِنَّا". عندما أدرك الروح الشرير بوجود يسوع ففي الحال صرع الغلام بشدة. يمكنني بسهولة أن أصور المشهد لأنني رأيت إنساناً في مثل هذه الحالة، حيث تختل خلايا المخ، وتتيبس العضلات، وينقبض الفكين.

قارن هذا المشهد مع إمتلاك الروح القدس على شخص ما. يقول بولس الرسول: " لا تحزنوا روح الله الساكن فيكم"، الله بنفسه يتواضع ويسكن فينا، في حين أن الروح الشرير يُلقي بالشخص في النار، والماء مشوهاً صورته، لكن الله العظيم يسكن في نفس

الشخص قائلاً: "..لا تؤذيني". بإمكانك فقط أن تُحزن شخصاً ما له مشاعر، ويهتم إهتماماً عميقاً.

يعرف الآباء التوازن غير الثابت بين إرشاد أطفالهم، والتأثير عليهم. غير أن هدف الوالدين ليس تربية الأطفال ليكونوا نسخة أخرى منهما، بل تربية أبناء يكبرون ويقررون اختياراتهم. بعض الوالدين يحققون هذا الهدف أفضل من غيرهم. أما أبونا السماوي، فيبدو، أنه "يخطيء" فيما يختص بحرية الإنسان، فهو يعمل في داخلنا أكثر من عمله في خارجنا، وبذلك يؤثر على إختياراتنا.

قد يُلقي هذا النموذج الضوء على صفات شخصية أخرى لله. لماذا يخجل الله؟ لماذا يحتجب؟ لماذا يوصف بالوداعة واللطف؟ إن الله يُدرك أننا نحن الذين نسير في الرحلة، وليس هو. وهي ليست مثل البحث عن كنز، وإذا سلكنا بحسب التعليمات وذققنا النظر بدرجة كافية فسوف نجد هذا الكنز. كلا؛ فالرحلة ذاتها هي الهدف.. والبحث عن الله وإصرارانا على ذلك يغيرنا لما هو أهم. والسكون والظلمة التي نواجهها، والتجارب والمعاناة، كلها تساهم في تحقيق هدف الله لتحويلنا إلى أشخاص بحسب قصده، لكي نشبه صورة إبنه.

لم ينجح الإكراه والإجبار في إعادة تشكيل الناس، لذلك فهناك قلة من الماركسيين النظريين، وقلة من النازيين النظريين، مازالوا في العالم. وحتى المصلحون السياسيون، والإجتماعيون النظريون إضطروا لأن يوافقوا على أن التغيير الإنساني يبدأ من الداخل وليس من الخارج. وهذا ما يوضح ما كتبه "جون ف. تايلر":

> " إن كلمات الله المتكررة بلا توقف لكل خليقته هي: "اختر، لقد وضعت أمامك الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختر الحياة لتحيا". فكلما أعرف عن عمليات الخليقة أندهش من جديد للجرأة التي لا تُصدّق لروح الخالق الذي يبدو أنه يُضحي بكل المكاسب السابقة في مبادرة جديدة ليُحرض مخلوقاته على مثل هذه المقامرة المجنونة".

حضور الله يتغير ويختلف: أثناء سكوت الله على تجربة أيوب لفترة طويلة قال: "ما أضعف الهمسات التي نسمعها منه". وفي نهاية السفر نجده وقد صحح خطأه بقوله: "ما أعلى صوت زئيره الذي نسمعه منه"، على صفحات سفر واحد نجد أن نفس الشخص قد اختبر إحساساً غامراً بحضور الله، وبغيابه أيضاً.

لقد ذكرت مؤمنين مثل: "مارتن مارتي"، و "فردريك بوتشنر"، الذين لم يخطئا علامات حضور الله، وبإمكاني أن أسرد بسهولة نماذج معاكسة لذلك مثل: رؤيا أوغسطينوس... أو الزيارات والتجليات في كتاب وليم جيمس "الإختلافات في الخبرة الدينية". كما أن الكتاب المقدس يكشف عن الكثير من نفس هذه النماذج: أو بالحري يعوّق نموذج حضور الله لكل من يجاهد من أجل ذلك، إنه يقدم الله الذي أحياناً يبتعد، وأخرى يقترب جداً. ففي أيام سليمان ظهر الله بصورة مذهلة في الهيكل، واختفى الله في أيام حزقيال، أما في أيام يونان فكان يتعقب النبي كما لو كان يطارده.

لقد اختبرت "جوليان" كل من حضور الله واحتجابه في تتابع سريع، وتخبرنا في رؤياها السابعة عن بعض المرات التي فيها "إمتلأت من حضور الله الأكيد"، والذي استمر للحظات قليلة، ووجدت نفسها تشعر بالثقل والمعاناة من حياتها والشعور بالضيق من نفسها: "حتى أنني لم أرغب في الإستمرر في الحياة". كان مزاجها الروحي يتأرجح بين الإرتفاع والإنخفاض، حوالي عشرين مرة، هكذا قالت جوليان.

وقد تعلمت مبدأ عند محاولة حسابي لحضور الله وغيابه، وهو أنه ليس بإمكاني أن أفعل ذلك. إن الله غير المنظور وذا السلطان، والذي يقول عنه المزمور: "إنه يفعل ما يسره"، هو الذي يضع شروط العلاقة معه. أصرّ اللاهوتي كارل بارت على القول بأن :

الله له مطلق الحرية: حر في أن يعلن ذاته أو يحجبها، أن يتدخل أو لا يتدخل، أن يعمل في نطاق الطبيعة أو خارجها، أن يحكم العالم أو يُرفض من العالم، أن يعلن عن ذاته أو يحد ذاته. وحريتنا الإنسانية مقتبسة من الله الذي يحترم الحرية.

لا يمكنني التحكم في مثل هذا الإله، وكل ما في وسعي أن أفعله هو أن أضع نفسي في الإطار المناسب لألتقي به. بإمكاني أن أعترف بالخطية، وأزيل العقبات وأطهر حياتي، وأنتظر بتوقع، وأبحث عن الوحدة والسكون. إنني لا أقدم نموذجاً مضموناً لكي أتحصل على حضور الله، لأن الله وحده هو الذي يحدد ذلك. إن الوحدة والسكون تمهد لحضور صوت الله الهامس. ومع ذلك؛ فهناك طريقة أكيدة تتسبب في غياب الله، يعبر عنها بوضوح س. إس. لويس بالقول:

> "تجنب الوحدة، تجنب السكون، وتجنب أي قطار للأفكار يبعدك عن الطريق المعروف، وركز على المال والجنس، والحالة القائمة، والصحة، وفوق الكل أحزانك. أترك الراديو مفتوحاً، أسكن بين جمهور من الناس، استخدم الكثير من المسكنات. إذا كان عليك أن تقرأ كتباً فاخترها بعناية، ولكن سيكون من الأفضل أن تقرأ الصحف. فسوف تسعدك الإعلانات، وخاصة تلك التي بها جاذبية جنسية"

ويضيف لويس قائلاً: إنه لا يستطيع أن يعطي نصيحة للسعي وراء الرب، لأنه لم يكن له هذا الإختبار، "بل على العكس من ذلك فالله هو الصياد، وأنا الغزال الذي يحاول هو أن يصطاده.

> لو كان الله يظهر ولكن بصورة أقل من تلك التي يراها القديسون والملائكة في السماء، فإن طبيعتنا الضعيفة سوف تهبط تحتها... فمثل هذه الفقاعة (طبيعتنا الضعيفة) أضعف من أن تحمل مثل هذا الثقل العظيم (ظهور الله). لهذا فنحن لا نستغرب القول: "لا يراني إنسان ويعيش"
> جوناثان إدوارد

ولكن من المهم أن نعرف أن هذه المطاردة الطويلة من الله تحدث في ذات الوقت الذي أبذل فيه أنا مجهوداً لطاعة ضميري"



١٠ - في اسم الآب



"إن كل الناموس للوجود الإنساني يتلخص في الآتي: أن يتمكن الإنسان من أن يركع أمام الذي لا حدود لعظمته"

فيدور ديستوفسكي



دمجت "دروثي سايرز" وظيفتين معاً لما لهما من صفات مشتركة معاً كثيرة. وبفضل الـBBC و PBSعرف معظم الناس مؤلفة القصص البوليسية المبنية على شخصية "لورد بيتر وينسي". والبعض عرفها كلاهوتية تتبع مباديء "ج. ك. تشسترتون"، و "س. إس. لويس". وفي كلتا المحاولتين كانت تتطرق إلى الأمور الغامضة بذكاء وبراعة.

في كتابها الذي يحمل بذور التطور في الفكر "عقلية الخالق" إتبعت سايرز أثر أكثر الأسرار غموضاً، وهو الثالوث الأقدس. فحديث الإيمان صعب عليه فهم هذا المبدأ، ولكننا لا نستطيع أن نعرف الله، أو نفهم جيداً طبيعة علاقته معنا، بدون فهم ضروري وأساسي للثالوث الأقدس.

تقول سايرز إننا نفهم الله بصورة أفضل إذا فكرنا فيه على أنه فنان مبدع. تخيل الله كمهندس أو صانع ساعات، أو قوة هائلة، وفي هذه الحالة سوف تضل الطريق. إن صورة الله تُشرق من خلالن، وبصورة واضحة في عمل خليقته- متضمنة الثلاث مراحل وهي: الفكرة، والتعبير، والإدراك- وبتكرار وإعادة إنتاج هذا العمل يمكننا أن نبدأ في فهم الثالوث الأقدس بالتشبيه الجزئي.

إنني أُطبّق فكرة سايرز على صورة إبداعية أعرفها جيداً وهي الكتابة، فكل كاتب يبدأ بفكرة. خذ مثالاً هذا الكتاب، لقد قرأت كتباً كثيرة لعدة سنوات، وتحدثت مع كثير من الناس، وسجلت ملاحظات على قصاصات من الورق ترتبط بالفكرة التي ما زالت غير واضحة. فلم يكن في ذهني عنوان الكتاب، ولا الشكل الذي سيكون عليه، ولكن كانت لديّ فقط رغبة قوية لإكتشاف أسئلتي عن كيفية أننا نحن البشر يمكننا أن نتواصل مع إله غير منظور. وأحياناً يتساءل بعض الأصدقاء: "فيمَ تعمل يا فيليب؟"، وأحاول أن أوضح لهم، ولكن نظراتهم كانت تقول لي أن فكرتي الأصلية عسرة الفهم.

أخيراً؛ أتى وقت بدء الكتابة، واختيار أفضل تعبير عن فكرتي، فأنا لا أكتب بطريقة الأدب الروائي، على الرغم من إمكانية كتابة اللاهوت بهذا الأسلوب، وقد أثبت ذلك كل من: دانتي، و ميلتون، كما يمكن التعبير عنه بصيغ أخرى مثل الشعر الملحمي. فقد كتب "جون ويسلي" خدماته وكتب الترانيم لأخيه بهذا الأسلوب. فكل فنان يختار أسلوبه ووسيلته: الشعر، الأوبرا، الرسم، الرواية، الكورال، السينما، التصوير، النحت، الأغنية، ليعبر عن فكرته التي يبدأ بها.

تتغير صورة تعبيري يومياً، فبالأمس نقلت جزءاً كبيراً من النص، من فصل إلى فصل آخر، كما أبعدت تماما العديد من الصفحات. وغالباً ما أحذف مئات الصفحات من المسودة الأولى من كل كتبي. وأثناء الكتابة، أدرك أن بعض الصفحات التي أخذت مني عدة أيام

لكتابتها، تعطل فكرة الكتاب الأصلية، وتتسبب في وجود إتجاهات متعارضة. إن للفكرة حياة في ذاتها، وبمرور الوقت تعلمت أن أتبع ميولي التي تنشطني، وتوقظني، عندما يسيء تعبيري تقديم فكرتي. وبالمثل؛ فأصدقائي الذين يكتبون الأدب الروائي يخبرونني أن القصة ذاتها تقودهم إلى طريق لم يخططوا لها، أو يفكروا فيها من قبل. بغض النظر عن وسيلة التعبير فكل مبدع بشري يسعى لأن يعبر عن الفكرة بطريقة كاملة، ولربما لن يتمكن من ذلك. فبعدما زار مايكل أنجلو كنيسة سيستين بعد إكتمالها، فأنا متأكد من أنه لاحظ كل خطأ ونقص فيها.

إن عملية الخلق والإبدع لا تنتهي مع أنه عندما أنتهي من العمل يتلقاه شخص آخر. وفي الحقيقة، فإن هذه الخطوة الأخيرة تتم في نفس اللحظة وأنت تقرأ هذه الجملة. ويبدع الفنان من أجل غرض واحد، هو أن يتواصل، وستظل عملية الإبداع بلا توقف إلى أن يتلقاها على الأقل شخص واحد. وتُسمِي سايرز هذه الخطوة الأخيرة بالإدراك.

يتطلب العمل الفني الناجح إستجابة من المتلقي. وفي الحقيقة؛ عندما يتضمن هذا العمل الفني فناً عظيمً عندئذ شيئ مماثل للمادة الكيميائية الرابطة يحدث في أجسادنا: في العضلات، والقلب، والتنفس. قال الكاتب المسرحي "أرثر ميللر": أنه لم يشعر بالإسترخا إلا عندما يجلس بين المتفرجين ويشاهد بعيون الناس. وعندما يرى شرارة الإدراك في عيون الناس، يعرف أن مسرحيته قد نجحت. إن الإدراك يكمّل دائرة الإبداع.

يرسم كتاب سايرز بكل رشاقة التماثل الجزئي بين كل ذلك، وبين الثالوث الأقدس. ومع أن الله واحد فإنه بإمكاننا تمييز عمل الثلاثة أقانيم. فالله الآب هو الفكرة وأساس كل حقيقة. أنا "أهيه الذي أهيه" هكذا عرّف نفسه لموسى، في كلمة عبرية يمكن ترجمتها بأكثر دقة: "سأكون في الصورة التي أريدها". وكل شيء موجود ينبع من هذا الجوهر.

نحن نتعلم شيئاً ما عن الله من كل الخليقة، ولكن الله الابن يمثل التعبير الكامل لهذا الجوهر.

"هو بهاء مجده ورسم جوهره"، كما دوّن كاتب رسالة العبرانيين، وقال عنه بولس الرسول: "صورة الله غير المنظور". وإذا أردنا أن نعرف من هو الله فلننظر ببساطة إلى يسوع.

والخطوة الأخيرة في الرؤية الإبداعية لله أثمرت وإكتملت في يوم الخمسين، عندما سكن الله بالروح القدس داخل أشخاص بشريين. وشيء من جوهر الله وهو نفس الروح القدس الذي كان يرف على وجه المياه في عملية الخلق، إنه يعيش الآن في داخل أناس خطاة، مُعطياً إيانا إدراكاً للهوية الجديدة التي أصبحت لنا. وبه نستطيع أن نصرخ: "يا أبا الآب"، فـ "الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله". لقد وصل عمل الله في الخليقة إلى القمة.

يقول إيلي ويسل: "إن الله خلق الإنسان لأنه يحب القصص. وجزء أساسي من هذه القصة يتطلب تدخل الله مع خليقته. وفي كلمات دوروثي سايرز عن التواصل الجزئي للفنان، كتب الله مسرحية وأخرجها على كوكب الأرض، وأطلق الحرية للأشخاص أن يفعلوا ما يريدون. وكل فنان يعرف ماذا تشبه عملية الإبداع، والتي تلد فكرة يقذف بها إلى العالم ليفعل بها الآخرون ما يريدون. إن الخلق والإبدع يعني أن تُطلق ما أبدعته حراً، وفي حالة الله، فقد سمح لكل خلائقه البشرية لأن يفسدوا كل ما تبقى.

ورغم أن الله لم يُسرّ لأن تلك الشخصيات (البشر) أفسدت خطته، إلا أنه وضع خطة ليدخل في تاريخهم. كتب البشير يوحنا: "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ...وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا". هذه الحادثة وضعت تاريخاً للعالم قبل الميلاد وبعده. ففي ثلاث سنوات قصيرة من خدمة الرب يسوع عمل أكثر من كل الأنبياء الذين سبقوه، لكي ينقل ويوصل جوهر الله للبشرية.

ذات مرة سأله أحد التلاميذ، في لحظة شك "يا رب نريد أن نرى الآب، وكفانا"، أجابه يسوع: " من رآني فقد رأى الآب... إن ما أقوله ليس من عندي، بل من الآب الذي يحيا فيّ..."

فيما بعد؛ عندما كان يسوع يستعد للرحيل عن كوكبنا، أعطى تلاميذه تكليفاً ثلاثياً، مشجعاً إياهم لأن: "تلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس". إن التجسد وإنسكاب الروح القدس في يوم الخمسين، أعلن كلاهما سراً جديداً عن الله، وأحدث ثورة في طريقة تفكير الناس عن الله.

لقد أمضى أكثر الناس ذكاءاً في الكنيسة الأولى خمسة قرون لكي يصلوا إلى صيغة لتُعبِّر عن فكرة الثالوث الأقدس. وفي العالم غير المنظور ليس هناك أي إرتباك في كيفية كون الثلاثة أقانيم هي إله واحد. ومع ذلك؛ فنحن كبشر يمكننا أن نتعلم شيئاً عن الثلاثة أقانيم، وهو ما يمكن أن تتعلمه الخليقة المحدودة بزمن عن أي شيء: بالتتابع. نتعلم أولاً عن الله الآب من العهد القديم، ثم نتعلم عن الرب يسوع من الأنجيل، وعن الروح القدس من سفر الأعمال، ومن الرسائل.

كنت أناقش موضوع الثالوث مع بعض الأصدقاء في مجموعة صغيرة، محاولاً ربط اللاهوت النظري بالحياة العملية، فقالت إليسا هذه الفكرة: "لقد عرفت الله من خلال الثلاثة أقانيم في الثالوث الأقدس. تعرفت أولاً على الله الآب في الكنيسة حيث تعلمت أن الله مقدس ومهوب، ويستحق أن نعبده. وفيما بعد، وأنا في فترة المراهقة، تعرفت على الرب يسوع، وأردت أن أتبعه بقية حياتي. ثم تنبهت وأحسست بقوة الروح القدس يحيا فيّ".

في أسلوب شخصي وبسيط فهمت إليسا تطور رؤية الله كما يفهمها البشر المحدودون. إن الله أعلن عن نفسه أولاً كمقدس، وكائن فوق كل الوجود لقبيلة أحبها كما يحب الوالدين أطفالهم، من خلال المراحل الأولى لتطورهم ونموهم. "رأس الحكمة مخافة الله" فهذه الآية يمكن أن تكون درساً ثابتاً من العهد القديم، فيما أدخل يسوع

مرحلة جديدة من الصلة والتواصل: "لا أعود أدعوكم عبيداً بعد، بل أصدقاء. لأن كل ما تعلمته من أبي علمتكم إياه". وأثناء استعداده للصعود إلى السماء وعد تلاميذه بالروح القدس، الروح المعزي، الذي سيقيم علاقة قوية وحميمة جداً، حتى أننا نشترك في أعمال الله على الأرض: فالله يتمم عمله من خلالنا.



في مؤتمر صحفي إلتقيت ببعض الشخصيات الهامة: بيلي جراهام، رئيس الولايات المتحدة، رياضيين مشهورين، وكتاب ذوي سمعة قومية. كنت أتواصل معهم بطريقة تختلف تماماً عن تواصلي مع جيراني، وأفراد عائلتي. فلكي أتواصل بواحد منهم كان عليّ أن أجتاز على الكثيرين من أفراد السكرتارية، والوكلاء، ووقتي معهم محدود ومركز.

بينما في تواصلي مع جيراني فإن ذلك أبسط بكثير، وهو أمر عادي. فنادراً ما أحدد موعداً معهم، إذا ما رغبت في رؤيتهم. وقد ألتقي بهم عند صندوق البريد، أو وهم يتمشون مع كلابهم في الطريق، ونتحدث معاً عن الطقس، أو الرياضة، أو عن خطة قضاء الإجازة، أو أي شيء آخر قد يكون مشتركاً بيننا. وقد أطلب منهم المساعدة إذا تعلطت سيارتي على الجليد، أو إذا احتجت لأحدهم ليوقع بدلاً عني في إستلام طرد البريدي أثناء غيابي. وقد نتعشى معاً في إحدى عطلات نهاية الإسبوع.

أما مع عائلتي فالأمر يختلف تماماً، إذ أنني أتواصل معهم بإنتظام وبطريقة حميمية. فإذا أخبرني الطبيب ببعض الأخبار المزعجة بعد فحصي طبياً، فهم أول من يعلم بذلك. ولا نتعامل داخل الأسرة بطريقة رسمية، فعلاقتنا القوية تسود علاقاتنا معاً.

معرفة الله الذي هو ثالوث يُشابه علاقتنا بالناس في أمور معينة. وتعتمد علاقتنا بالله على ما يريده هو منا أن نعرفه عنه، وهي مرسومة ومحددة بأدوار متغايرة. فإذا سألت شخصاً إسرائيلياً من

العهد القديم "صف لي العلاقة الشخصية مع الله"، فسأحصل على إجابة تختلف تماماً عن نفس السؤال لو سألته لأحد تلاميذ المسيح أو بولس الرسول. لهذ السبب فإنني سأكتب في الجزء الباقي من هذا الفصل، وفي الفصلين التاليين عن كل أقنوم على حدة.

واختياري للكلمات قد لا يتسم بالإحترام والتقدير، ولكنني أقصد النظر إلى الثالوث الأقدس في ضوء "المزايا" و "العيوب" التي يفكر فيها كل شخص في عملية معرفته لله. فلا يوجد إنسان بإمكانه أن يفهم جوهر الله فهماً كاملاً. فنحن نعرف الله غير المنظور فقط كما يكشف الله ذاته لنا بتعبيرات مختلفة. وحينما يتنازل الله غير المنظور بطريقة يمكننا أن نستوعبها في عالمنا المادي، فنحن نستفيد في طرق معينة، ونعاني في أخرى.

كما أشار الكاتب تيم ستافورد قائلاً: أنه بالرغم من أن اللاهوتيين يميلون للتأكيد على صفات لله: القداسة، القدرة...، فهذه الطريقة العادية التي نعرف بها الأشخاص. فنحن نُعرِّف الناس بصفاتهم، ولكننا نعرف الناس من خلال أحاديثهم معنا: "أخبرني عن نفسك"، هكذا أبدأ حديثي عندما ألتقي شخصاً ما لأتعرف عليه، متوقعاً منه أن يخبرني: أين نشأ، وما نوع أسرته، وأين تعلم. وبمرور الوقت تتعمق الصداقة، ونتشارك خبراتنا، فتزداد معرفتنا لبعضنا البعض— مثلما يحدث معي و مع تيم ستافورد، وهو صديق حميم لي، وزميل سابق في الجامعة، فمجرد ذكر اسمه يذكرني: كيف كنا نجلس معاً في فناء ملعب التنس في الصباح الباكر، منتظرين شروق الشمس. أو كيف كان يخيفنا نعيق البومة ونحن في المعسكر معاً، نجري على شاطي مهجور في أفريقيا.

فبالمثل، نحن نعرف الله الآب مبدئياً من خلال القصص التي ذُكرت في العهد القديم، فالله قادر على أن يتواصل مع كل الخليقة في آن واحد، ومسانداً وجودها، مثلما كان يحتفل العبرانيون في مزاميرهم بالشكر. ومع ذلك، فقد إختار الله أن يتواصل عن قرب مع عشيرة من الناس، هم سلالة إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وازداد

قربه منهم، وتحرك بينهم أولاً في خيمة الإجتماع في البرية، ثم في هيكل بناه سليمان.

لقد شارك الله إقامته مع العبرانيين في خيمة، لا لأنه يحتاج إلى مكان ليعيش فيه، بل لأنهم محتاجون لوجوده الفعلي حتى يتعرفوا عليه أكثر. ومن الأمور الهامة أن الله أقام "عهداً" مع إسرائيل، إنه بمثابة عقد به شروط على كلا الطرفين. وكما قال العالم "باري ميللر": عندما يكون لك عهد مع الله فأنت لم تعد بعيداً عنه، بل أصبح لك إله بإمكانك أن تعتمد عليه، وتعرف ماذا تتوقع منه.

بالإضافة إلى ذلك، فقد ظهر الله بطريقة نادرة ودرامية للأفراد. فتحدث الله إلى قايين، وإبراهيم، وصموئيل، وأعطى نوح تعليمات مفصلة لبناء الفلك. وموسى رأى العليقة المشتعلة، وسمع صوت الله، وفيما بعد كان يُحادث الله "وجهاً لوجه". كما صارع يعقوب مع زائر الليل فحصل على اسم جديد، وبعد هذه الزيارة بدأ يعرج، وكان مندهشاً لأنه: "رأى الله وجهاً وجه، ولم يمت".

في كل هذه القصص يتصل الله بالعالم المادي في كل الجوانب، مصنماً- بشكل خاص- بالتركيز على نقطة واحدة، أن يختار جسداً، أو شجيرة، أو حلماً كوسيلة لإعلان حضوره بين البشر. يمكن للبشر أن يروا الله بحواسهم، وبعيونهم، وآذانهم. واستمر ظهوره في السحابة، وعمود النار في البرية، لفترة من الوقت.

وفي رقّة بالغة، كتب الشاعر جورج هيربرت عن تلك الفترة:

ما أعذب تلك الأيام، عندما أقمت مع لوط،

وناضلت مع يعقوب، وجلست مع جدعون،

وتشاورت مع إبراهيم...



ومن لا يتوق إلى مثل هكذا علاقة، أكيدة، ومحسوسة مع الله، والتي تمتع بها إبراهيم، وموسى؟ وكتابي المُسمى "خيبة أمل مع

الله"، تحدثت فيه عن ثلاثة اسئلة يسألها كثير من المؤمنين: هل الله محتجب.. هل الله صامت؟.. هل الله ظالم؟، وقد صُدمت بشدة وأنا أكتب هذا الكتاب، بأن تلك الأسئلة لم تُسبب أية مشكلة للعبرانيين، وهم في برية سيناء. لقد رأوا دلائل واضحة لوجود الله كل يوم، وسمعوه يتكلم، واتفقوا على شروط عقد عادل، وقعه الله بيده.

ظهرت من هذه العلاقة هدية اليهود العظيمة للعالم: التوحيد، الإيمان بإله واحد، الله القدوس. وانتبذ الأنبياء الأصنام المصنوعة من الخشب والحجارة، ومنها عبدوا الله الحي الحقيقي، صانع الخشب والحجر.

إن الأمريكيين المحدثين، الذين يميلون لمعاملة الله كرفيق كوني طيب، بإمكانهم أن يأخذوا دورة دراسية تجديدية عن عظمة الله في العهد القديم. قال الراعي والكاتب "جوش ماكدويل": إن محبته لله قد تحولت بعيداً من النموذج العاطفي الذي لن يُشبع، إلى شيء قريب من نموذج الآب والابن. لقد تعلم أن يحترم ويطيع، ويشكر الله، ويعبر عن أسفه من أجل عيوبه وأخطائه، وأن يسعى إلى هدوء وسكينة يتمكن فيها من سماع همسات الله. وبمعنى آخر، إنه يسعى لعلاقة مع الله تتناسب مع الفرق العميق بين الطرفين. ويضيف "جوردون" هذا التحذير: "إن أكبر الخطايا المكلفة التي إرتكبتها جاءت في وقت أوقفت فيه إحترامي وتقديري لله: ففي مثل هذه اللحظة استنتجت بهدوء أن الله لا يهتم، ولا يتدخل، لو أنني غامرت وعصيت إحدى وصاياه".

لقد شعرت أنني بحاجة للعودة إلى ثقافات أخرى لأوجد نوعاً من التوازن مع الأسلوب الأمريكي الإنجيلي للإقتراب إلى الله. فمثلاً؛ كتب لي صديق ياباني أنه فهم الروح الصحيحة للصلاة بطريقة أفضل عندما أصغى إلى مؤمنين يابانيين أكثر منه عند سماعه تعليم المرسلين الأمريكيين. وقال: "نحن نعرف كيف نأتي إلى الله كعبيد متواضعين. وأنت لست مضطراً أن تخبر اليابانيين عن الكهنوت والأساقفة. فعندما يعرفون ويتعلمون أن الله هو الرب فهم يعرفون

فوراً مضمون ذلك. إنهم يعلمون من هو الرئيس، ولا يشككون في ذلك. وعندما يصلّون يستخدمون لغة تربط بين أفضل أشكالها وأكثرها سمواً، مع أكثر عبارات الحب والتكريس حميمية. وعندما يطلبون شيئاً فهم يطلبونه بتواضع حقيقي، عالمين أنه لا يحق لهم في ذلك إلا أن الله يعطيهم الحق في الطلب، ويعد بالإستجابة".

يؤكد العهد القديم على هذ الشيء العجيب، والمدهش، وهو أن الله العظيم، القدوس، يرغب في التواصل مع خليقته الخاطئة. الله يريد أن يتواصل مع الناس، وهذا يوضح لنا لماذا استمر في محاولاته مع الإسرائيليين المتمردين. إله عظيم القدرة يخلص شعبه من أقوى الإمبراطوريات على الأرض، ويشتاق لأن يتنازل ليسكن بينهم في خيمة. وفي كل مرة، بغض النظر عن مدى بعدهم عنه، برهن الله على أنه عمانوئيل "الله معنا". لقد صنع ملابس لآدم وحواء بعد سقوطهم، وأعطى إبراهيم، وموسى، فرصة تلو الأخرى محتملاً عدم أمانة شعب إسرائيل له، ومع ذلك؛ رجع إليهم وقدم لهم مزيداً من الحب.

في الحقيقة؛ لقد كانت محبة الله، وليس قوته، هي التي أسرت العبرانيين وأثرت فيهم. وانتهز إسرائيل الفرصة عندما أدركوا أن الله يهتم بهم، وبمعاناتهم في مصر: "عندما سمعوا أن الرب مهتم بهم، ورأى مذلتهم، سجدوا له وعبدوه". كم كان الله في نظرهم مختلفاً كثيراً عن آلهة المصريين القاسية.

يوضح لنا العهد القديم "إمتيازاً" واضحاً: أن هذ الإله العظيم له طاقة غير محدودة للتواصل مع البشر كأفراد. فهو ليس مثل المشاهير من الناس الذين لهم هيئة سكرتارية ويحددون موعداً للزيارة. "الله يحب كل واحد منا كما لو أنه يوجد شخص واحد فقط لكي يحبه"، هذا ما قاله القديس أوغسطينوس.

يتعامل الله الآب مع كل خلائقه بإهتمام بالغ، مثلما وضّح ذلك يسوع في تعليقه عن أن كل شعورنا محصاة لديه. وقد أشرت سابقاً إلى صديقي ستانلي الذي قال: " لا يمكنني أن أصدق أنه في

عالم يصل تعداد سكانه ستة بلايين نسمة، وأن الله يعرف إسمي". وباختصار، لأن الله غير محدود فبإمكانه أن يهتم بالستة بلايين نسمة، كل واحد على حدة وبشكل خاص، وبدون أن يشعر بأي نوع من النقصان، أو الإستنزاف. وهذا ما يعني أن يكون إلهاً. إن العهد القديم يكشف لنا عن أب له شهية غير محدودة للمحبة.



ما هي تلك "العيوب" التي يقدمها العهد القديم من جراء معرفة الله؟ ربما تكون أفضل طريقة للإجابة على هذ السؤل الوقح هو إقتباس ما قاله يهودي معاصر، والذين من أجلهم يقدم العهد القديم رؤيا الله الكاملة مكتوبة، يقول جيرشوم شوليم: إن اليهودية ما زالت تخاطب نفسها على أساس "الهوة الواسعة" بين الله والإنسان. ويعترف أن اليهودي الحديث "يتخيل البعد الكبير و الرئيسي" بينه وبين الله. وقد فات على شوليم أن رسالة الله هي في أنه يرغب في أن يقيم علاقة وصلة بينه وبين الإنسان.

إن المحبة تتناقص كلما إزدادت القوة، والعكس صحيح. ونفس القوة التي إستحوذت على الإسرائيليين مرات عديدة صعّبت الأمر عليهم لكي يعرفوا محبة الله. ويقف الآباء شامخين ليغرسوا الإحترام في أطفالهم، وينحنون كثيراً ليحتضنوهم ويظهرون لهم كل حب. وفي العهد القديم يقف الله شامخاً وعظيماً. وإذا أردت أن تعرف أي نوع من "العلاقة الشخصية مع الله" كان يستمتع بها الإسرائيليين وهم يصغون لهذه لكلمات: "إننا سنموت! وأي شخص يقترب من تابوت العهد سوف يموت"... "لا نريد أن نسمع الرب إلهنا، ولا أن نرى هذه النيران العظيمة مرة أخرى، وإلا سنموت".

"إن سماع صوت الله للآذان الفانية هو أمر مميت"، هكذا كتب الشاعر ميلتون. والذين دونوا العهد الجديد، لأنهم تدربوا في المدارس العبرية، وتربوا في بيوت يهودية مخلصة، أظهروا القليل من الشعور بالحنين إلى مرحلة العهد القديم. لقد إحترموها

كفترة إعداد لمجيء المسيح. وطبقاً لما قاله بولس الرسول، وهو في الأصل يهودي تعرّف على الكثير من فوائد العهد القديم (إقرأ رومية ٩ - ١١) يقول إن هذا الترتيب فشل في تحقيق أهم أهدافه: إنه لم يعد أو يوجد نمواً روحياً.

كلما إزداد الضوء قوة، كلما إشتد ظلام الظلال من حوله. إن ظل الله لاح وبدى بفوة حتى أنه أعاق ومنع النمو. وكمثل الأطفال الذين يعتمدون على والديهم، إشتكى الإسرائيليون وثاروا كثيراً حتى أن الرحلة السهلة التي كانت لا تستغرق أكثر من إسبوعين، إستمرت أربعين سنة. وعندما أدخلهم الله أبوهم إلى أرض الموعد، وتراجع عنهم قليلاً، وعن هذه الشركة القريبة معهم— توقف نزول المن بعد عبورهم نهر الأردن— خطوا خطوات عرجاء وسقطوا على وجوههم. وسيلي ذلك أمور معجزية.

وقد إستنتجت أن معظم المسيحيين اليوم يتجنبون قراءة العهد القديم لسبب بسيط وهو أنهم وجدوا الله موصوفاً على أنه مخيف وبعيد. وتقول دوريس ليسنج في عبارتها الساخرة: "إن يهوه لا يفكر أو يتصرف كمن يعمل في الحقل الإجتماعي". وبدلاً من ذلك فهو يتصرف كإله قدوس، محاولاً بكل إجتهاد أن يتواصل مع أناس مشاكسين ومتخاصمين. وتعودت في قراءتي للعهد القديم أن أبحث عن طرق تجعل الله مقبولاً وأقل عنفاً. والآن أركز على أن أجعل نفسي مقبولاً لدى الله، وكان هذا هو الهدف من العهد القديم. إن الله كان يسعى لإقامة علاقة وثيقة مع شعبه حتى وإن كان بشروطه هو.

أستمع إلى رأي الله في أزمنة العهد القديم: "ولكن شعبي لا يسمع إليّ، وإسرائيل لا يخضع لي. لهذ أسلمتهم إلى قلوب عنيدة ليفعلوا ما يريدون".

كان الله يشكو لإرمياء كما لو أنه صُدم مما يفعله الشعب وقال: "إبحثوا وتحققوا بين الأمم. من سمع كلاماً مثل هذا؟ إن إسرائيل العذراء إرتكبت أمراً مريعاً... شعبي قد نسيني. إنهم قد

تركوني".

وبعدما استشهد أبرهام هيسشيل بعشرات العبارات مثل هذه قال: "إن نغمة الحزن تظهر بوضوح في كلمات الله..." ويواصل القول: "إن محنة إسرائيل تسبب حزناً وأسىً لله... تشردهم في الأرض، وفي العالم... إن هجران إسرائيل وتشردهم ليس مجرد إساءة لإنسان بل إهانة لله. وهذا هو صوت الله الذي شعر بأنه نأي بنفسه عنهم، وتألم وجرحت مشاعره".

توضح إختبارات بني إسرائيل أن الله يمكن أن يبتعد بعيداً، أو يحتجب كنتيجة لما يفعله شعبه. ويسمح الله، في بعض الأحيان، أن نقرر مدى قوة حضوره.

يضم مشهد من العهد القديم كلا من الجانبين للعلاقة مع الله الآب. ويظهر هذا المشهد في (١ ملوك ١٨) في وقت ساءت فيه حالة بني إسرائيل إلى أسوأ درجة. حيث قام الملك آخاب وزوجته إزابيل بذبح أنبياء الله وحلوا محلهم أنبياء البعل. وفي موجهة قوية تحدى إيليا ٨٥٠ من أنبياء البعل. وبينما كان إيليا يسخر منهم جرحوا أنفسهم بالسيوف حتى سالت دماؤهم وهم يصيحون لآلهتهم طوال اليوم، ولكن بلا جدوى أو جواب. وأخيراً؛ وعند غياب الشمس، بني إيليا المذبح، وملأه ثلاث مرات بالماء— حدث هذا كه بعد ثلاث سنوات من الجفاف— ودعى إيليا الله لكي يعلن ذاته: "فنزلت نار الرب وأكلت المحرقة، والحجارة، والتراب، ولحست المياه التي في القناة. فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا: الرب هو الله.. الرب هو الله".

فإذا كنت القصة قد إنتهت هناك، فإننا نستعيد ذلك بحنين شديد لأزمنة العهد القديم. ولكن هذا لم يحدث. ولم تحدث نهضة بين العبرانيين، والملك آخاب، الذي كان يراقب كل شيء وهو في الصفوف الأمامية الأولى على جبل الكرمل، ترك أسوأ تراث للشر،

لأنه كان من أكثر ملوك بني إسرائيل خداعاً. وأعاد آخاب وزوجته بسرعة سيطرته على الحكم والدين. وإيليا نفسه الذي إستجابه الله بنار، وذبح ٨٥٠ من أنبياء البعل في يوم واحد، هرب لحياته خوفاً من إيزابل. وقال في ألم: "كفى يا رب خذ نفسي".

في تصرف إتسم بالرقة والحنان، زار الرب إيليا وهو في قمة يأسه. وما حدث بعد ذلك يتحدث عن نوعية الأسلوب المؤثر عندما يقرر الله، كلي القدرة، أن يتواصل مع الإنسان الضعيف: "...وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسّرت الصخور أمام الرب، ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت خفيض خفيف. وسمع إيليا الصوت المنخفض الخفيف. وظهر الله لنبيه إيليا كما لو كان ساكناً".

"لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الْعَلِيُّ الْمُرْتَفِعُ سَاكِنُ الأَبَدِ الْقُدُّوسُ اسْمُهُ: «فِي الْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ الْمُقَدَّسِ أَسْكُنُ وَمَعَ الْمُنْسَحِقِ وَالْمُتَوَاضِعِ الرُّوحِ لأُحْيِيَ رُوحَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَلأُحْيِيَ قَلْبَ الْمُنْسَحِقِينَ."

إشعياء ٥٧: ١٥



١١ - حجر رشيد

"نحن نتوق إلى قصة كاملة وليس أقل من ذلك، وأثناء ثرثرتنا وإصغائنا طوال حياتنا في ضجيج هذا الشوق- النكات، الروايات، الأحلام، الأفلام، المسرحيات، الأغاني، نصف كلمات أيامنا- نحن نقنع فقط بالقصة القصيرة التي نشعر بصدقها: التاريخ هو إرادة إله عادل يعرفنا"

رينولدز برس



تراجع إلى الوراء للحظة تأمل في وجهة نظر الله. روح لا ترتبط بالزمان أو المكان، استعار الله أشياء مادية بين الحين والآخر- عليقة مشتعلة، عمود نار- لكي يعرّف ذاته لكوكب الأرض. وفي كل مرة استخدم الله شيئاً لكي يوصلّ رسالة ما، مثل الممثل الذي قد يرتدي قناعاً، ثم يواصل مسيرته. وفي المسيح حدث شئ جديد: الله أصبح واحداً من خلائق هذا الكوكب (الأرض)، حادثة لا مثيل لها، ولم يُسمع عنها، فريدة بكل معنى الكلمة.

الله الذي يملأ الكون كله أخذ صورة طفل صغير، ومثل باقي

أطفال العالم، كان عليه أن يتعلم المشي والكلام وارتداء الملابس بنفسه. وفي تجسده، تعمّد ابن الله أن "يُعيق" نفسه مستبدلاً معرفته غير المحدودة بعقل يتعلم الآرامية، ووجوده الكلي بقدمين تحملانه أو في بعض الأحيان استخدم حماراً في تنقلاته، وكلي القدرة بأذرع قوية قادرة على نشر الخشب ولكن أضعف من أن يدافع بها عن نفسه. وبدلاً من قدرته على رؤية مئات البلايين من المجرات في لمحة واحدة، كان ينظر إلى ما في حارة ضيقة من حواري الناصرة، أو كومة من الحجارة في الصحراء اليهودية أو إلى شارع مزدحم في أورشليم.

وتلميذه يوحنا - الذي عرفه جيداً - أدلى باعترافه الشخصي عندما كتب هذه الكلمات: "كان في العالم، وكُون العالم به، ولم يعرفه العالم". استمر التلاميذ في توقعهم بأن يتصرف كإله حقيقي. ارتدى هيكلاً لجسده مرة، ولكن ماذا عن قصر هيرودس، وقاعة مجلس الشيوخ الروماني والكولوسيوم؟ إن تعبير الله الكامل - (الجسد) اتسم بالضعف - ما كان سيكون بهذه الصورة لو ارتداه أي شخص آخر.

وتسجل الأناجيل أن يسوع احتفظ بقدر معين من القوة. في بعض المرات كان يشعر بالأحداث بطريقة خارقة للطبيعة وكان له حس داخلي حاد عن كيفية نهاية حياته. كان بإمكانه شفاء الأجساد المكسورة حتى وإن كانت بعيدة عنه لو طلب منه ذلك بإلحاح. وفي إحدى المرات غيّر الطقس. ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يخطئ النجار الذي من الناصرة عن الروح المذهل المذكور في سفر الرؤيا، والأقنوم الثاني من اللاهوت الأقدس الذي قال عنه ميلتون: "صعد ليرث العرش ..." ولا أحد يمكنه أن يخطئ في معرفة صوت يسوع، الذي في نهاية حياته ضعف عن أن يصرخ ويتنفس، مع الزئير المدوي ليهوه.

في عام اشتهرت أغنية لـ جون أوسبورن وكتبوا على لوحات الإعلانات يتساءلون ما هو الفرق الذي سيحدث لو أن الله أصبح

واحداً منا "مجرد ساذج كواحد منا" غريب يركب الأتوبيس عائداً لمنزله. والبعض وجد أن هذه الكلمات مدنسة للمقدسات - تماماً مثل رد فعل عائلة يسوع وجيرانه وأهل بلدته الذين وجدوا صعوبة في تخيلهم أن الله يصبح "واحداً منهم". وبكل المقاييس عاش يسوع حياة مأساوية: إشاعات بأنه ابن غير شرعي، واتهامات بالجنون من عائلته، والرفض من معظم الذين سمعوه، والخيانة من أصدقائه، وانقلاب الجماهير الهمجي ضده، ومجموعة من المحاكمات الساخرة، وإعدامه بوسيلة كان يُعدم بها العبيد وعتاة المجرمين. إنها قصة جديرة بالشفقة وهذه هي قلب الفضيحة: إننا لا نتوقع أن نشفق على الله.

كيف تعرف الله شخصياً؟ في أيام المسيح كانت الإجابة مذهلة: أنت تعرفه بنفس الطريقة التي تعرف بها أي شخص آخر. تُعرّف نفسك، وتتصافح، وتبدأ الحديث وتسأل عن أسرته. وبسبب مجئ يسوع لا نحتاج لأن نتساءل عن رغبة الله في إقامة علاقة وثيقة معنا. هل الله حقيقة يريد أن يقيم علاقة حميمة معنا؟ لقد تخلى المسيح عن السماء من أجل هذا السبب؟ وبشخصه أعاد إقامة العلاقة الأصلية بين الله والإنسان، وبين العالم المنظور وغير المنظور.

طبيب سويسري ومؤلف يدعى بول تورنيه يذكر إحدى "المزايا" الواضحة للتواصل مع الأقنوم الثاني من اللاهوت. يقول: أنه قبل الحكم السائد الآن في إيران، دعاه أحد آيات الله ليخطب في إحدى مساجد طهران. فأخبر تورنيه المسلمين بالمسجد والذين كانوا يستمعون إليه بانتباه أنه هو - بروتستانتي من جنيف - شعر بقربه منهم لأن جون كالفن أعطى أتباعه نوعاً من الحساسية الشديدة لعظمة الله غير المحدودة، تماثل الصفات الشخصية لله. وهذا يفرض نوعاً من الخطر، لأن الشخص الذي يعيش في يقظة دائمة للمسافة الكبيرة بين الله وخليقته يمكن أن ينحرف إلى الإيمان بالقضاء والقدر. وواصل تورنيه كلامه قائلاً: بخلاف الإسلام، تقدم المسيحية توازناً في علاقتنا الحميمة مع المسيح.

لقد كشف المسيح عن جانب جديد وحميم في علاقتنا مع الله، علاقة شخصية حتى أنه استخدم كلمة "أبانا" عندما نخاطب الله. (العهد القديم يشير إلى الله كأب ١١ مرة، والعهد الجديد ١٧٠ مرة). كانت هناك ترنيمة يرنمونها أثناء فترة تجارة العبيد في أمريكا وتحمل معنى هذا الامتياز العملي للتجسد. لقد وجد العبيد صعوبة عند اقترابهم إلى الله العظيم، ولم يستطيعوا التخلص بسهولة من كلمات مثل السيد والرب. ولم يكونوا بحاجة إلى إله يخافونه أو بعيد عنهم، ولكنهم كانوا بحاجة إلى إله قريب منهم، إله شخصي يمكنهم أن يروه ويحبوه.

إلهي عالٍ جداً، لا تستطيع أن ترتفع إليه،
وهو منخفض للغاية، لا تستطيع أن تصل إليه،
وهو متسع جداً، لا تستطيع أن تُحدّه،
يجب أن تأتي إليه من خلال الحمل.

وجاء يسوع من السماء وقربنا إلى الله. ولم يمكّننا فقط من فهم الله بطريقة أفضل بسبب المسيح بل أن الله أفهمنا نحن أيضاً بطريقة أفضل وتعبر عن ذلك ترنيمة أخرى:

لا أحد يعلم المصاعب التي واجهتها،
لا أحد يعلم ذلك إلا يسوع وحده .. مجداً، هللويا

ومن خلال يسوع يشعرُ الله بحالتنا الإنسانية بطريقة مختلفة. وتتحدث الرسالة إلى العبرانيين عن أبعاد جديدة عن يسوع فتقول: "إنه تعلم الطاعة" و"تكمّل مما تألم به" هذه الكلمات المملوءة بالغموض تتضمن أن التجسد يحمل معنى لله ولنا نحن أيضاً. الله لن يشعر بألم جسدي لأنه روح- كيف يحدث ذلك وهو ليس له خلايا عصبية؟ لقد عرف شيئاً عن الألم مثلما نعرف نحن كبشر، من خلال الاختبار الشخصي. ومن بين الحدود الكثيرة التي قبلها الله عند مجيئه إلى الأرض هو المعاناة الجسدية، التي عرفها يسوع في أسوأ صورها. لقد كان يضطرم شوقا لأن يكون معنا.

وقد توصل كاتب الرسالة إلى العبرانيين إلى درس هام عن هذه

الحقيقة: "لأنه ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا. بل مجرب في كل شئ مثلنا بلا خطية". لذلك فهو قادر أن يترفق بالجهال والضالين. ومن خلال يسوع، يفهم الله تماماً ما معنى أن نكون بشراً. وفي الحقيقة لا يعرف أحد المصاعب التي نواجهها إلا الرب يسوع.

وأسترجع باستمرار هذه الحقيقة عن الرب يسوع، لأنني كمسيحي مؤمن وكاتب أمضيت وقتاً طويلاً لاكتشاف أسرار الألم والمعاناة. وصادفتني الكثير من الأسئلة والإجابات. ورغم ذلك فقد تعلمت مبدأ هاماً: لا تحكم على الله من خلال أمر سيئ حدث لك أو لشخص تحبه. فأسئلتي عن العناية الإلهية والمعاناة أجد إجاباتها أولاً في شخص المسيح، وليس في الأحداث اليومية التي قد أواجهها الآن. وعندما جاء ابن الله للأرض جلب معه الشفاء وليس الألم، وعندما ترك الأرض وعد بالمجيء ثانية ليستردها لقصد الله الأصلي. وقد قدم لنا جسده المقام كبرهان على ذلك.

ولا يمكنني أن أتعلم من الرب يسوع لماذا تحدث الأمور السيئة، لماذا يدمر فيضان مدينة معينة ولا يدمر مدينة بجوارها، ولماذا يصاب طفل بالسرطان ولا يصاب به طفل آخر، ولكن بإمكاني أن أعلم بالتأكيد كيف يشعر الله بمثل هذه المآسي. وأنظر ببساطة إلى كيفية استجابة يسوع لأخوات صديقه العزيز لعازر، وللأرملة التي فقدت ابنها، وللأبرص المحجوز خارج بوابات المدينة. إن يسوع يوجه وجهه المملوء بالدموع نحو الله.

وفي تشابه جزئي شبه ريتشارد نيبور رؤية الله في المسيح بحجر رشيد. فقبل اكتشاف هذا الحجر كان بإمكان علماء الآثار المصرية أن يخمنوا معاني اللغة الهيروغليفية فقط. وفي يوم لا يُنسى كشفوا عن حجر به نفس النص باللغة اليونانية، واللغة المصرية العادية واللغة الهيروغليفية. وبمقارنة الترجمة جنباً إلى جنب أتقنوا الهيروغليفية وتمكنوا الآن من أن ينظروا بوضوح إلى عالم كان يكتنفه الضباب. وواصل نيبور حديثه قائلاً: أن يسوع

المسيح سمح لنا أن "نعيد بناء إيماننا". يمكننا أن نثق في الله لأننا نثق في المسيح. وإذا شككنا في الله أو لم نفهمه ولم نعرفه، فإن أفضل علاج لذلك هو أن نثبت نظرنا باستمرار في الرب يسوع الذي هو حجر رشيد للإيمان.

وسأستخدم صورة مختلفة عن تلك التي استخدمها نيبور، وسأتصور يسوع "كالنظارة المكبرة" لإيماني، وهي عبارة تحتاج إلى بعض التوضيح. إنني أفتخر بأنني أمتلك قاموس أوكسفورد الذي يحتوي على كل كلمة في اللغة الإنجليزية. وهو يتكون من ترجمتين واحدة للمكتبات وأخرى لمحبي الكتب، ويتكون من عشرين مجلداً ويبلغ ثمنه ثلاثة آلاف دولار. وعن طريق نادي للكتاب حصلت على طبعة خاصة في مجلد واحد بمبلغ أربعون دولاراً. وهو يحتوي على كل القاموس ولكن به عيب واحد وهو صغر حجم الكتابة الشديد حتى أنه لا يمكنك قراءته بدون نظارة مكبرة. ثم اشتريت نظارة مكبرة فخمة لتساعدني في قراءة معاني أية كلمة في اللغة الإنجليزية.

وتعلمت شيئاً عن النظارة المكبرة عندما استخدمتها في قراءة القاموس. فعندما أركزها على كلمة لقراءتها تظهر الكلمة الصغيرة بوضوح عند مركز النظارة أما عند أطراف العدسة فتظهر باهتة ومشوهة. وفي تشابه متطابق، أصبح الرب يسوع نقطة التركيز في إيماني وبالتدريج أتعلم أن أبقي نظارة إيماني المكبرة مركزة على يسوع. وفي رحلتي الروحية مع الرب وأيضاً في عملي بالكتابة بقيت طويلاً على الهوامش متأملاً في أسئلة لا إجابة لها عن مشكلة الألم، وألغاز محيرة في الصلاة، والعناية الإلهية ضد الإرادة الحرة، وأمور أخرى مثل هذه. وعندما أفكر في هذا كله يرتبك كل شئ في ذهني. ومع ذلك فعندما أنظر إلى يسوع يتضح لي كل شئ.

فمثلاً يترك الكتاب المقدس الكثير من الأسئلة بلا إجابة فيما يختص بمشكلة الألم، ولكن في يسوع أرى دليلاً لا يخطئ بأن الله ليس هو السبب في معاناتنا الخاصة. فمن إسهامات ومآثر يسوع بالنسبة لي هو أنه كشف لي أن الله هو "إله كل تعزية".

لماذا لا يجيب الله صلواتي؟ أنا لا أعرف، ولكن من الأمور المعينة لي أنني أدرك أن يسوع نفسه يعرف شيئاً عن انزعاجي وتوتري. وفي جَثْسَيْمَانِي ألقى بنفسه على الأرض طالباً بصراخ عظيم وسيلة أخرى لخلاص البشرية ولكن لم يكن هناك طريق آخر. وصلى لكي تُظهر الكنيسة نفس الوحدة الموجودة في الألوهية، صلاة لم تُستجب حتى اليوم. وصلى: "لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض" في حين أن أية جريدة يومية توضح بما تتضمنه من أحداث أن تلك الصلاة لم تُستجب بعد.

وبإمكاني أن أضع نفسي في حالة من القلق وعُسر الهضم الروحي بسبب أسئلة مثل "ما الفائدة من الصلاة إذا كان الله فعلاً يعلم كل شئ؟ ويسوع يُسكت مثل هذه الأسئلة: إذا كان يسوع شعر بالحاجة للصلاة، وأحياناً شعر بحاجة ملحة حتى أنه قضى الليل كله في الصلاة، وهكذا يجب أن أفعل أنا.

وأعترف كثيراً أن التعاليم المسيحية تضايقني. فماذا عن الجحيم - هل سيكون بها عذاب أبدي؟ ماذا عن أولئك الذين يعيشون ويموتون دون أن يسمعوا شيئاً عن الرب يسوع؟ وأعود إلى إجابة المطران أمبروس Ambrose المرشد الروحي للقديس أوغسطينوس، الذي سُئل وهو على فراش الموت ما إذا كان يخشى مواجهة الله في الدينونة. فأجاب بابتسامة: "إن سيدنا سيد صالح". وتعلمت أن أثق في الله عند شكوكي وصراعاتي بأن آتي إلى يسوع. وإذا بدا هذا الأمر غامضاً، فإنني أقول أنه بدقة يعكس مركزية يسوع في العهد الجديد. ولنبدأ معه كنقطة المركز ولندع عيوننا تتجول بعناية على الهوامش.

وكامتياز كبير في معرفة الله، فإن الرب يسوع يقدم صورة مقربة

عن أفضلية الله الخاصة. ما يشغلني في كوكب الأرض الظلم، الفقر، التفرقة العنصرية، الجنس، سوء استخدام القوة، العنف، المرض- يشغل ويضايق الله أيضاً. وعندما أنظر إلى يسوع أكتسب بصيرة عن كيفية شعور الله تجاه ما يحدث من مشاكل على الأرض. ويعبر يسوع عن جوهر الله بطريقة لا يمكن أن نسيئ فهمها.

كتب هنري درموند ما يلي: "من الأفضل لي أن أمتلك ولو قليل من الإيمان وأربح ... عن الموت ولدي الكثير من الأفكار عن العقائد". وبالنسبة لي فإن قلب الإيمان "هو الذي يربح" ويستقر مستريحاً في المركز الذي هو المسيح.

في رسالة كولوسي صرّح الرسول بولس بتصريح غاية في القوة عن الرب يسوع قائلاً: "إذ جرّد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (في الصليب)" وبالنسبة لبولس، يقدم موت المسيح لنا ميزة الانتصار. وعند قراءتي لهذه الآية يزداد شكي: بكل تأكيد يا بولس.. أنظر إلى ما حولك.. هل العالم الذي نعيش فيه يمثل حقيقة ذلك العالم الذي انتصر فيه الله على قوى الشر. ثم أتذكر أن بولس كتب هذه الكلمات عندما كان مسجوناً في روما، كرهينة للقوة العظيمة في تلك الأيام. وبعد فترة وجيزة - تحت حكم نيرون- سيكون مع المسيح في موكب الشهداء.

ونعرف من آيات أخرى أن بولس ثبّت حياته على إيمانه بأن ما حققه الله في قيامة ابنه بهزيمته لقوة الموت، سوف يحققه أيضاً لكل الذين تبنون على كوكب الأرض. ومع ذلك، ففي هذه الآيات المذكورة في رسالة كولوسي على وجه الخصوص، لا يقول الرسول بولس شيئاً عن القيامة ويركز كل نظرته وتفكيره على الصليب. تُرى؛ إلى أي انتصار كان الرسول بولس يشير؟

في السنوات الأخيرة اكتشف فيلسوف فرنسي يدعى رينيه جيرالد نفس هذا السؤال، ودرس بعمق، حتى أنه تسبب في رعب زملائه

الذين كانوا معه في الجامعة لأنه تحول إلى المسيحية. وقد تأثر جيرالد للغاية بقصة يسوع التي تختلف عن كل قصص البطولة في تلك الأيام. فأساطير بابل واليونان وأماكن أخرى تحتفل بالأبطال الأقوياء وليس بالضحايا الضعفاء. وعلى النقيض من ذلك، فمنذ البداية اتخذ يسوع جانب المظلومين: الفقراء، المضطهدين، المرضى، والمهمشين. واختار يسوع أن يولد فقيراً ومهاناً، وأمضى طفولته كلاجئ، وعاش مع شعب ضعيف وقليل العدد تحت حكم ظالم، ومات كسجين، واتُهم ظلماً.

وأُعجب يسوع بأناس مثل الجندي الروماني الذي اهتم بعبده الذي كان على وشك الموت، وبزكا العشار الذي أعطى ثروته للفقراء، وبالسامري الصالح الذي توقف لمساعدة الرجل الذي سرقه اللصوص وجرحوه وتركوه بين حي وميت، وبالخاطئ الذي صلى صلاة بسيطة طالباً "المساعدة"، وبالمرأة الأممية الخجولة التي وصلت إليه في يأسها من مرضها محاولة أن تلمس هُدب ثوبه، ولعازر الشحاذ الذي كان يأكل من الفتات الساقط من مائدة الرجل الغني. ولم يوافق على ما فعله رجال الدين الذين رفضوا مساعدة المجروح على الطريق خوفاً من تدنيس ملابسهم، ولا رجل الدين المتكبر الذي احتقر الخطاة، ولا الغني الذي كان يقدم مجرد الفتات للجوعى، ولا الأخ الأكبر الذي رفض استقبال أخيه الضال عند عودته، ولا الأقوياء الذين عاشوا على مجهودات وتعب الفقراء.

وعندما مات يسوع نفسه هذه الميتة الشائنة كضحية بريئة، فقد عرّف بذلك ما دعاه أحد تلامذة جيرالد "أهم ثورة تاريخية كاسحة في العالم"، والتي تُدعى، "الموت النيابي عن الضحايا والخطاة". لا يوجد في أي مكان إلا في الكتاب المقدس يمكنك أن تجد قصة قديمة عن شخص برئ ومع ذلك- الذي يمكن أن نطلق عليه البطل الضحية- قد أُخِذَ عنوة إلى الموت. وبالنسبة للقدماء استحق الأبطال البطولة أما الضحايا فيستحقون الشفقة.

وطبقاً لما يقوله جيرالد فإن المجتمعات تؤكد قوتها من خلال

"العنف المقدس". فالمجموعة الكبيرة (مثل النازية الألمانية أو القوميين الصرب) يتخذون من الأقلية ضحية ليوجهوا نحوهم وضدهم عنفهم المبرر، والذي بدوره يوحّد الغالبية ويزيد من شجاعتها. واستخدم اليهود والرومان هذا الأسلوب ضد يسوع ولكنه أعطى نتائج عكسية. قال رئيس الكهنة قيافا: "من الأفضل لكم أن يموت واحد من أجل الشعب بدلاً من أن تهلك كل الأمة". ولكن بدلاً من ذلك فإن الصليب حطم المقولات التي صدقوها لفترات طويلة عن الضحايا الضعفاء والأبطال الأقوياء، لأن الضحايا هنا أصبحوا أبطالاً.

ولمس الرسول بولس حقيقة عميقة عن مشاركة وإسهام يسوع الذي يبدو متناقضاً ظاهرياً، وظهر هذا في تصريحه لأهل كولوسي. لقد جرّد يسوع الرياسات والسلاطين من قوتها والتي كان يفتخر بها الرجال والنساء في ذلك الوقت. والديانة العظمى في ذلك الوقت (اليهودية) اتهمت شخصاً بريئاً، وأشهر نظام للعدالة في تلك الأيام نفذ فيه حكم الإعدام. وقد علّق أحدهم بالقول: "إن يسوع قلب الموازين". ركز الإنجيل على ذلك الصليب الذي غيّر القيم التي أثرت على كل العالم لفترة طويلة. فاليوم يحتل الضعفاء والضحايا قدراً كبيراً من الاهتمام الأخلاقي: فلقد شهدنا أن جائزة نوبل للسلام تُمنح لرجل دين أسود من جنوب أفريقيا، ولرئيس اتحاد عمال بولندي، وشخص كُتبت له النجاة عن ضحايا الهولوكوست، وفلاحة من جواتيمالا، ومطران مّضطهد في تيمور الشرقية. وتوصل جيرالد إلى نتيجة أن احترام العالم وعنايته بالمهمشين والمحرومين هو نتيجة مباشرة لصليب ربنا يسوع المسيح.

إن النساء والفقراء والأقليات والمعاقين والمدافعين عن البيئة وحقوق الإنسان- كل هؤلاء استمدوا قوتهم من القوة التي انطلقت عند الصليب، عندما أخذ الله جانب الضحايا والفقراء. وفي سخرية بالغة، فإن "الحركات السياسية الصحيحة" التي تحمي تلك الحقوق غالباً ما تضع نفسها في موضع العداء للمسيحية، بينما في حقيقة الأمر نجد أن الإنجيل هو الذي ساهم في تدعيم هذه الحركات

وتأسيسها.

إن الله الذي أظهر ذاته في المسيح أذهل العالم وحتى بعد ألفي سنة لم يتوقف هذا الذهول. وفي ثقافة تمجد النجاح وتُحمل المعاناة، نحتاج إلى من يذكرنا باستمرار أنه في مركز الإيمان المسيحي عُلق مسيح معذّب مات في هوان.



أستاذة تاريخ الكنيسة روبرتا بوندي، تخبرنا عن قصة شخصية كيف أن حنان يسوع على الضعفاء والمظلومين أذابت مقاومتها ضد الله وساعدتها على تصحيح الصورة السيئة التي كونتها عن الله. لقد قاومت ولفترة طويلة عبارة "الله الآب" وذلك لأن والدها كان قاسياً وعنيفاً معها. فلم يتسامح مع أي ضعف أو تقصير أو عصيان سواء من الأبناء أو من الزوجة ومنع أي منهم من أن يسأل لماذا؟ وكانت صورته عن مكانة المرأة: أن تكون جميلة.وطيبة وهادئة وخاضعة.

وحاولت روبرتا أن تُرضي والدها ولكنها لم تستطع أن تكون مطيعة أو هادئة ولهذا قضت فترة طفولتها وهي تحمل عبئاً ثقيلاً لأنها لم تتمكن من إبداء الطاعة الكاملة لأبيها. وترك الأب الأسرة قبل أن تبلغ روبرتا الثانية عشر، وكانت ترى والدها مرة كل عام. وانتشر الغضب كالمرض المعدي في داخلها، وعندما كانت تسمع عبارة "الله الآب" كانت تغضب وتثور.

وقادتها ظروف دراستها إلى أوكسفورد، حيث درست "آباء الكنيسة الأوائل" وفي كتابات الرهبان المسيحيين الذين عاشوا في الصحراء المصرية، اكتشفت صورة مختلفة عن الآب السماوي: إلهاً لطيفاً يحب من يحتقرهم العالم ويتفهم ضعفاتنا وتجاربنا ومعاناتنا. وحاولت أن تستخدم كلمة "آب" في الصلاة، وحققت نجاحاً محدوداً إلى أن جاءت إلى حديث الرب يسوع مع تلاميذه قبل القبض عليه وموته.

وفي هذا المشهد، بينما كان يسوع يتحدث عن ذهابه للآب، حملق فيه التلاميذ دون أن يفهموا حتى أن فيلبس قال له: "أرنا الآب وكفانا" فأجابه يسوع: "أنا معكم زماناً طويلاً ولم تعرفني يافيلبس. من رآني فقد رأى الآب. فكيف تقول أرنا الآب؟"

"من رآني فقد رأى الآب" أدهشت هذه الآية روبرتا الدارسة لتاريخ الكنيسة، كفكرة جديدة مدهشة. فإذا كان الرب يسوع قد أظهر اهتماماً وإلتفاتاً خاصاً بالفقراء والأرامل والمرفوضين اجتماعياً، فهكذا يفعل الآب. وإذا كان ليسوع أصدقاء من النساء وكان يحترمهن ويقدرهن، فهكذا يفعل الآب. وشعرت روبرتا أنها كونت صورة سيئة عن أبوة الله، وبدلاً من ذلك أدركت أن نموذج الله يقدم تصحيحاً للآباء الأرضيين الذين لا يتبعون هذا السلوك. ومن خلال عيني يسوع، وضّح لها الله الأمر، ورأت إلهاً وأباً جديداً.

وعندما قرأت روبرتا الأناجيل بعيون مفتوحة، أخذت القصص الموجودة فيها لوناً جديداً. فمثلاً في قصة لعازر في يوحنا ١١ لاحظت تدخل يسوع مع الأختين ويسوع نفسه الذي أقام لعازر من الموت بقوة الآب، بكل العطف والشفقة بكى مع الأختين مريم ومرثا. بل وأكثر من ذلك، سمح للأختين أن تعاتبانه لمجيئه متأخراً. وهي مازالت متألمة مما حدث لها في طفولتها، لاحظت روبرتا في تناقض أن الأختين لم تخافا من يسوع على الإطلاق. فلم تقبلا بخضوع ما حدث على أنه إرادة الله بل بالحري عبرا عن حزنهما وغضبهما ليسوع.

وتدريجياً اكتسبت روبرتا صورة عن العلاقة مع الله وكيف تكون: "كنت أفترض أن يسوع عندما أخبرنا بأن ندعو الله "أبونا" كان يقصد بأننا كأولاد الله علينا أن نتواصل مع هذا الآب كما يتواصل الأطفال الصغار بوالديهم المحبين لهم والذين يفضلونهم عن الكبار لأن الصغار أكثر لطفاً وحلاوة من الكبار المعقدين .. ولم أتمكن من التواصل مع الله الآب الذي طلب مني أن أعيش كطفل ضعيف بلا قوة".

ولسرورها وجدت أن الله يفضل كثيراً العلاقة مع الكبار مثلما كانت علاقة يسوع مع تلاميذه "لا أعود أسميكم عبيداً بل أحباء". وأعلن هذا يسوع لتلاميذه بشعور واضح من الارتياح، مستمتعاً بامتيازات التجسد.

حقيقة بسيطة توضح "عيب" التجسد: قليل من الناس الذين عرفوا يسوع هم الذين أدركوا أنه أتى من عند الآب. ويلخص بولس هذا الأمر بطريقة جيدة في رسالته إلى فيلبي: "الذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله بل أخلى نفسه .." وطوال الفترة التي قضاها على الأرض لم يذكر شيئاً عن امتيازات الله وارتضى أن يسير بين الناس وكأنه غير معروف. إن الناس يتوقعون قوة من إلههم وليس ضعفاً، اتساعاً ونفوذاً وليس انكماشاً وصغراً.

ولكي نقدّر هذا التغيير، دعنا نتذكر مرة واحدة من المرات العديدة التي تحدث فيها الله بطريقة مسموعة في العهد القديم. فبعد ٣٨ أصحاحاً من أقوال أيوب وأصدقائه رفع الله صوته كزئير من العاصفة، فسقطوا جميعاً عند سماعهم كلمته الأولى. ومع أن الله تجنب كل أسئلة أيوب التي أثارها، فالحقيقة الهامة هي أن الله عبر الفجوة بين عالمين، مصطدماً بالعالم المادي بدرجة كافية حتى أنه أزعج الآذان الآدمية وأسكت أيوب الذي قال "لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد".

وبالمقارنة، تسجل الأناجيل ثلاث مناسبات فقط تحدث فيها الله بطريقة مسموعة: مرتان (أثناء عماد الرب يسوع وعند وجوده على جبل التجلي) "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت". والمناسبة الثالثة عندما تحدث الله لليونانيين الذي شكّوا (يوحنا ١٢) فجاء صوت من السماء "مجدت وأمجد أيضاً". فقال البعض منهم أنهم سمعوا صوت الرعد وليس مجرد كلمات. إن صوت الله لم يُسقط

أحداً عندما كان المسيح على الأرض. وأثناء المحاكمة الظالمة أمام هيرودس وبيلاطس، ظل يسوع صامتاً، كما أن الله الآب لم يقل شيئاً.

إن يسوع لم يقم بقيادة عروض من الأوركسترا الضوئية، ولم تُحِط به سحابة من الدخان عندما كان يخاطب الجماهير. لقد تغلب على مخاوف ظهور الله في العهد القديم وتنازل عن كل امتيازاته. لم يظهر إطلاقاً كالله الظاهر في الجسد بل ظهر كإنسان كامل. وكانوا يضايقونه بالقول: أليس هذا ابن مريم؟ ابن النجار من الناصرة؟

طلب فيلبس من يسوع "يارب، أرنا الآب وكفانا". ومع ذلك فقد أجاب يسوع بأن أشار إلى نفسه، ولكن لم يتضح الأمر للتلاميذ بدرجة كافية: ففي نفس الليلة هجره فيلبس وباقي التلاميذ. وقد يكون في كل واحد منا شيئاً مما كان في فيلبس، اشتياق لأن يرى الله ولو مرة واحدة - رؤية الدخان والنار الذي لا يُنكر - حتى تهدأ شكوكنا. وما يقدمه الله كاستجابة لذلك لا يشبعنا.

لا يستطيع العالم أن يتغلب على الفجوة الكبيرة بين ما نتوقعه من الله وما قدمه لنا في المسيح. إن الديانات الأخرى تحترم المسيح كمعلم حكيم وقائد يستحق الإعجاب ولكن ليس كإله. إن أفضل تعبير عن جوهر الله (المسيح) يُحدث رفضاً كثيراً في أيامنا تماماً كما حدث في أيامه هو.

> "إن الله يُرهق نفسه من خلال الكثافة غير المحدودة للزمان والمكان لكي يصل إلى الروح ويستعبدها. فإذا رفضت الروح ذلك، عندئذ يهزم الله تلك الروح... والروح- وتبدأ من نقطة النهاية- تقوم بنفس الرحلة التي قام بها الله للوصول إليها. وهذا هو الصليب."
>
> **سيمون ويل**

١٢ - الوسيط



"يضربنا الحق من الخلف وفي الظلام"

هنري ديفيد ثوريا



الكاتبة الإيطالية إمبرتو إيكو كتبت قصة جذابة عن رحلة عبر أمريكا بعنوان "سفريات في الحقيقة المفرطة" وفيها كتبت ملاحظاتها على نظرتنا المادية الكلية للحياة. حتى أن علم الأساطير الأمريكي يتخذ أشكالاً ملموسة: فتوضع دمية سانتا كلوز (بابا نويل) في كل المراكز التجارية أثناء الكريسماس، وتماثيل ضخمة لبعض الشخصيات توضع في ديزني لاند في أي وقت. كما أن الإغريق القدماء كانوا يحتفون بأبطالهم بإلقاء الملاحم الشعرية حول النيران المشتعلة في المعسكرات، أما الأمريكيون المحدثون فيصافحون بعضهم بعضاً وهم يرتدون أزياء تنكرية.

وتقول الكاتبة إيكو أن البرامج الدينية بالتلفزيون تخدعها: "فإذا تابعت برامج يوم الأحد الدينية سوف تفهم منها أنه بإمكانك أن تفهم الله كطبيعة وجسد، وطاقة، وصورة ملموسة. ولأنه لا يجرؤ أي

خادم أن يُظهر الله في صورة دمية ملتحية، أو كالإنسان الآلي في ديزني لاند، عندئذ يمكننا أن نجد الله فقط في صورة قوة طبيعية، فرح، شفاء، شباب، صحة أو ربح اقتصادي". وتوصلت إيكو إلى أن الإمريكيين يتصورون الله بطريقة ملموسة. أين إذاً الغموض في هذا، تساءلت إيكو- الله المقدس، الروحي الذي لا ينطق به (لأنه أقدس من أن يُذكر)؟

وتساءلت فيما يمكن أن تفكر فيه إيكو لو رأت المنظر الذي رأيته أنا في الفلبين في إحدى الكنائس التي بها تمثال للمسيح مصنوع من الأبنوس. وبعض الزوار يزحفون على ركبهم لمسافة أميال ليقتربوا من التمثال ويلمسوا أطراف أصابعه. واعتادوا على تقبيل هذه الأطراف. وخوفاً على التمثال من أن يبلى غطوه بغطاء تاركين أطراف أصابعه للتقبيل. وإمعاناً في الحفاظ عليه رفعوه قليلاً إلى أعلى مما اضطر البعض لأن يقفز لأعلى حتى يتمكن من تقبيل قدميه المقدستين. والآن طوابير طويلة من قصيري القامة يقفزون لأعلى مثلما يفعل لاعبي كرة السلة حتى يصلوا لأطراف أصابع التمثال التي تآكلت.

وطبقاً لما تقوله إيكو، فإننا نبحث عن علامات واضحة وظاهرة على حضور الله، وكأننا مازلنا نشتاق للعليقة المشتعلة أو الصوت المسموع. ولأننا كائنات مادية، فنحن نقلل من قدر الروح كما لو أنها أمر غير حقيقي ويريد الله أن يظهر بطريقة مادية حيث نعيش. وقد استجاب يسوع لهذه الرغبة لفترة من الزمن، وهو حدث نحتفل به في فن مقدس، ولكن الحقيقة الواضحة هي أن يسوع عاد مرة أخرى إلى العالم غير المنظور.

وأصر يسوع على القول "إن الله روح"- وهذا ما يعتقد فيه كل يهودي مخلص. ولكن كيف يمكننا أن نتخيل الروح أو نرى الله بعيداً عن صورة مرئية؟ وكيف يمكن للروح أن تتواصل مع عالمنا المادي؟ هل يمكن للروح أن "ترى بدون عين لكي تتلقى وتركز الموجات الضوئية أو تسمع بدون أذن تسجل الاهتزازات؟ وكيف

يمكننا أن نقرر ما إذا كان "الله الروح" يتواصل مع الحياة على كوكب الأرض؟ وباختصار، كيف يمكننا أن نؤمن بإله لا نستطيع أن نراه؟ لقد فشل الإسرائيليون في العهد القديم في هذا التحدي، بالرغم من رؤيتهم لدلائل كثيرة على وجود الله، وكانوا يعودون مرات عديدة إلى عبادة الأصنام التي يرونها ويلمسونها.

بعض المؤمنين، مثل أولئك الذين واجهتهم إيكو في أمريكا، يريدون أن يعيدوا تلك الأزمنة التي أعلن الله فيها عن ذاته بوضوح. إنهم يعتبرون الروح كنسخة معدلة لإله بني إسرائيل في البرية: يتحدث إليهم مباشرة، ويمدهم بالطعام والملبس، ويضمن لهم الصحة ويقودهم في الطريق. وبكلمات أخرى، يريدون الروح أن يغير قوانين الحياة حتى لا تُصاب بيأس أو خيبة أمل. إنني أعرف الكثيرين من المؤمنين الذين يؤمنون بهذا.

إنني أرى الروح ولكن ليس كمن يلمس حياتنا الدنيوية بعصا سحرية فندرك (كما تقول دوروثي سايرز) حضور الله في أماكن كنا نغفلها. إن الروح قد يُحدث هذه الرجفة أو الرجة من الإدراك للأمور العادية جداً: ابتسامة طفل، جليد يسقط على بحيرة متجمدة، طقوس عبادة تتحول على غير توقع إلى ما هو غير طقسي. وفجأة نرى مثل هذه الذكريات السارة كمواهب من الله الذي يستحق حمدنا.

إن الذي يبحث عن الروح القدس كمن يبحث عن نظارته وهي على عينيه. ويقول جون تايلور: "ليس بإمكاننا على الإطلاق أن ندرك وجود الروح بطريقة مباشرة، لأنه في أي اختبار للاجتماع والتعرف فإنه دائماً هو الوسيط الذي يوجد الوعي والإدراك". إن الروح هو وسيلتنا للفهم والإدراك أكثر منه أن يكون هو نفسه الذي ندركه أو نتخيله، وهو الذي يفتح عيوننا للحقائق الروحية الأساسية. والإدراك الروحي للآخرين قد يتخطى الاجتماع أو المؤتمر، فهو لا يهتم كثيراً بشكل الجسد ولا بالدخل السنوي أو بإعاقة القوة. بل بالحري، قد يقودنا الروح لنفس المجموعات التي خدمها المسيح- الغرباء، الأرامل، المساجين، المشردين، الجوعى، المرضى- لكي

نرى تدريجياً "هؤلاء الأصاغر" كما يراهم الله.

طالب جامعي أخبرني بطريقته في تصور الروح القدس: "أول ما تعلمته عن الروح القدس تعلمته في طفولتي من دروس اللوحة الوبرية: فقد رسموه كإنسان صغير للغاية كقزم، يعيش في أعماقنا. ومازلت أحمل هذه الصورة معي. إن الروح يعيش في مكان ما في داخلي، ربما في ذهني أو في قلبي. ومثل البواب المقيم في داخل مبنى، يلفت انتباهي بالطرق على الضمير الواعي أو اللاواعي. فإذا تجاهلته، ينكمش. وإذا استمعت إليه يكبر ويكبر حتى يملأني".

إن ذكر الروح القدس يستدعي الكثير من الحيرة والارتباك. فإذا قال أحد الأشخاص أو مجموعة "يقول الكتاب" بإمكانك أن تبحث بنفسك. وإذا قالوا: "الروح قال لي" فأين يمكنك أن تبحث؟ وهنا المشكلة: فالروح غير منظور. وضرب يسوع مثلاً لنيقوديموس: "الريح تهب حيث تشاء. وتسمع صوتها ولكن لا تعرف من أين تأتي ولا إلى أين تذهب". فكيف بإمكاننا أن نكتشف حضوراً لا صورة له ولا شكلاً معروفاً؟

ومع ذلك، فإن أي شخص يريد أن يعرف الله لا يمكنه تجاهل الروح الذي ظهر بطريقة مثيرة على الأرض في لحظة فاصلة. فعندما ودّع الرب يسوع تلاميذه، طلب منهم أولاً أن يفعلوا أمراً هاماً: انتظروا. إرجعوا إلى أورشليم وانتظروا الروح القدس.

ما الذي حدث منذ رحيل الرب يسوع الذي تحدى الإيمان- عبر التاريخ كله- وأبعد الكثيرين عن الله. بالمسيح، ضمّ الله إلى نفسه عالماً موبوءاً بالشر وسقط ضحية له. وبالروح القدس، خاطر إله قدوس بسمعته على أناس أشرار، بتوسيع ونشر هذا التجسد ليشمل كل أتباع الرب يسوع. إن الله الذي تجسد لكي يمكننا من أن نختبره في عالمنا المادي مازال يتجسد فينا نحن.

ومع ذلك فلتقرأ التاريخ المحزن والملطخ للكنيسة. إن البشر لم يُجسدوا ويحسنوا التعبير عن الله الساكن فيهم كما فعل الرب يسوع. إننا في الحقيقة نُبعد الناس عن الله بدلاً من أن نجذبهم إليه.

وعندما وعد الرب يسوع تلاميذه بإرسال الروح القدس المعزي إليهم قال لهم: "إنه لخيركم وفائدتكم أنا ماضٍ". كيف هذا؟ ما هي "الامتيازات" الموجودة في هذه الرؤية الأخيرة لله؟

وإذا رغب شخص في أن تكون له "علاقة شخصية مع الله" فإن الروح القدس يرفع كلمة شخصية إلى مستوى جديد. لا توجد ديانة أخرى في العالم يحدث فيها مثل هذا الأمر: إله هذا الكون يوجد لا كقوة خارجية يجب علينا أن نطيعها، ولكنه يعيش فينا، ويفتح فينا قناة للاتصال المباشر مع الله. وكما قال توماس ميرتون: "لأن أرواحنا تتكون من مواد روحية ولأن الله روح، فليس هناك ما يمنع الاتحاد بيننا وبينه أي انجذاب بكل معنى الكلمة".

وكما قلت سابقاً، إن علاقتنا مع الآخرين تتطلب دائماً درجة من الشك. وغالباً ما يعبر جيران المجرم الخطير عن دهشتهم عند القبض عليه ووضع القيود في يديه قائلين: "كم كان رجلاً طيباً". وكل منا يحتفظ بجزء من نفسه، الأنا الداخلية مختبئة ويُظهر للآخرين الأنا الخارجية فقط. ولكن في الروح القدس يتغلب الله على هذا الحاجز. الله الآن يعيش داخلنا، في الأنا الداخلية، ويحاول أن يوجد انسجاماً بين الأنا الداخلية والخارجية حتى لا يحدث انشقاق فينا ولكن تكون لنا ذات موحدة.

إننا ننال "مواهب الروح" من شخص- لأنه يعيش داخلنا- يعرف بالتحديد صفاتنا الشخصية، وأسلوب تربيتنا، ومهاراتنا الطبيعية وكيف يمكن استخدامها لخدمة الله. وكما قال جورجن مولتمان: "روح الحياة" تواجهه نفس الأمور التي تواجه الشخص الساكن فيه. إن الروح القدس يُجمل ويُحسن ويُشكل من يُقيم فيه ولكنه لا يطغى على مواهبنا وشخصياتنا الفردية.

قالت الملكة فيكتوريا أنها تشعر بمشاعر وانطباعات مختلفة تجاه اثنين من أشهر رؤساء الوزارات. فعندما تكون مع وليم إلدستون تقول: "أشعر أنني مع واحد من أهم قادة العالم". وعندما تكون مع بينجامين إسرائيل: "إنه يُشعرني بأنني من أهم الناس في العالم".

وعندما قرأت هذا الوصف، تبادر لذهني الفرق في رد فعلي نحو يهوه في العهد القديم وفي الروح الساكن فينا: يهوه يثير فينا الخوف بينما الروح القدس يربينا ويغذينا.

قال لي صديقي كين، وهو مؤمن ملتزم يناضل في حياة الإيمان: "أقول لك بصراحة إنني أشعر بوضوح بوجود الروح القدس في حياتي أكثر من الأقنومين الآخرين في الثالوث الأقدس. فعندما أشعر بجوع إلى الله فهذا علامة على حضور الروح فيّ. ومعاركي القوية مع الشهوة، وتبكيت الكبرياء، وشعوري القوي بالحاجة إلى الاعتذار، والغفران- كلها إشارات من الله ولها نفس قوة التأثير عليّ تماماً مثل العليقة المشتعلة. إنها تعرفني أن الله مازال يعمل بداخلي".

إن لدي إحساساً بأن هذه الانتصارات الصغيرة التي وصفها صديقي كين، تعطي الله نفس القدر بل وربما أكثر من السرور الذي يشعر به عند حدوث أية معجزة في وقت حرج.

كما أنني أعرف الكثير من الناس "العاديين" الذين يزورون السجون، ويعتنون بالذين قاربوا الموت، يبنون بيوتاً للفقراء، يتبنون أطفالاً غير مرغوب فيهم، يرحبون بعائلات اللاجئين. إنهم يفعلون كل ذلك بدافع من الروح القدس.

"هل أنت مملوء من الروح القدس؟" إذا سألت هذا السؤال للرسول بولس فسوف يجيبك بقائمة الصفات التي يمنحها الروح: محبة، فرح، سلام .. إلخ. هل تتمتع بهذه الصفات؟ هل تُظهر حب الله للآخرين؟ كل رسائل الرسول بولس تُختتم بدعوة عملية للحب والخدمة: الصلاة، مشاركة المحتاجين، مواساة المرضى، إضافة الغرباء .. إننا لا نجرؤ على التقليل من قدر عمل الله "العادي" لكي يشعر بوجوده الدائم في حياتنا. هذه هي علامات الحياة المملوءة بالروح القدس، علامات غير المنظور تظهر في عالمنا المنظور.

إن الروح لا يمكن أن نحتفظ به كحيوان أليف مدلل، يعيش داخلنا

في مكان صغير نستحضره عندما نشاء. وحضور الله داخلنا يجب أن ينفذ إلى كل شئ نراه ونفعله. ولكي نُظهر التشابه الجزئي بين الطالب الجامعي وبين الروح، فالروح ليس قزماً يضرب بعنف على أنابيب الأرغن لكي يجذب انتباهنا بل بالحري جزء أساسي ومقيم في كل المبنى. إن الروح لا يعمل فينا بل معنا فهو جزء منا، إله عامل فينا وليس إلهاً مليئاً بالفراغات.

ارتبط يسوع بالجنس البشري لفترة زمنية حتى يمكنه الآن أن يقوم بخدمة الدفاع عنا والشفاعة لنا عند الآب. وفي فقرة رائعة يوضح الرسول بولس أن الروح يشاركنا في نضالنا الروحي هنا على الأرض.

ويلخص الأصحاح الثامن من رومية حالة البشرية جمعاء: "فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معاً إلى الآن". ونحن البشر "نئن داخلياً". فكل سكان الأرض تصدر عنهم إشارات الحزن واليأس. وكان الرسول بولس يحب التلاعب بالألفاظ، وأول مظهرين لهذا الأنين وهما بمثابة الدعامة التي أوصلته إلى قمة النتيجة التي توصل إليها: "... وكذلك الروح أيضاً يعين ضعفاتنا، لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي. ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها".

إنني أعرف جيداً شعور اليأس الذي ينتابنا عندما لا نعرف ما نصلي من أجله: كيف تصلي من أجل شخص وصل إلى طريق مسدود في زواجه، أو من أجل ضحية اعتداء جنسي، أو من أجل أب أو أم لطفل شُخص مرضه على أنه سرطان، من أجل مؤمنة في باكستان سُجنت من أجل إيمانها بالمسيح .. ماذا يمكنني أن أطلب؟ وكيف يمكنني أن أصلي؟

ويعلن لنا روح الله الأخبار السارة بأننا لا نحتاج لأن نحدد بالضبط وتماماً كيف نصلي. إننا بحاجة فقط لأن نئن. وعندما أرجع إلى كلمات الرسول بولس تأتي لذهني صورة الأم التي تسمع صراخ طفلها الذي لا يستطيع الكلام. إنني أعرف بعض

الأمهات اللاتي يستطعن تمييز صيحة الطعام عن صيحة الحاجة إلى الرعاية، وصيحة ألم الأذن من صيحة ألم المعدة. وبالنسبة لي كل الصيحات تتشابه ولكن الأم تعرف بالغريزة نوعية صيحة طفلها وأنينه. إن عدم وضوح الكلام والعجز لدى الطفل هي التي تعطي للأم قوة العاطفة.

وللروح القدس مصادر حساسية أكثر من أي أم، كما أن الله يُسر بضعفنا لأن فيه تظهر قوته. وفي حديثه عن الأنين في رومية ٨ يخبرنا الرسول بولس عن الروح الذي يحيا فينا والذي يعرف احتياجاتنا التي لا نستطيع أن نعبّر عنها بلغة لا نفهمها. وعندما لا نعرف ما نصلي من أجله فإن الروح يملأ الفراغ.

والكلمة اليونانية للروح القدس هي "الباراقليت" وتعني "الشخص الذي يقف بجانبك" مثل المحامي الذي يدافع عنك، صورة لابد وأنها أعطت نوعاً من الراحة للمسيحيين الأوائل الذين تعرضوا للاضطهاد. ونحن الذين نواجه صعوبات مختلفة - مرض السرطان لأحد أفراد العائلة، الإدمان، مراهق منحرف فصل من وظيفة - نحتاج أيضاً لحضور الروح داخلنا الذي يشفع فينا "بأنات لا ينطق بها" أو "بتنهدات يصعب التعبير عنها بالكلمات". ونفس الكلمة اليونانية تصف القائد الذي يُستدعى عندما يستعد الجيش لخوض معركة. وينادي على فرق الجيش الخائفة بكلمة "الباراقليت" فتبعث فيهم الثقة والشجاعة. ونحن كمؤمنين لدينا هذا الصوت الداخلي المشجع، إنه صوت الله نفسه. و"الأنين" المذكور في رومية ٨ يُختتم بالوعد القوي أنه سيأتي اليوم الذي لن يوجد فيه أنين على الإطلاق.

أحد زملائي كتب لي من فترة وجيزة أنه تخلى عن إيمانه بعد معاناته من سلسلة رهيبة من المشاكل الصحية والعاطفية. وأثناء أشد ساعاته ظلمة قال، لقد ظل الله صامتاً. ولم تجد الصلاة شيئاً. وفي النهاية، عندما خرج من وادي ظل الموت، قال لي: "هل تعلم

ما الذي منعني من أن أترك كل شئ ومنعني من الارتداد؟ تخيلت كما لو أنني سأذهب إلى ثلاثة أو أربعة أشخاص أحترمهم جداً أكثر من أي شخص آخر في العالم وأقول لهم "لقد خُدعتم". ولم أتمكن من أن أقنع نفسي لإنكار حقيقة روح الله في حياتهم.

وصديق آخر، كان يستمع لهذه الكلمات، كانت له فكرة أخرى. "هذا بالضبط ما يُغريني بالارتداد! وبكل صراحة، أنني لا أرى حقيقة وجود روح الله في حياة الآخرين. أريد دليلاً واضحاً ومباشراً على وجود الله".

إن "عيب" معرفة الله من خلال الروح القدس هو هذا، عندما كلف الله الكنيسة بخدمته، فهو في الحقيقة أحدث تحولاً أو انقلاباً. وكنتيجة لذلك، فكثيرون من الذين يرفضون الله هم في الحقيقة لا يرفضونه بل يرفضون صورة كاريكاتورية منه وهي التي تقدمها الكنيسة. نعم، إن الكنيسة سلكت طريق قضايا العدالة، الأمية، الطب، التعليم، والحقوق المدنية. ومن العار المشين الذي تعاني منه الكنيسة، أن العالم يحكم على الله من الكنيسة وتاريخها الذي يشتمل على الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش الكاثوليكية، ضد السامية، قهر المرأة، ومساندة تجارة العبيد.

إنني أرغب في أن أستبعد جانباً تاريخ الكنيسة، ونمحو هذه الرواسب، ونواجه كلمات الأناجيل لأول مرة. سوف لا يقبل كل الناس يسوع- ولم يحدث ذلك في أيامه على الأرض- ولكن على الأقل سوف لا يرفضونه للأسباب الخاطئة. ومع ذلك فما أتوق إليه ليس فقط من باب المستحيل بل وأيضاً غير كتابي. ويجب أن أذكّر نفسي بكلمات الرب يسوع: "إنه لخيركم ومصلحتكم أنا ماضي" والفشل المتتابع للكنيسة هو علامة استعداد الله للمجئ لمساعدتنا، وهو أيضاً نوع من المديح للإنسان: الله يثق فينا لتولي خدمته وإرساليته.

وأجد من السهل عليّ أن أقبل حقيقة أن الله سكن في يسوع الناصري أكثر من سكناه في الناس الذين يحضرون كنيستي

المحلية وفيّ أنا أيضاً. ومع ذلك فإن العهد الجديد يُصر على أن هذا النموذج هو الذي يحقق خطة الله منذ البداية: ليست سلسلة مستمرة من التداخلات المثيرة والمذهلة ولكن تفويض تدريجي لخدمته يكلف بها بشر خطاة. ومنذ البدء، كان مخططاً أن يموت يسوع حتى نتمكن نحن، كنيسته، أن نحل محله. وما منحه يسوع للقليلين- شفاء، نعمة، رجاء، أخبار سارة عن محبة الله- يمكن لأتباعه أن يمنحوه للجميع. "ما لم تسقط حبة الحنطة في الأرض وتموت، تظل كما هي، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير".

كتب إيوجين بيترسون عن عمله كراع محاولاً رعاية وخدمة اجتماع بدا له غير ناضج وثرثار يكشف أسرار الآخرين، ويشعرون بالضيق إذا لم يحل الله مشاكلهم. والمقارنة بين اجتماعه في الكنيسة والكنيسة المثالية كما وردت في العهد الجديد سببت له الكثير من المتاعب حتى قرأ شيئاً هاماً في سفر الرؤيا. فوصفت الأصحاحات الأولى الكنائس غير الناضجة بأنها "المناير" "أنها الأماكن التي يضئ فيها نور المسيح". "إنها لا تضئ من ذاتها. وليس في هذه الكنائس شئ فاتن أو ساحر، كما لا يوجد أيضاً ما يُشينها.

وفي تشابه جزئي يُشبه جون تايلور تجسد المسيح بمنظر كتبه وليم شكسبير في مسرحيته هنري الخامس. في مساء معركة ضد الأعداء تنكر الملك هنري وسار بين الجنود في الميدان. وإذ به يسمع أحد الجنود وهو يقسم ويقول أن الملك سوف يُدان في يوم الدينونة عندما يقوم الجنود الذين سيموتون في هذه المعركة ويتهمونه بأنه اشترى هذا النصر بحياتهم. لقد عرف الملك جيداً مقدار الحمل الملقى على كاهله، وهو حمل ألقاه الآن على كاهل جيشه:

> "ومع ذلك فهو مازال يثق من جدوى هذا الأمر، وعندما جاء الصباح، استجمع قوته وبث في جنوده أمله وإيمانه بقيمة المكافأة (النصر) ..."

إن الله يعلم أكثر من أي شخص آخر الثمن الذي تدفعه الخليقة لمغامرته الضخمة لجعل هذا الكون البيئة الوحيدة التي يمكن أن

يظهر فيها الحب يوماً ما ليتمتعوا به ويتجاوبوا مع هذه المحبة. وهو مازال يؤمن بأن الثمر الناتج سوف يفوق كل الحزن والمعاناة وهذا أفضل بكثير من أن يبدو وكأنه محايد ولا يفعل شيئاً. ولهذا- ولأننا لا نفهم ما يحدث- لا يمكننا أن نغفر ما يفعله معنا، إن الله جاء بيننا كإنسان شاركنا معاناتنا ليعطي تعويضاً وترضية ويسترد ثقتنا به.

لم يتمكن الملك هنري أن يحارب المعركة بنفسه. كان بإمكانه أن يتواصل مع جنوده ويتحرك فيما بينهم ويشجعهم. ولكن الانتصار العسكري العظيم الذي حدث في معركة Againcourt اعتمد على مجهودات الجنود العاديين.

إن وجود وسكنى الله في داخلنا يضمن أن الكل قد يتعرض للشك أحياناً وكثيرين سوف يرفضون الله تماماً. والخطة تضمن أيضاً أن تقدّم ملكوت السموات يحدث ببطئ وبخطوات متثاقلة، ومع ذلك فإن الله يُظهر صبراً كثيراً ولا يفرض سلطانه وقوته. لقد قضت الكنيسة ثمانية عشر قرناً في الوقوف في وجه العبودية ومنذ ذلك الوقت قاومها الكثيرون. ومازال الفقر موجوداً وكذلك الحروب والتمييز العنصري، وفي بعض الأماكن قدمت الكنيسة مساعدة قليلة.

كتبت إتي هيلسن ما يلي في إحدى الصحف والتي اكتشفت بعد موتها في أحد معسكرات النازية:

> "أمر واحد أصبح واضحاً للغاية بالنسبة لي: ياالله أنت لا تستطيع أن تساعدنا ولهذا يجب أن نساعدك لكي نساعد أنفسنا. وهذا ما يمكن أن نعمله في هذه الأيام وهذا هو الأمر المهم: أننا نقوم بحراسة الشئ الصغير منك الذي وضعته أنت فينا ياالله. ربما يمكننا أن نحاول أن نفعل ذلك مع آخرين أيضاً .. ليس بإمكانك أن تساعدنا بل يجب علينا أن نساعدك أنت وأن نحمي المكان الذي أنت تسكن فيه في داخلنا حتى النهاية".

في بعض الأحيان يبدو كما لو أن الله لا يستطيع مساعدتنا أو ربما

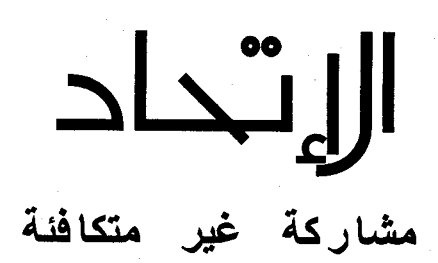
لا يفعل ذلك. ويبدو لنا أنه خلقنا وتركنا لحالنا هنا وسط قوى الشر. وفي الحقيقة نحن بحاجة إلى شخص سماوي ليحل مشاكلنا. وقد يشعر المؤمنون بنفس عدم الصبر تجاه بطئ. العمل الذي لا يتسم بالقوة والإثارة للروح القدس مثلما شعر اليهود نحو المسيا الذي لم يقدم لهم نوع الانتصار والإنقاذ الذي كانوا يريدونه وينتظرونه.

والسؤال الذي نوجهه لله هو نفسه الذي يوجهه لنا. إننا نتوسل إلى الله "لأن يأتي إلينا" ثم نعرف وبطريقة رافضة أن الله موجود هنا فعلاً، في داخلنا وأن ما يفعله الله على الأرض يمثل بوضوح ما تفعله الكنيسة. وباختصار فإن العيب الرئيسي لمعرفة الله كروح هو تاريخ الكنيسة، وتاريخ حياتي الروحية الذي لي ولك.

> "يوجد مسيح واحد فقط، عاش ومات مرة واحدة، ولكن الروح القدس يصنع من كل مؤمن مسيحاً آخر، وهذا المسيح الآخر يعيش في حياة الملايين في كل عصر.."
>
> **جيرالد مانلي هوبكنز**

الجزء الرابع





مشاركة غير متكافئة

١٣ - التغيير



"والآن بمعونة الله سوف أحقق ذاتي"
سورين كيركجارد



أثناء سنوات المدرسة الثانوية كنت أسعى لإعادة بناء هويتي. وفي المقام الأول كنت أكره أن أكون جنوبياً من الجنوب. كانت البرامج التلفزيونية مثل: "بيفرلي هيلبليس The Beverly Hillbillies" و " نهيق HeeHaw" كانت تربكني، فكنت أنكمش وأتراجع في كل مرة أسمع فيها الرئيس "ليندون جونسون" وهو يفتح فمه قائلاً: "Mah fella Amuricuns..." ولأن باقي الأمريكيين في الستينات كانوا يحكمون على أهل الجنوب بأنهم متخلفون، جهلاء، وعنصريون، لذلك كنت أريد أن أفصل نفسي عن إقليمي الذي ولدت فيه.

لقد بذلت جهداً لتغيير لهجتي، ونجحت في ذلك حتى أن الناس كانوا يندهشون لدى علمهم أنني من الجنوب. وبدأت في قراءة الكتب المشهورة لكي أوسع مداركي. وتجنبت إستخدام بعض التعبيرات التي يستخدمها أهل الجنوب. وقررت مواجهة مخاوفي دفعة واحدة، وحاولت التغلب عليها. وجاهدت لكي أتحكم في مشاعري لتكون

طوع إرادتي، فلا تتحكم فيّ. كما أنني قمت بمحاولات لتحسين طريقة كتابتي.

نجحت محاولاتي في الإصلاح، ومنحتني الشخصية المناسبة لتلك الفترة. وأصبحت أقل حساسية وأكثر إنفتاحاً ومرونة. وتلاشت أشباح الطفولة وموروثاتها، وأعتقد أنني هربت من ماضيّ.

وبعد عدة سنوات بدأت المشاكل في الظهور، عندما بدأت أدرك حدود شخصية كونتها بنفسي. فقد فشلت فشلاً كبيراً في معظم أموري الهامة بالنسبة لله. فقد كنت أنانياً، إنعزالياً، غير محب للآخرين، وتنقصني العاطفة والمشاعر. وفيما عدا القدرة على التحكم في الذات كنت محتاجاً إلى تسع من ثمار الروح المذكورة في غلاطية ٥. ورأيت أن هذه الصفات لا يمكن بناؤها، ولكن يجب تنميتها بعد أن يزرعها الله بحضوره وسكناه داخلي. واتفق مع ما قاله ج. هنريك أرنولد: أن التلمذة المسيحية "ليست تساؤلاً عما نفعله، بل المهم هو إعداد مكان لله لكي يتمكن من السكنى فينا".

ومنذ ذلك الوقت بدأت أمارس الصلاة بطريقة منتظمة من خلال القائمة الموجودة في رسالة غلاطية: محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، وداعة، صلاح، إيمان، تعفف. هل أظهر المحبة وأختبر الفرح والسلام وأتعامل بالصبر؟ وظللت أطرق على سقف من زجاج، لأنه بالرغم من تغلبي على الشك، ومحبة الذات، فقد كنت أشعر بحاجة شديدة إلي الفرح والمحبة. وعندما كنت أعتقد أنني أصبحت صبوراً ووديعاً، كنت أقطع الإتصال التليفوني إذا ما إستمر لمدة ٢٠ دقيقة، وأبدأ بطرق الطاولة بقبضة يدي. وكنت أعلم أن أي تقدم في هذه المجالات يحدث نتيجة عمل الله.

أخيراً أدركت أن كل مشروعي لإعادة بناء شخصيتي قد أُسيء تنفيذه. إن الله لا يريدك أن تعمل بشخصية مختلفة تماماً، فالله قد إختارني أنا. لقد رأيت هذا بكل وضوح أثناء فترة خلوة للإرشاد والتأمل لروحي، وطلب مني مرشدي الروحي أن أركز على قصة إقامة لعازر في يوحنا ١١: " وأنت تقرأ ضع نفسك مكان لعازر،

لقد قام لحياة ثانية، ولكنه كان ملفوفاً في الأكفان. كان بحاجة إلى من يفكه ويُطلقه حراً. وأريدك أن تتعرف على القيود التي تلتف حولك وتمنعك من أن تحيا الحياة التي قصدها لك الله".

كتبت قائمة طويلة إشتملت على أشياء مثل جرعة التردد والتباطؤ التي تُفسد كل إختباراتي للفرح، ومع نفسي من التعبير عن الفرح أو توقعه. جراح قديمة تحتاج إلى مزيد من الإيمان بالله لكي تُشفى. أيضاً أعراض الكتابة التي منعتني من أن أحيا حياة طبيعية، والتعلق بعناد بشخصيتي كنوع من الإرتداد، وتجنب نموذج مارسته في علاقتي مع الله ومع الآخرين.

وأود أن أسجل هنا أن الله قد أزال كل تلك القيود والأربطة خلال أسبوع من الإرشاد والتأمل الروحي. إن الشفاء الروحي ليس أمراً سهلاً أو سريعاً. لقد ألقيت نظرة على عملية الشفاء هذه، وراجعت محاولة إعادة بناء شخصيتي بمعونة الله، وليس بمجهودي أنا- إنه إصلاح يحرر- لا ينكر ذاتي الحقيقية.

أستاذ الأدب "مارك فان دورن" الذي علّم "توماس مرتون"، قام بزيارة تلميذه السابق في دير كينتكي ولم يكن قد رآه منذ ١٣ عام. لم يتمكن دورن وبعض أصدقاء مرتون من فهم وإستيعاب تحوله من حياته الصاخبة في نيويورك، إلى هذه العزلة والسكون في دير. قال دورن:

"كان يبدو متقدماً في السن، ولكن أثناء جلوسنا وحديثنا معه لم أتبين إختلافاً كبيراً فيه. فقلت له : إنك لم تتغير إطلاقاً يا توم".

فأجاب: "ولماذا أتغير؟ إن من واجبنا هنا أن نسلك على طبيعتنا". وكانت هذه إجابة هامة ساعدت على تصحيح مفاهيمي".

أثق أن له هدفاً مماثلاً لذلك لنا جميعاً، أن نسلك على طبيعتنا التي أرادها الله أصلاً لنا. قال الحاخام زوسيا Zusya: "لن يسألني أحد في الأبدية: لماذا لم تسلك كموسى؟، وسيسألونني : "لماذا لم تسلك كالحاخام زوسيا؟". وبكل هدوء سأقول إن الروح القدس أرشدني ألا أكون موسى أو زوسيا، ولكن لكي أكون فيليب يانسي، الإنسان الخاطيء الذي اختاره الله ليسكن فيه. إن الله على إستعداد لأن يساعد كل إنسان على الأرض له الرغبة في أن يسكن فيه. ويبدأ الأمر كله بالثقة في أن الله يريد لي الأفضل، ثقة في أن الله سيحرر. نفسي الحقيقية لا أن يقيدها. كتب بولس الرسول إلى أهل أفسس: "فَإِنَّهُ لَمْ يُبْغِضْ أَحَدٌ جَسَدَهُ قَطُّ بَلْ يَقُوتُهُ وَيُرَبِّيهِ، كَمَا الرَّبُّ أَيْضاً لِلْكَنِيسَةِ. لأَنَّنَا أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ... هَذَا السِّرُّ عَظِيمٌ..."، كما لو أن بولس أيضاً يجد صعوبة في الإيمان بعمق، علاقة الله القوية مع شعبه. إنني أقوم بكل ما يحتاج إليه جسدي: أتناول الفيتامينات، أمارس رياضة العدو، أقص شعري وأظافري، أنام، أزور عيادة الطبيب، آكل، أضمد جراحي، أضع شامبو على البشرة الجافة، أحتفظ بدرجة مقبولة لغرفتي. إنني لا أهمل إحتياجات جسدي على الإطلاق. هذه هي نفس العلاقة الحميمة التي لله مع شعبه على الأرض، لأنه اختار أجسادنا لنا لأنها ملكه.

"أُنْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ!" هكذا كتب يوحنا البشير في رسالته الأولى. مع أن كل شيء حولنا يقول عكس ذلك: نحن لا نستحق، لقد سقطنا، إنه ينقصنا الكثير. كما لو أننا نتوقع الإعتراض، ويضيف يوحنا: "أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، الآنَ نَحْنُ أَوْلاَدُ اللهِ، وَلَمْ يُظْهَرْ بَعْدُ مَاذَا سَنَكُونُ. وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا أُظْهِرَ نَكُونُ مِثْلَهُ.."، والآن جزء منا ما زال مختبئاً، لم ينمُ حتى الآن، مثل العضو الذي لم يُستخدم بعد. ومع ذلك فإن عمل الروح يتقدم بطريقة غير مرئية، ولا نهاية لها لكي يُشكل ذواتنا الحقيقية. فليس بإمكاننا أن نبني الشخصية التي تُسر قلب الله، بل أن الله نفسه هو الذي وعد بأن يفعل ذلك.

لقد قال الله بكل وضوح أنه يقبلنا- بل ويُسرَ بنا- لأننا نحمل

صورته. إننا لا نشعر بهذا الحب السماوي. إن الشك واليأس قد يسرقان منا هذا الشعور مثلما حدث للناس الذين كتب لهم البشير يوحنا. وأحياناً "تلومنا قوبنا" ولكن الله "أَعْظَمُ مِنْ قُلُوبِنَا، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ". عندما وصل مترجم العهد الجديد ج. ب. فيلبس إلى هذه الآية من رسالة يوحنا الأولى، تصور أن يترك هذه الصفحة. ويقول فيلبس: "إنني مثل كثيرين آخرين، أجد نفسي في بعض الأحيان ميالاً إلى رفض ما هو دون الكمال، وإذا لم نحذّر أنفسنا من تملك فكرة الكمال علينا فقد تصيبنا بالغرور، ونبدأ في إنتقاد الآخرين، أو ننتقد أنفسنا". لقد عانى فيلبس من الإكتئاب المرضي، وعندما كان يعاني من المزاج السيء يتمادى في الإدانة بلا رحمة. وحدث معه ذلك حتى بعد أن تمسك بكلمات هذه الآية. كما و أنه يقول: "إذا كان الله يحبنا فمن نحن حتى نتعالى ونرفض أن نحب أنفسنا".

بالنسبة لي أنا أيضاً، فإن قبول محبة الله يتضمن أصواتاً مكتومة قاسية تهمس لي بطرق أخرى: أنت لا تستحق، لقد سقطت ثانية، ولا يمكن أن يحبك الله. ويبدأ ضميري في رسم صورة الله كما في العهد القديم الذي كان له السلطان والعقوبة القاسية، وبصعوبة يمكنني أن أفهم حقيقة أن الله تنازل ليعيش داخلي، والآن يحبني من الداخل والخارج. ويجب أن أسأل الله "الذي هو أعظم من قلوبنا" أن يوقف هذه الدائرة القاسية من الدينونة، وأن يذكرني بحقيقة أن الله يُحبني ويُسرّ بي.

لماذا يحبني الله؟ يجيب الكتاب المقدس على هذا السؤال العميق بكلمة لا تُبارى: **النعمة**. الله يحب لأن طبيعته هي المحبة، وليس لأنني فعلت أي شيء يستحق ذلك. الله لا يستطيع أن يمنع نفسه عن الحب لأن المحبة هي طبيعته.

أتذكر القليل من الخدمات الكثيرة التي سمعتها في حياتي، من بينها خدمة قدمها "إيان بيت واطسون" وقد اشتملت هذه الخدمة على نقطة واحدة، ربما تكون هي السبب الذي جعلني أتذكرها: "إننا نحب بعض الأشياء لأنها تستحق ذلك، وبعض الأشياء الأخرى

تستحق أن تُحب".

بدأ بيت واطسون بأمثلة لأشياء نحبها، لأن فيها من الصفات ما يستحق ذلك: عارضات الأزياء، الرياضيون الموهوبون، العلماء العباقرة، الأعمال الفنية الثمينة والنادرة. ثم ذكر شيئاً ليست فيه أية صفة تجعلنا نحبه، ومع ذلك نحبه. أخبرنا عن إبنته "روزماري" ولعبتها القذرة المصنوعة من القماش، ومع ذلك فهي من أغلى ممتلكاتها، إذ أن روزماري لا يمكنها العيش بدونها. وعندما قرر بيت واطسون السفر من إسكتلندا عبر المحيط ليستقر في أمريكا، إختار كل عضو في أسرته بكل عناية شيئاً من ممتلكاته ليأخذه معه. لقد إختارت روز ماري شيئاً واحداً: إنها دميتها المصنوعة من القماش. وعندما وضعوها في مكان غير مناسب (من وجهة نظرها) في المطار إضطربت روزماري بشدة حتى أن الأسرة فكرت في تأجيل الطيران. وعندما وجدوها أخيراً كان للدمية فعل السحر في تهدئة روزماري. إن قيمة الدمية في حد ذاتها قليلة جداً، ولكنها في عيني روزماري غالية القيمة.

طبّق بت واطسون هذا المثل بشكل كتابي: إن محبة الله ليست مبنية على إستحقاق ذاتي فينا. لقد وصلت إلينا بالنعمة كهبة مجانية، ومنحت الإستحقاق لأناس غير محبوبين. وبعض الأشياء نحبها لأنها تستحق ذلك، والبعض الآخر يستحق أولاً ثم يُحب. ولاهوتياً؛ يناسبنا الجزء الثاني من هذه العبارة، يقول القديس أوغسطينوس: "بمحبتك يا رب لمن لا يُحَبْ، جعلتني محبوباً".

عندما أُحب شخصاً ما فإنني أُسرّ به، وعندما يزورنا بعض الأصدقاء في كلورادو، نشتري لهم الطعام الذي نعرف أنهم يحبونه، وننظف المنزل ونضع أزهاراً في حجرة الضيوف، ونضع لهم خطة للرحلة لنعطيهم أقصى متعة من الزيارة. ولا أستطيع أن أمنع نفسي من النظر عبر النافذة، وكلما اقترب موعد وصولهم كما لو أن إنتظاري لهم سوف يُسرع بمجيئهم. إن الله يشعر نحو كل منا بمثل هذا السرور.

عندما اقتربت حياة هنري نووين من نهايتها قال: إن الصلاة أصبحت بالنسبة لي في المقام الأول وقتاً "للإستمتاع بالبركة". وأضاف أن: "العمل الحقيقي للصلاة للصلاة هو أن تصمت، وتستمع للصوت الذي يقول لك أموراً طيبة عن نفسك". وقال: إن هذا قد يبدو نوعاً من التساهل مع النفس، ولكنه كان يقصد أن يرى نفسه كالمحبوب من الله الذي اختره لكي يسكن فيه. وكلما إزداد سماعه لهذا الصوت، كلما قلت حسياسيته تجاه تجاوب الآخرين معه، أو تقييمه لإنجازاته. وصلى لكي يعلن الله عن سكناه في داخلة من خلال حياته اليومية مثلما يأكل، ويشرب، ويتحدث، ويحب، ويلعب، ويعمل. كان يسعى لأن تكون له الهوية التي تتمتع بحرية حقيقية مثبتة في مكان "يفوق كل المديح والملامة الإنسانية".

أنا أيضاً عرفت أن الصلاة ليست مجرد الطلب من الله لأن يفعل لي ما أريده. إنها تعني أولاً؛ أن أضع نفسي في مكان يُمكِّن الله من "تجديد عقلي" حيث يمكنني إستيعاب الهوية الجديدة كالمحبوب من الله، وهذا ما يصر عليه الله كأساس للإيمان.

في تشابه جزي تعكس "كاثرين نورس" وجهة النظر التي عادةً ما ننسبها إلى الله:

> "في صباح أحد أيام الربيع الماضي لاحظت زوجين وطفلهما عند بوابة الرحيل في أحد المطارات. كان الطفل يحملق بإهتمام في الناس بالمطار، وحالما ينظر وجه أي شخص، سواء كان صغيراً أو كبيراً، جميلاً أو قبيحاً، حزيناً أو سعيداً، كان يتجاوب معه بسرور بالغ.
>
> كم كان جميلاً أن أرى ذلك. لقد أصبحت بوابة الرحيل المُقبِضة باباً للسماء. وكلما شاهدت هذا الطفل يلعب مع أي شخص يقبل منه ذلك، شعرت بخوف كالذي شعر به يعقوب، لأنني أدركت أن هذا هو أسلوب الله في النظر إلينا، فهو يحملق في وجوهنا لكي نفرح ونتهلل، ولكي نرى خليقته التي خلقها صالحة مع بقية الخلائق الأخرى.

وكما يذكر ذلك مزمور ١٣٩: "الظلمة أيضاً لا تُظلم لديك"، وهو الذي يستطيع أن ينظر إلينا ويحملق فينا مهما فعلنا من شر في حياتنا، فنحن خليقته، وقد صنعنا على صورته.

الله وحده فقط، وأولاده المحبوبون أيضاً، يمكنهم أن يرونا بهذه الصورة".

نادراً ما أستيقظ في الصباح وأنا ممتلئ بالإيمان. وبدلاً من ذلك، أشعر مثلما يشعر به سمك إستوائي اعتدت أن احتفظ به في مياه مالحة في حوض للأسماك. فكل سمكة صغيرة لها طريقتها في حماية نفسها بالليل: فالبعض يختبيء في القواقع، والبعض الآخر له أشواك حادة، وأسماك أخرى تختبيء في الحصى. هذه الأسماك تُفرز طبقة من السم حول جسمها ثم تنام في هدوء ولا تنزعج من مضايقات جيرانها. ومع ذلك؛ ففي كل صباح تستيقظ الأسماك وسط سحابة بيضاء من السموم. غالباً ما يكون إيماني بهذه الصورة- فهو الذي كان قوياً في اليوم السابق- يختفي بالليل وأستيقظ وسط سحابة من الشك السام.

سأل بولس أهل كورنثوس: "أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ الْقُدُسِ الَّذِي فِيكُمُ الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللهِ وَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؟ "وكان يبدو عليهم أنهم لا يعرفون هذه الحقيقة. وكم أشعر بالخجل من نفسي لأنني أحتاج أحياناً لأن أُذكِّرَ نفسي بهذه الحقيقة. فإذا كان الله نفسه يحيا فيّ، ألا يجب أن أستيقظ وهذا الفكر في ذهني، وأعيش به طوال اليوم؟ ولكن؛ يا للأسف، إنني لا أفعل ذلك.

في مكان آخر يقول بولس: "إن الله وضع خاتمه علينا لملكيتنا، ووضع روحه في قلوبنا كوديعة تضمن حياتنا المستقبلية". فبعد زراعة عضو جديد في الجسم يجب على الأطباء إستخدام بعض العقاقير التي تساعد الجسم حتى لا يرفض العضو الجديد. فبإمكاني

أن أقول أن الروح القدس يقوم فينا بنفس هذا الدور، فهو قوة حية بداخلنا تحمينا من رفض الخليقة الجديدة التي زرعها الله بداخلنا. وجهاز المناعة الروحي بداخلي يحتاج إلى من يذكره يومياً بأن حضور الله بداخلي أصبح أمراً طبيعياً في أعضائي الروحية، وليس عضواً غريباً.

إنني أذكِّرَ نفسي بما أعرفه بعمق في داخلي: إن قيمتي هي من الله الذي سكب محبته ونعمته عليّ. وفي تواصلي مع الله غير المنظور قد تزل وتبتعد أفكاري عنه. مكالمات تليفونية، أمور تشتت الإنتباه، بعض المناظر في التلفزيون قد تنسيني يقظتي بوجود الله فيّ. كيف أحفظ نفسي من كل هذا؟ كيف أغرس في داخلي الإيمان بأن الله نفسه يعيش في داخلي، حتى وإن كنت أحياناً أنسى هذا الحضور؟

لاحظ "جون ف. تايلور"، وهو يقيم في أفريقيا، كيف يختبر الأفارقة الشعور بالحضور الشخصي. يقول: إننا في الغرب نتحدث مع أصدقائنا بعقول مشغولة جزئياً بشيء آخر، ويلاحظ ذلك الأصدقاء الذين نتحدث معهم. في حين أن الأفريقي ينشغل بعمله ويدخل الصديق الغرفة ويحيهم ويجلس القرفصاء، وبعد تبادل بعض الكلمات، يستمر صاحب المنزل في عمله الروتيني، أثناء جلوس الزائر. وبعد مُضي نصف ساعة يقف الزائر ويقول: "لقد شاهدتك"، ويمضي لحال سبيله. ولم يكن بحاجة لأية معلومات مكتفياً بمشاركة الحضور مع صديقه.

يقول تايلور إن الإنتباه هو مفتاح تذكر هذا الإحساس بالحضور:

> "يعرف كل مدرس ناجح أهمية الطرق على الطاولة بيده، ويقول للتلاميذ: إنتبهوا من فضلكم. فالإنتباه الحقيقي هو أمر ضروري لموضوع الحديث. فالطفل الذي يرضع ويشبع يسترخي. والعقل الناضج يجب أن يكون متلقياً ومتوقعاً قبل أن تكون له أية قوة إبداعية.
>
> ومرة أخرى أقول أن هذه هي حالة العقل الذي تُشرق

عليه الحقائق الجديدة. نحن لا نضع أو نستنبط هذه الحقائق، بل بالحري يكون لدينا إحساس بالإنتظار في إكتشاف شيء ما موجود فعلاً هناك. فالإنتباه يعني الحضور... وأن تكون "في الروح" يعني أن تكون واعياً ومتيقظاً لكل شيء في تلك اللحظة: إلى الغصن الصغير بالشجيرة، كما إلى حضور الله".

يمارس الرهبان في الأديرة ما يُسمونه Statio ويعني التوقف بعد إنتهاء عمل ما قبل أن تبدأ في آخر. لا تندفع من عمل لآخر مباشرة، استرح دقيقة لتسترد أنفاسك. وقبل أن تدير قرص التليفون استرح وفكر في المحادثة مع الشخص على الطرف الآخر. وبعد قراءة كتاب ما، توقف وفكر فيما تعلمته، وكيف تأثرت به. وبعد مشاهدة التلفزيون توقف وتساءل ما الذي أضافه لحياتك. وقبل أن تقرأ الكتاب المقدس توقف وأطب إرشاد الروح القدس. إفعل هذا بإستمرار لتكتسب هذه العادة. وجدت أنني إذا قضيت وقتاً في الصلاة قبل البدء في كتابة رسالة أو عمل تليفوني فإن هذا يخفف من الأمر ويجعله فرصة لتلقي نعمة الله أو مشاركتها مع الآخرين.

إذا لم أمارس عملية الإنتباه بوعي مني، فسوف أشابه العالم من حولي، عالم يحترم فقط الإنجازات والتنافس. ويصحح بولس هذا الأمر إذ يوصي بعملية تطهير الذهن بفترة إستراحة وتوقف: "ركزوا أذهانكم على ما يريده الروح القدس"، هكذا نصح أهل رومية. وفي فيلبي يقول: "... كل ما هو حق، كل ما هو جليل، كل ما هو عادل، كل ما هو طاهر، كل ما هو مُسر، كل ما صيته حسن، إن كانت فضيلة، وإن كان مدح ففي هذه إفتكروا". إن إكتساب شخصية جديدة يتطلب عملاً إرادياً. تخلص من ذاتك القديمة والبس ذاتك الجديدة، وفي كل مكان آخر ينصح بولس "بتجديد الذهن"، كما لو أننا نختار ملابس جديدة كل يوم من دولاب الملابس.

تساءل "ديترش بنهوفر": ماذا نريد من تأملنا؟، ويجيب : "نريد أن نكون في حالة تختلف عما كنا عليه قبل جلوسنا للتأمل".

إن العالم المنظور يفرض نفسه عليّ دون دعوة، أما غير المنظور فيجب أن أزرعه بداخلي بكل وعي مني. كم كنت أود أن تتم العملية بطريقة تلقائية وطبيعية، ولكنها لا يمكن أن تكون كذلك. وفي الحقيقة وجدت أن مثل هذه العملية، مثل أي شيء آخر ذى قيمة، تحتاج إلى نظام. ويقول عازف البيانو "أرثر رونستين": "إذا لم أمارس العزف ساعة لمدة يوم واحد، فأنا أشعر بذلك. وإذا لم أمارسه يومين يشعر به النقاد،وإذا إمتنعت عن العزف لمدة ثلاث أيام فإن الجمهور سيكتشف ذلك". وبالمثل فإن الحياة المسيحية تتطلب عملاً يومياً من الإرادة، وإيمان توجيه لهوية شخصية جديدة.

وكذلك التواصل مع الله يتطلب أوقاتاً من التأمل الهادىء. قضى والد عازف الفيولونسيل "يو يو ماYo- Yo Ma"فترة الحرب العالمية الثانية في باريس حيث عاش بمفرده في غرفة على السطح طوال فترة الإحتلال الألماني. ولكي يسترد عافيته وسلامته العقلية بدأ يمارس قطعاً موسيقية لباخ على الكمان طوال النهار والليل، وحتى أثناء الظلام كان يعزفها بمفرده. وأخذ الإبن "يو- يو" بنصيحة أبيه، وأخذ يعزف موسيقي باخ من الذاكرة كل ليلة قبل ذهابه للنوم. يقول "يو- يو ما" معلقاً على ذلك: "لم يكن هذا تدريباً ولكنه تأمل. لقد كنت منفرداً مع روحي".

لقد إشتملت هذه الروحانية على الجانبين: الممارسة المنتظمة التي اتبعها "روبنستين"، والتأمل الهاديء الذي قال عنه "يو_يو ما". وسألت نفسي في نهاية اليوم، هل قمت بفعل أي شيء يُسر قلب الله؟ وطالما أن الله يريد أن يفرح بي، فهل أعطيته مثل هذه الفرصة؟

إن أية إجابة ليست مهمة، فأنا مازلت أتمتع بمحبة الله وأطلب منه أن يشملني بالنعمة والغفران. إنني أحاول أن أهديء الضجيج الذي بداخلي، وأفسح مكاناً للهدوء الإلهي لكي يتسرب داخلي. وأنا مقتنع بأن أكثر الأمور أهمية لله في الصلاة هو إشتياقي لمعرفته.



تخبرنا "روبرتا بوندي" عن راهب عاش في القرن السادس رأى مجتمعاً في حالة إضطراب عظيم. بعض أخوتنا المضطربين بدأوا يتجهون إلى علاقة صحيحة من الحب لله. واشتكى بعض الرهبان، فقال هم "دوروثيوس": إنكم مخطئون، أنظروا إلى العالم على أنه دائرة عظيمة مركزها الله، والإنسان يعيش خارج محيط الدائرة. و"تخيل الآن أنه توجد خطوط مستقيمة تربط ما بين خارج الدائرة التي بها البشر، مع الله الذي هو في المركز. ألا ترى أنه ليست هناك أية طريقة للتحرك نحو الله بدون التقارب مع الناس الآخرين، ولا توجد طريقة للإقتراب من الآخرين بدون الإقتراب إلى الله؟"

وبينما تتغير هويتي من الداخل، تنفتح عيني لترى الآخرين المحتاجين إلى محبة الله ورحمته. يتابع بولس نصيحته لأهل رومية قائلاً: "... أن تتغيروا بتجديد أذهانكم"، مع أول ذكر كامل لجسد المسيح، ثم يُعطي سلسلة من أوامره الحاسمة مثل: "اشتركوا في إحتياجات القديسين، عيشوا بالسلام مع الجميع". وفي رسائل أخرى يطلب من الذين يقرأون الرسالة أن يُشبِعوا الجوعى، ويضيفوا الغرباء، ويظهروا المحبة مع غير المؤمنين ممن حولهم. فالعقول المتجددة تُعبّرَ عن نفسها في علاقتها مع الآخرين. يقول "داج هامرسخيلد": "إن الطريق للقداسة يمر بالضرورة من خلال الحياة العملية".

مرات عديدة أتذكر قصة الرجل الذي جائني مرة قائلاً: "أنت كتبت كتاباً عنوانه: أين الله في وقت الألم؟، هل هذا صحيح؟" فقلت له: نعم. فقال: "ليس لديّ وقت لقراءة الكتاب، هل بإمكانك أن تقول لي خلاصة الكتاب في جملة أو جملتين؟"

فكرت قليلاً ثم أجبت: "حسناً؛ سأجيبك بسؤال آخر: أين الكنيسة عندما نتألم؟ وشرحت له أن الكنيسة تُمثل حضور الله على الأرض، إنها جسده. وإذا قامت الكنيسة بعملها- إذا تواجدت الكنيسة أثناء

الكوارث، تمول عيادات مرضى الإيدز، تعطي المشورة لضحايا الإغتصاب، وطعاماً للجياع، وسكناً للمشردين- فلا أعتقد أن العالم سوف يسأل هذا السؤال. إنهم سيعرفون أين الله في وقت الألم. فهو موجود في المؤمنين الذين يخدمون البشرية الساقطة. وفي الحقيقة فإن شعورنا بحضور الله غالباً ما يكون حصيلة لحضور الناس الآخرين.

لعدة سنوات وقفت بجانب صديق لي في ظروف صعبة مظلمة. كان يعاني بقسوة من الإكتئاب، والذي أدى إلى الطلاق، وفقد لوظيفته. ودخل مستشفى الأمراض النفسية والعصبية، وحاول الإنتحار ثلاث مرات. إلتقيت به، وصليت معه، وتحادثت معه تليفونياً لساعات طويلة. وكنت أشعر معظم الوقت بأنني عاجز وبلا فائدة. قررت أخيراً أنه بحاجة إلى محبتي أكثر من حاجته للنصيحة. فاقتربت منه كثيراً على قدر إستطاعتي.

وأخيراً؛ شُفي صديقي، وعاد إلى صوابه. قال لي: "أنت كنت بمثابة الله بالنسبة لي، لم تكن لي علاقة مع الله الآب، فقد بدا لي أنه غير موجود. ولكنني احتفظت بإيماني بالله بسبب معاملتك أنت معي". وأردت أن أوقفه وأمنعه من أن يقول هذا لأنني أعلم من أنا. ومع ذلك، فعندما كنت أستمع له أدركت المعنى العميق لقول بولس "جسد المسيح". ولأي سبب من الأسباب، قد إختارني الله وقليلين غيري "كأوانٍ خزفية" سكب فيها حضوره. ونحن نقوم بهذه الرحلة ليس بمفردنا، بل بالحري معاً.

> "تلك هي تلميحات وتخمينات فقط،
> تلميحات تتبعها تخمينات،
> والباقي
> صلاة، وشعائر، ونظم،
> فكر وعمل."
> ت. إس. إليوت



١٤ - خارج نطاق السيطرة



"كل إختبار روحي هو في الأصل إختبار غير مشروط، وغير محدود للمحبة"

برنارد لونرجان



كجزء من إسبوع موسيقي متنوع، إستضاف المركز الثقافي بشيكاغو فريق الترنيم المحلي، والذي يمثل مركز يسوع للكتاب المقدس Christ Bible Center. واجتذب هذا الحفل الموسيقي، والذي أقيم ظهراً، غالبية الأثرياء من رجال الأعمال. صاح قائد فريق الترنيم، وهو ينظر إلى الصالة الفخمة، قائلاً: "هل تؤمنون بأن الله سيعمل فيما بيننا؟ من كان يصدق أن الروح القدس مدعو لهذا المبنى القديم للمكتبة". ابتسم معظم الحضور بإرتياح مصفقين ثم جلسوا ليستمتعوا بالأصوات العذبة القوية، والأجساد المتمايلة.

لقد حصلنا على أكثر مما توقعنا، واستحوذ المرنمون الروحيون على مشاعر الحاضرين لمدة عشرين دقيقة، وفجأة شعر أحد أعضاء فريق الترنيم بحالة من الهيام الروحي. وبعد أن قفز من الصفوف الأخيرة وبدأ يثب على قدم واحدة على المسرح، وهو

يصيح: "هللويا، هللويا..." ويتكلم بألسنة.

وإستمر فريق الترنيم في التسبيح كما لو أنهم معتادون على ما حدث. ولكن بدا على الحضور شعور بعدم الإرتياح. وإذا بسيدتين من كبار السن اللواتي يرتدين الفراء أخذتا حقيبتهما وانصرفتا. بينما نظر بعض الرجال والسيدات إلى ساعاتهم بعصبية، وإنفجر الجميع بالسعال.

وعندما سقط بعض أعضاء فريق الترنيم على الأرض تحت تأثير الروح القدس خرج معظم الناس. وبدأ مدير الفريق يعتذر للعدد القليل الباقي من الناس وقال: "حسنا، أنتم رأيتم وتعرفون ما حدث، ليس بإمكانكم أن تحصروا الروح".



في مساء عيد الميلاد الثامن والعشرين وقف مارتن لوثر كينج خلف منبر إحدى الكنائس في مونتيجومري، في ولاية ألاباما. وكان المهاجمون قد أحرقوا منزله، ولم يتمكن من النوم بدرجة كافية وشعر بالقلق للتهديدات بالموت لأسرته. كان مستقبل حملة الحقوق المدنية في مونتيجومري يبدو كئيباً. وبدأ كينج الصلاة بصوت مرتفع على المنبر، ولأول مرة في حياته العامة طغت عليه حالة من الهيام الروحي. وكان يصلي قائلاً: " يا رب أرجو أن لا يموت أحد كنتيجة لنضالنا من أجل الحرية في مونتيجومري. وبالتأكيد فإنني لا أود أن أموت. ولكن إذا كان لابد لأحد أن يموت، فليكن أنا". وظل فمه مفتوحاً، ولم يتفوه بكلمة. وأغمي عليه وأسرع خدام آخرين لمساعدته، وصاح المشاهدون بحماس تأييداً له (وليس كما فعل الحضور في شيكاغو). وحل الروح القدس عليه وهو يقول: "آمين، هللويا أشكرك يا يسوع". وبعد ذلك شعر كينج نفسه بالحيرة لما حدث.



عندما يتحد الروح القدس مع إنسان مؤمن، قد تحدث أموراً غريبة. وهذا قد يخيف بعض الناس، ويربك آخرين، ويأسر البعض الآخر. عندما كان يُخرج مسلسلاً دينياً للتلفزيون يدعى "عيناي رأتا مجده" صوّرّ "راندال بالمر" بعض الصور المدهشة عن نشاط الروح القدس في الكنائس في الجنوب التي يصلي فيها الأمريكيون الأفارقة. وقال لي فيما بعد، إنني بدأت أتساءل : لماذا نمتنع عن عرض الصور عن عمل الروح القدس في التلفزيون؟.

ولأنني صحفي، لديّ الميل لأن أبعد نفسي، لكي ألاحظ ما حولي مثل شخص غير مرئي، الذي لا يدخل علينا بل يتسلل في دخوله وخروجه، ويكتب ملاحظاته عن المشهد طوال الوقت. وقد يساعد هذا الوضع شخصاً ما يكتب في السياسة في واشنطن أو يغطي أحداث حربية أو حدثاً رياضياً، لكن بالتأكيد لا يساعد شخصاً يحاول أن يفهم حقائق روحية. ويقول مثل ألماني: "أسفل المنارة مكان مظلم".

جلست مرة في إجتماع خمسيني (كريزماتي) وبدأت أتطلع فيما حولي. الموسيقى تزعج آذاني، ولكن لها تأثير ساحر على الآخرين. الأيادي مرفوعة لأعلى، العيون نصف مغمضة، والأجساد تهتز. ويبدو عليهم التأثير العاطفي الشديد والذي لم يحدث لي. وبحذر شديد اقتربت منهم وسألت: "أريد أن أفهم ما الذي يحدث هنا؟"

ورداً على سؤالي حملقوا فيّ وتمتموا ببعض العبارات ونظروا إليّ بإنزعاج وشفقة. ولم تكن لديّ الرغبة في التقليل من القدر الروحي لما حدث، فإذا ركزت على نشاط الروح سينطفيء ويهرب كل شيء.

كما أنني يجب أن أعترف بأنه لديّ خبرة شخصية قليلة لحضور الله بهذه الصورة الدرامية المؤثرة. فقد جلست في إجتماعات صلاة ورأى كل من حولي أن عدم إقتناعي وتجاوبي خطأ فادح، وتوسلوا للروح القدس أن يأتي ويملأني. وشعرت بعدم إرتياح شديد. كما لاحظت أن إثنين من هؤلاء الأخوة المملوئين حاولوا أن يطردا

أرواحاً شريرة من أخي الذي كان في غرفة الموسيقى. ومع ذلك، فمثل هذه الأمور كانت نادرة، وعندما أسمع قصصاً عن كنائس يحدثون فيها أصواتاً كالحيوانات، أو تنتابهم بعض نوبات من الضحك أتذكر على الفور الحزن الذي شعرت به في المركز الثقافي في شيكاغو، وما شعرت به عندما رأيت الأخوة يحاولون إخراج الشياطين من أخي في غرفة الموسيقى.

لم يحدث لي على الإطلاق أن تكلمت بألسنة، أو صرخت في كنيسة، أو غمرتني حالة من الهيام الروحي في إجتماع عام، كما حدث لمارتن لوثر كينج. وقد يُعزى هذا إلى إختبارات خرقاء من الماضي، بسبب خوفي من فقدان السيطرة، أو نقص روحي، أو إخماد شعاع أو مسحة من العقلانية. لا أعرف سبباً معيناً، ومع ذلك فالذي أعرفه جيداً، هو أن كُتّاب العهد الجديد تحدثوا بإستمرار عن "روح المسيح"، واستخدموا عبارات مثل "في الروح"، و "في المسيح" بطريقة تبادلية. ولهذا السبب فعندما أردت أن أرى روح الله أعود إلى يسوع الذي فيه أرى ما لا يُرى.

في العشاء الأخير، قال يسوع لتلاميذه:

> "وَأَمَّا الْمُعَزِّي الرُّوحُ الْقُدُسُ الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ... ذَاكَ يُمَجِّدُنِي لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ."

وبسبب حياة يسوع على الأرض، تكوّنت لدينا صورة حية وعملية لما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بالله. وفي الحقيقة فإن "ثمار الروح"، هي صفات يسوع التي أظهرها، وهو على الأرض، ووعد بأن يسكن فينا لكي يغذي نفس هذه الصفات.



إذا تساءلت عن الكيفية أو الأسلوب الذي يعمل به الروح القدس فيّ، فإنني أحتاج لأن أنظر إلى يسوع فقط.

قرأت دراسة طبية نفسية عن خمسة وعشرين مواطناً من الغرب، ثلاثة عشر منهم مرسلين، سجنوا وأجريت لهم عملية غسل مخ من قِبل نظام الحكم الشيوعي في عهد ماو تسي يونج. وقد تولى السجانين الشيوعيون أمر إزالة كل الأفكار الخاطئة التي زُرعت بواسطة الإستعماريين والرأسماليين. ولكي يفعلوا ذلك كان عليهم أن يتبعوا وسائل تعذيب فنية من الإكراه والقسر. فأجبروا هؤلاء الأجانب على الوقوف، وقيدوا أيديهم خلف ظهورهم وسلاسل في أقدامهم، وظلوا أسابيع بدون نوم وأخذوا يلقنونهم "الأفكار الصحيحة". وكل من يخالف ذلك يُضرب. وقضوا ثلاث سنوات في تعذيب هؤلاء المسجونين ليحطموا إرادتهم القوية، وفي نهاية الأمر إعترف كل واحد منهم بالجريمة ووقع باسمه على الإعترافات. وعندما عادوا ثانية إلى الغرب ظهر عليهم نوع من الإرتباك، والخوف، وعدم التأكد مما يؤمنون به. ومع ذلك فجميعهم، فيما عدا عدداً قليلاً منهم، شجبوا دعاوى الذين أسروهم، والتي أجبروهم على تصديقها.

لم يغسل يسوع مخ أي فرد، بل على العكس، فقد وصف تكلفة إتباعه بكل الكلمات الحقيقية التي نتخيلها "احمل صليبك واتبعني". لم يفرض نفسه على أي شخص آخر، ولكنه كان دائماً يترك مكاناً للإختيار بل وحتى للرفض. وبنفس هذا الأسلوب، فأي تغيير يجريه الله في الشخص سيحدث ليس عن طريق الإكراه من الخارج، ولكن بعمل الروح في الداخل، داعياً لحياة جديدة ومغيراً ما بالداخل. والكلمات المستخدمة لوصف روح الله- المُعزي، المرشد، المُعين- تُشير إلى أن التغيير يتضمن بطئاً، وعملية داخلية.

بعد التفكير في الكلمات المستخدمة عن الروح القدس في كل من اللغة اليونانية والإنجليزية، لخصها "جيمس هيوستون" في كلمة بسيطة "اصديق". فالصديق الحقيقي دائماً ينال أفضل إهتمام قلبي. وأحياناً يجب على الروح القدس، كصديق حميم، أن يستخدم المحبة القاسية ليذكرني بما يحتاج إلى تغيير- لأنه يعرف ما بداخلي، والله قادر على أن يظهر نقصاتي التي أحاول التغاضي عنها. ومع

ذلك؛ فعندما أشعر بفراغ، وعدم فهم، ووحدة، فإن الروح يعزيني ويهديء من روعي وخوفي. كما أن الروح يذكرني بمحبة الله وحضوره والحقيقة أنني أصبحت إبناً له.

يقول الكاتب "لاري كراب": إننا نحن المسيحيين (المؤمنين) غالباً ما نتواصل مع بعضنا البعض بواحد من طريقتين: "إفعل ما هو حق"، "اصلح ما هو خاطيء". وبدلاً من ذلك فإن العهد الجديد يعلمنا طريقة أفضل: " تحدث بالصلاح". وما هو صالح، هو الروح القدس الساكن فينا بكل إمكانيات الله التي هي تحت أمره.

وعندما أفكر في الخوف الذي ينتابني عند ذكر الروح القدس فإنني أضحك ساخراً من فكرة هيمنة المعزي (الروح القدس). وأحياناً أشتاق سراً إلى المشاهدة المثيرة- لنوبات الفرح، والإستجابات المعجزية للصلاة، وقيامة الموتى، والشفاء- وعندما يحقق الروح القدس تقدماً بطيئاً وثابتاً نحو قصد الله الذي يريده: إعادة بناء تدريجي لنفس ساقطة.

والقرن العشرون يقترب من نهايته لتبدأ ألفية جديدة، وكنت قد قاربت على الإنتهاء من كتابي، إجتزت في حالة من الضعف الروحي. كما أن المسئول عن إخراج الكتاب قال لي بأنه يعاني من نفس الحالة عدة مرات في العام، ولم يفشل ولا مرة واحدة في أن يسمع صوت الله يتحدث إليه لمدة أربعة أيام. قد نظل صامتين ملتزمين بالصلاة، على الأقل أربع ساعات يومياً.

وتوصلت لمعنى ما أنا فيه بعد الكثير من الشك. وقضيت شهوراً في كتاب يتحدث بعمق عن الشك، وعن صمت الله. توقعت يوما كاملاً من التعب والضيق، وربما يوم آخر من المقاومة قبل سماعي أي شيء كصوت الله بأي شكل من الأشكال. ومع ذلك، قررت أن أواصل برنامجي مع بذل كل الجهد لكي استمع مصغياً.

ولدهشتي، بدأ الله في التحدث فوراً. ففي ظهيرة أول يوم بدأت في الكتابة لجريدة عن ماذا يمكن أن يقول الله لي إذا أملى عليّ "خطة عملية" لبقية عمري. وكلما إزداد سماعي كلما إزدادت

القائمة ، وإليك بعض الأمثلة:

- "تساءل عن شكك كما تتساءل عن إيمانك". من طبيعتي الشخصية- أو ربما كرد فعل لماضٍ متزمت- أنني أفكر كثيرًا في الشكوك وأختبر الإيمان في فترات قصيرة. ألم يأت الوقت لأعكس الوضع؟

- "لا تفعل هذا بمفردك، إبحث عن أصدقاء يرونك كرفيق في السفر، حتى وإن كان شريداً، وليس كمرشد". ومثل كثيرين من البروتستانت، أتخذ وضعاً شخصياً واحداً منفرداً مع الله، وهو موقف غير كتابي. فلديّ معرفة وإرشاد قليل في كيفية العيش كتابع وحيد لأن الله لم يقصد هذا.

- "إسمح للأمور الصالحة- الجمال الطبيعي، صحتك، كلمات مشجعة- أن تنعكس بعمق مثل الرديئة". لماذا أتوقع سبعة عشر رسالة تشجيع من القراء حتى يمكنني التغلب على الأثر السيء لرسالة واحدة إنتقدتني؟ وإذا استيقظت كل صباح ونمت كل ليلة في جو من الشكر والإمتنان للرب بدلاً من الشك، فإن الساعات المتبقية فيما بينها سوف يكون لها طعم آخر وشكل مختلف.

- "لمصلحتك الشخصية تخلص من كل ما يبعدك عن الله". من بين الأشياء الأخرى مثل: رسائل شديدة القسوة، إعطاء بيانات، رسائل تافهة، بعض البرامج التلفزيونية... تخلص من كل هذا.

- "إبحث عن الأمور التي تشعر بأنها تُسر الله". قال العدّاء "إريك ليدل" لأخته: "لقد خلقني الله عداءً، وعندما أجري أشعر بأنه مسرور بي". ما الذي يُشعرك بأن الله مسرور بك؟ يجب أن أعرف ذلك وأنفّذه.

- "لا تخجل". "أنا لا أستحي من الإنجيل". هكذا قال بولس الرسول لأهل رومية. لماذا أتحدث عن عموميات عند ما

يسألني آخرون عن مهنتي وأحاول أن أقلل من قيمة الكتب التي أكتبها؟ لمذا أذكر المدارس المدنية التي درست فيها قبل المدارس المسيحية؟

- "تذكّر المؤمنين الذين يزعجونك كثيراً... فقد إختارهم الله أيضاً". لسبب ما، أجد من السهل عليّ أن أُظهر نعمة وقبولاً نحو الأشرار أكثر منه نحو المؤمنين المزعجين وهذا بالطبع سوف يحولني إلى مؤمن يدين الآخرين وينتقدهم.
- "إغفر، يومياً، لأولئك الذين يسببون لك جروحاً تبعدك عن الكمال الروحي". وبإستمرار، أكتشف أن جراحنا نفسها التي يستخدمها الله في خدمته. وعندما أحتفظ بداخلي بالإساءات لأولئك الذين تسببوا فيها، فإنني بذلك أعطل عمل التحرير والفداء الذي يمكن أن يعطي لتلك الجروح ثمناً وقيمة، بل وأخيراً الشفاء.

وقد تتساءل: "كيف يتحدث الله؟" لم يحدث مطلقاً أنني سمعت صوتاً مسموعاً في داخلي، كشكل من أشكال اليقظة الروحية الذاتية. ولكنني أود أن أقول: إلى أن يكون بإمكاني أن أستنتج بنفسي من الروتين اليومي، وألتزم بفترات طويلة من الصمت، فإنني أفقد سماع ذلك الصوت الداخلي. ومع أن الله قد يتحدث طوال الوقت، وحتى أفتح آذاني فإن ذلك يحدث تغييراً قليلاً في حياتي.

في إحدى المرات وأنا في ولاية أريزونا مارست رياضة العدو عبر طريق ترابي، ومررت بالصدفة على عيادة لعلاج سوء الهضم، والتي تقدم الطعام للأثرياء. وغيرت إتجاهي بعيداً عن الطريق الترابي إلى طريق آخر به بعض اللوحات الإرشادية مكتوب عليها بعض الشعارات مثل: "توقع معجزة". وكانت الإعلانات المعلقة عبر الطريق تشجعني لأن أعترف أنني لا أستطيع السيطرة على جسدي وليست لديّ القوة للسيطرة على

عادات الأكل. ولمسافة أكثر من كيلومتر كانت موضوعة بعض العلامات بجانب المقاعد على درجات السلالم الإثني عشر، وهي تشجع المشاركين لأن يستريحوا عليها ويفكروا في تقدمهم.

وإنتهى الطريق إلى مكان المدافن، حيث رأيت بعض القبور التي عليها علامات محفورة. وتوقفت لأقرأ ما هو مكتوب على كل قبر، وكان العرق يتصبب مني بعد العدو في حرارة الصحراء. "هنا توجد مخاوفي من الألفة والصداقة الحميمة"، هذا ما كتبته واحدة تدعى "دونّا" والتي دُفنت منذ ثلاثة أيام فقط في ١٥ سبتمبر. وكانت اللوحة المكتوب عليها ملونة باللون الأصفر والأحمر والأزرق. وآخرون دفنوا معهم أشياء مثل السجائر، أقراص خاصة بالنظام الغذائي، الحاجة إلى التنظيم الذاتي، الحاجة للتحكم في الآخرين، عادة الكذب.

تعرفت وأنا في هذه المدافن على بعض العبارات المسيحية مثل: الموت عن الذات صلب الجسد. وعرفت أيضاً أن مخاوف دونا من الألفة قد تقوم يوماً ما. وأن القوى الروحية التي تمسك بشخص ما في قبضتها لا تختفي ببساطة ولا تموت.

ما الذي أود أن أدفنه؟ سألت نفسي، وإذا ذهبت إلى عيادة لعلاج الأمراض الروحية وهرولت إليها كل يوم، كم لوحة من لوحات القبور سوف أتركها عبر الطريق؟ وكيف ستغيرني لأفهم أن القوة العليا هي فعلاً قوة داخلية، وهي تعيش داخلي في هذه اللحظة؟ هل قوة الروح القدس تستطيع أن تُميت فيّ هذه الأمور: الكبرياء، الشك، الأنانية، عدم الإحساس بالظلم، الشهوة.. التي حاولت أن أصلبها وأدفنها مرات عديدة من قبل؟

يحاول "ريتشارد موو" أن يتذكر إجتماعه مع عالم الإجتماع "بيتر برجر"، يقول "موو" إن كل مؤمن مدعو لأن يشارك في طاعة برنامج الله للعدالة، والبر، والسلام. ويقول:

> "أجاب "برجر" على كلامي بالقول: بأنني أعمل طبقاً لفكرة مبالغ فيها عن الطاعة. ويضيف: إنه في إحدى

بيوت المسنين كانت هناك سيدة مؤمنة كان خوفها الكبير والعظيم في الحياة هو أن الناس قد يعتبرونها حمقاء، لأنها لا تتمكن من التحكم في المثانة وهي في الكافتيريا. وبالنسبة لهذه المرأة فإن أعظم عمل لطاعة الرب يسوع هي أن تضع نفسها بين يدي إله محب في كل مرة تذهب فيها للغداء.

لقد كانت وجهة نظر "برجر" عميقة. إن الله يدعونا لأن نتعامل مع التحديات التي أمامنا، ومن أعظم تحدياتنا الأساسية "أمور صغيرة" للغاية. والدعوة هذه للخضوع والطاعة قد تعني الاستماع بصبر إلى شخص ما قد يكون متعباً أو مزعجاً، أو الإحسان إلى شخص خاطيء هو في حاجة إليه، أو تقديم نصيحة في أمر قد يبدو تافهاً لكل شخص، ولكنه مهماً للشخص الذي يطلب هذه النصيحة".

إندهش س. إس. لويس عندما عرف أن حياته بعد التجديد تشتمل على عمل نفس الأشياء التي كان يعملها من قبل، ولكن بروح جديدة. وفي النهاية توصل إلى أن المؤمن العملي "يعني أن كل عمل وشعور، وكل إختبار سواء كان ساراً أم غير سار يجب أن يُنسب إلى الله". فالمهم في الأمر هو أن تعيش لا لنفسك بل " لشخص آخر، وبنفس الطريقة، فقد يكرس رياضياً لعب مباراة من أجل مدرب مات بالسرطان، أو لشخص يحبه.

في مسرحية أو في فيلم قد تكون معظم الأحداث العادية كـ: تخرج لشراء جريدة، تركب سيارة، تجيب على التليفون- لها مدلولات هامة. وقد تدور الفكرة الرئيسية حول هذه التفاصيل، ويشاهد الحضور بإهتمام هذه التفاصيل لأنهم لا يعلمون أياً منها هو المهم، والذي به مفتاح كل الفكرة الرئيسية. تشبه الحياة مع الله هذا الأمر، لأن حضور الله يعطي قوة وأهمية جديدة لكل حدث.

سواء كنت أعاني من سلاسة في البول، أو متاعب في الأكل، أو

مخاوف في الصداقة، أو إنجذاب للشهوة، أو عدم الأمانة، أو روح المرارة والتوبيخ، فالأخبار السارة لي هي أنني لست بحاجة إلى "تنقية نفسي" قبل الاقتراب من الله. بل على العكس: في الروح، وجد الله طريقه لكي يعيش داخلي، لكي يعتني من الداخل. إن الله لم يعدنا بحالة من السعادة الدائمة أو العيش بلا مشاكل بل وعد بأن يحضر ويوجْد في الظلام في داخلنا وبجانبنا ومن أجلنا.



تربيت على الثقافة الإنجيلية التي تؤكد على قوة الله. وكطفل كنت أعيش في خوف من الله - كيهوه في العهد القديم- الذي قد يستخدم البرق، والمرض، أو أية أسلحة أخرى من ترسانته ليعاقبني على خطيتي. وبعد أن فاز أخي في مسابقة للعزف على البيانو قال لي في تقوى شديدة: "لست أنا، إنه الرب الذي أعانني على الفوز". وأنا الذي أمارس العزف بكل إجتهاد، بنصف الموهبة، أتساءل دائماً لماذا لا يقود الله أصابعي بمهارة لكي أفوز. ففي بعض الأحيان، في إجتماعات الصلاة، أسمع طلبات مثل هذه: "يا رب لا تسمح لأن تكون لنا أفكارنا الخاصة، ولا أعمالنا الخاصة، بل إعمل أنت كل شيء من خلالنا". يقول أحد الأصدقاء تعليقاً ساخراً على هذه الصلوات التي غالباً ما تُجاب: "إن هؤلاء الناس يبدون كمن ليس لديهم أفكار خاصة بهم".

أخيراً وجدت أن التأكيد الدائم على قوة الله قد يؤدي إلى مجرد الإيمان بالقضاء والقدر، الذي يؤمن به المتشدوين من الديانات الأخرى، الذين يقولون بأننا كبشر لا نحتاج لأن نفعل شيئاً لأن إرادة الله هي التي تفعل كل شيء. أما الأمر الأكثر تأثيراً هو معجزة تنازل الله ورغبته المتواضعة ليشاركنا قوته، ويعرض علينا المشاركة الكاملة في خدمة وإرسالية تغيير العالم.

إعتدت أن أشعر بضعف مستواي الروحي لأنني لم أختر الظهور المثير للروح القدس، ولم تحدث لي معجزة في حياتي.

بل أنني قد وجدت أن ما أهتم به وأُقيّمه يختلف كثيراً عما يُقيمّه الله. ويسوع- الذي كان يَعزُف عنٍ إجتراح المعجزات- اعتبر صعوده للسماء وتركه للأرض نوعاً من التقدم، لأنه أوكل الخدمة والإرسالية لتلاميذه. كمثل الوالد الفخور بأولاده والذي يُسرّ أكثر بمتابعة الإنجازات الصغيرة لأولاده المراهقين، أكثر من أي عمل معجزي يفعله هو.

من وجهة نظر الله، فإن التاريخ الإنساني قد يكون هو ما حدث في يوم الخمسين، الذي استعاد التواصل المباشر بين الروح الإنساني وروح الله، هذا الذي فُقِدَ في جنة عدن. إنني أريد أن يعمل الله بطريقة مباشرة ومؤثرة ولا تقبل الجدل. إنه يريد أن يشاركني قوته ليحقق عمله من خلال الناس، وليس بدونهم.

كانت صيحة كل مراهق: "يا رب تعامل معي بجدية، وعاملني كشخص ناضج، وليس كطفل"، إن الله يحترم مثل هذه الطلبة. إنه يجعلني شريكه في العمل، ويمنحني الحرية في معرفة كاملة، حتى لا أسيء إستخدامها. إنه يتخلى عن قوته إلى الحد الذي يطلب مني أن لا "أحزن" أو "أطفيء" روحه. ويفعل الله كل هذا لأنه يريد شريكاً محباً وناضجاً، وليس مراهقاً غير مسئول.

ذكرت سابقاً التشبيه الجزئي بين الزواج وعلاقتنا مع الله، فالزواج الذي هو أكثر العلاقات "نضوجاً وقوة" ويتمتع بها معظم الناس. ففي الزواج يمكن للشريكين أن يحققا الوحدة معاً، وفي ذات الوقت يحتفظون بحريتهم وإستقلالهم. إن شيئاً جديداً يحدث، هوية مشتركة يشارك فيها كل من الزوج والزوجة. عندما أخطط أنا وزوجتي للقيام برحلة تقوم هي بعمل بعض الترتيبات، وأقوم أنا بترتيبات أخرى، ونادراً ما نختلف على من سيقوم بهذا أو ذاك، لأننا نعلم أن مجهوداتنا تتجه نحو شيء سيستفيد منه كلانا.

ومع ذلك- كما يعلم كل زوجين- فإن وجود جنسين مختلفين في الزواج يُبرز إختلافات قد تأخذ منهما طوال حياتيهما معاً حتى يتوائما. كما أن إندماج كائن إنساني مع الله يتضمن نوعاً جديداً

تماماً من التعارض والتناقض. شريك غير منظور، ذو سلطان وكامل في كل شيء، والشريك الآخر منظور، ضعيف ومعرّضَ للخطأ. كيف يمكن للإثنين أن يسيرا معاً؟

بطريقة ما، يقوم الروح القدس بعمل "المشورة الزوجية" بيني وبين الله. وقد يصعب علينا فهم هذا التشبيه، ولكن تذكر كلمات العهد الجديد التي تصف الروح القدس على أنه المعزي والمرشد والمعين. فالروح يعزي في أوقات الحزن، ويهديء في أوقات الإضطراب، ويعطي النصرة على الخوف. ويقدم الكتاب الروح القدس كالقوة الداخلية غير المرئية، والوسيط بين الله الذي يساعدنا لكي نتواصل مع الآب المتنازل.

مثل كل زوجين جديدين مملوئين بالأحلام والتفاؤل عرفت أنا وجانيت أن الزواج هو مجرد بداية عملية لإقامة علاقة الحب بيننا. وهذا لا يعني أنه كان خالياً من المشاعر السلبية، أو أنه مكان دائم للهدوء. بل على العكس من ذلك، كنا نُعبِّرَ عن مشاعر الغضب واليأس لبعضنا البعض أكثر من أن نشكو لأخرين. والزواج الصحي ليس مكاناً خالياً من المشاكل، ولكن يمكن أن يكون مكاناً آمناً. إننا نعرف أننا نحب بعضنا اليوم، وسنحب بعضنا غداً، وبالرغم من الضغوط حولنا، فإن حبنا سوف يضمد الجراح التي تسببت فيها هذه المشاعر في المقام الأول.

عندما أقرأ المزامير، وأيوب، وإرميا، أحس بنفس الشعور يتفاعل داخلي. لنلاحظ كمية الغضب والشكوى، والإتهامات ضد الله، التي تشتمل عليها هذه الأسفار. إن الله يقدم لنا "مكاناً آمنا" لنعبر عن أنفسنا، حتى عن الجوانب السيئة فينا. لقد سمعت قليلاً عن الأمانة عديمة الحس التي تنمو في الكنيسة، والتي أعتبرها عيباً روحياً وليس نوعاً من القوة. وقد لاحظت أن المؤمنين ليست لديهم الحصانة ضد الظروف التي قد تؤدي إلى الإنفجار، كما نرى في أيوب والمزامير. لماذا نحاول أن نخبيء عواطفنا العميقة عن الله الذي يسكن داخلنا، الروح الذي وعد بأن يشفع فينا "بأنات"

لا ينطق بها.

لن أتمكن من تقليص وتلخيص حياتي مع الله إلى صيغة محدودة لنفس السبب إذ أنني لا أستطيع أن أختصر زواجي إلى صيغة محدودة أيضاً. إنها علاقة حية ومتنامية مع كائن آخر حي وحر، يختلف عني كثيراً ومع ذلك فبيننا صفات مشتركة كثيرة. فليست هناك علاقة أقوى من الزواج. أحياناً يُغريني تفكيري في الرغبة في زواج "تقليدي قديم"، والذي فيه يعرف كل طرف دوره بوضوح دون الحاجة لمناقشته.

وأحياناً أشتاق إلى تدخل من الخارج يغير بحسم إحدى الصفات التي تجلب الألم لي أنا وزوجتي. وحتى الآن؛ لم يحدث هذا. إننا نستيقظ كل يوم ونواصل رحلتنا التي يزداد أساسها صلابة كل يوم.

> "إن أولئك الذين يقولون أنهم يؤمنون بالله، ومع ذلك لا يحبونه أو يخشونه، هم في الحقيقة لا يؤمنون به بل بأولئك الذين علموهم بأن الله موجود. وأولئك الذين يعتقدون أنهم يؤمنون بالله ولكن ليست لديهم أية عاطفة في القلب، أو معاناة في الذهن، أو عدم تأكد، أو شك، أو عنصر لليأس حتى في مواساتهم، مثل هؤلاء يؤمنون فقط بفكرة الله، وليس بالله نفسه."
>
> **ميجيل دي أناموند**

إنه الحب الذي يصنع الطريق للشريكين "المرئي" و "غير المنظور".



١٥ - العاطفة والبرية

"إن الإله الذي يُشبع جوع الإنسان هو في نفس الوقت، المجهول والغريب، وحضوره غير المنظور هو الذي يسمح للشخص أن يكون ذاته"

جان سولفان

إنني أحاول جاهداً أن أعطي تقريراً أميناً وأن أقول الحق والصدق عن الحياة المسيحية، ولهذا السبب سأهدأ وأتراجع خطوة للوراء عن الصورة الذهنية الكبيرة عن الله الذي يعيش داخلي، وأفكر في صورة ذهنية أخرى.

فكر ملياً في خبرة رجل يحترمه الكثيرون كقائد روحي:

"ماذا عن حياة الصلاة الخاصة بي؟ هل أحب أن أُصلي؟ هل أرغب في أن أصلي؟ هل أقضي وقتاً في الصلاة؟ فالإجابة على كل من الأسئلة الثلاث، بعد عمر يناهز الثالثة والستين، منها ثلاثون سنة قضيتها في الخدمة، أشعر أن صلاتي ميتة كالصخرة... لقد إنبهرت كثيراً

للصلاة، وقرأت عنها، وكتبت عنها، وقمت بزيارة الأديرة وأماكن الصلاة، كما قمت بإرشاد الكثيرين في رحلتهم الروحية. والآن كان يجب أن أكون ممتلئاً بالنار الروحية، وأستغرق في روح الصلاة. كثيرون من الناس يعتبرونني كذلك، ويتحدثون إليّ كما لو أن الصلاة هي موهبتي، ورغبتي العميقة.

ولكنني في الحقيقة لا أشعر بشيء عندما أصلي. لا توجد لديّ مشاعر دافئة، أو إحساسات جسدية أو رؤى هنية. لم تلمس واحدة من حواسي الخمس، ولا أشعر برائحة خاصة، أو أصوات ومناظر أو حركات خاصة. في حين أنه وخلال مدة طويلة عمل الروح القدس بكل وضوح من خلال جسدي، ولكنني الآن لا أشعر بشيء. وكنت أحيا متوقعاً أن صلاتي ستصبح أمراً سهلاً كلما كبرت في السن، واقتربت من الموت. ولكن العكس هو الذي يحدث لي. وكلمات مثل الظلام والجفاف هي أفضل كلمات توصف بها صلواتي اليوم.

هل ظلام وجفاف صلاتي علامة لغياب الله، أم أنها علامة لحضور عميق ومتسع لا أستطيع إدراكه. وهل موت صلاتي هو نهاية علاقتي مع الله، أم أنه بداية لعلاقة جديدة أكبر من كلمات مثل العواطف والأحاسيس الجسدية؟"

لقد كتب "هنري نووين" هذه الكلمات في السنة الأخيرة من حياته. وبسبب وفاته الفجائية، ليس لدينا إجابة على سؤاله الأخير، والذي عندما أستحضر معلوماتي عنه يبدو أنه سؤال خاطيء. ولأنني أعرف "نووين" ولديّ فكرة عن كم الوقت والطاقة التي كرسها للصلاة- أكثر من أي شخص آخر أعرفه- فلا يمكنني أن أتغافل عن هذه الفقرة كخطأ مؤقت وقع فيه. إذ أنها تصف بصراحة الحقيقة لإختباره الروحي. وأشك في إنتشار وشعبية كتابات هذا

الكاهن الكاثوليكي بين البروتستانت الإنجيليين، لأنها تعبر عن ضعف الأمانة. كتب "نووين": "عندما كان الناس يشكرونني لأنني أساعدهم في الإقتراب إلى الله، كنت أشعر أن الله تخلى عني. كما لو أن البيت الذي وجدته أخيراً بلا أرضية".

لربما يكون "نووين" قد تأثر بالمتصوف "توماس كمبس" مؤلف كتاب "الإقتداء بالمسيح" الذي كان يرثي فيه لحاله قائلاً: "أنا، البائس وأفقر الرجال، كيف يمكنني أن آتي بك إلى منزلي، أنا الذي لا أعرف كيف أقضي نصف ساعة في خشوع؟".

وربما يكون قد تأثر أيضاً بإستنتاجات "توماس جرين" وهو متخصص في الصلاة والمدير الروحي للمعهد اللاهوتي بفيلادلفيا. يقول "جرين": إن الجفاف هو النتيجة الطبيعية لحياة الصلاة. وبعد أن أجرى مقابلة للحب الإنساني رسم جرين ثلاثة مراحل لحياة الصلاة الصحيحة. ففي فترة المغازلة والتودد، نتعرف على الله، وفي فترة شهر العسل ننتقل من المعرفة إلى الحب، وعلى مدى السنين ننتقل من الحب إلى الحب الحقيقي. وفي إستطاعة أي متزوج أن يخبرك بأن المرحلة الأخيرة في الحب الناضج تتضمن مللا أكثر من الرومانسية، ونفس الشيء ينطبق على العلاقة مع الله. لهذا ففترة الجفاف في الصلاة قد تعني النمو، وليس الفشل. هكذا يقول "جرين".

ولأن نشأتي بين تقاليد إنجيلية متفائلة ومبتهجة، ففي البداية وجدت أن هذه الأفكار بمثابة نوع من الهرطقة. وتخيلت أن الجفاف والظُلمة قد تُحزن، بشكل أساسي الكاثوليك. ولأن الرهبان والراهبات يصلون طوال اليوم فلا عجب إذا أصابهم الملل. ومع ذلك فقد إكتشفت نموذجاً مشابهاً في الكتاب المقدس نفسه وخاصة في العهد القديم. فالكثير من المزامير تذكر أوقات الجفاف والظلمة مرات عديدة، وقد اقتبس يسوع البعض منها الذي يعبر عن الحزن والكآبة. وقد يصف بولس وبعض الذين دونوا الرسائل في العهد الجديد، الحياة المسيحية بكلمات مضيئة، ولكن عند القراءة لما بين

السطور تجعلك تدرك أن قلة من القراء يختبرون النصرة التي يحضونهم عليها.

صرحت قديسة كاثوليكية آخرى تُدعى "تيريزا قلب يسوع" أن "الصلاة ترفعنا من العجز وعدم الكفاءة وإلا فلا حاجة لها". وإنني أرى الأن أن حاجتنا، وشعورنا بعدم الكمال يقودنا إلى الله. والنعمة هي هبة نتلقاها بأيادٍ مفتوحة، والفشل هو الذي يجعلنا نفتح أيدينا.

عندما نتلقى نعمة الله وتبدأ الحياة الروحية فإن التوتر يزداد أيضاً. والقديس الكامل لا يختبر التوتر ولا الخاطيء تؤرقه الجريمة. والبقية الباقية تعيش في مكان بين الطرفين، وهذا ما يُعقّد الحياة ولا ييسرها.

كتب القديس "جيروم": لا أحد أكثر سعادة من المؤمن، لأن له وعد ملكوت السموات: لا أحد أكثر تعباً منه، فكل يوم يجتاز مخاطر الحياة. ولا أحد أقوى منه، لأنه ينتصر على الشيطان: ولا أحد أضعف منه لأنه يُهزم من الجسد... والطريق التي يسلكها منزلقة، ومجد النجاح أقل من عار الفشل".

عندما سُئل "مودي" ما إذا كان مملوءاً من الروح القدس قال: "نعم؛ ولكن أحياناً ما يحدث تسرب أو إرتشاح".

ما هو الأمر إذا؛ أإمتلاء أم جفاف، نور أم ظلمة، أإنتصار أم فشل؟ إذا كنت مضطراً للإجابة فسأقول: " الإثنان معاً". إرسم خطة لفترة دراسية تضمن حياة صلاة ناجحة، وحضوراً ظاهراً لله، وإنتصاراً دائماً على التجربة، فمع ذلك فسوف يكون هناك إحتمال للفشل، أو جوانب للضعف. وكذلك العلاقة مع إله غير منظور فهي تشتمل دائماً على الشك، والتقلب، أو التغيير.

أفضل أن أتفادى السؤال، لأنني أعتقد أنه سؤال خطأ. فعندما أتذكر أبطال الإيمان أجد أن جميعهم مشتركين في أمر واحد:

ليس إنتصاراً، أو نجاحاً، بل عاطفة ومشاعر. كما أن التأكيد على الأسلوب الروحي قد يقودنا بعيداً عن العلاقة العاطفية التي يقدرها الله فوق كل شيء. وما هو أكثر من نظام عقائدي، أو إختبار روحي عميق، فإن الكتاب المقدس يؤكد على علاقة مع شخص، والعلاقات الشخصية لا يمكن أن تثبت على حال واحد.

إنني أمتدح الخدام البسطاء الذين أستمع إليهم في الراديو، والتلفزيون، وأندهش لجاذبيتهم، وخاصة بين الفقراء. ربما يحبونهم لأنهم يقدمون لهم إلهاً يمكن لأي شخص أن يعرفه ويحبه. فقد قال الرب يسوع: إننا يجب أن نقبل وندخل ملكوت السموات كأطفال. فالأطفال لا يفهمون معنى العلاقة أو الشركة، بل بكل بساطة يعيشونها.

كتب اللاهوتي "جورجن مولتمان": "كنت معتاداً على التفكير بأن الله الذي يشتعل غضباً وغيرة روحية، وحباً، يحمل قلب طفل، وفي غاية الإنسانية. بينما كان إله الفلاسفة المجرد والبعيد عن كل الصور الإنسانية، كان أقرب للحقيقة بالنسبة لي. ولكن كلما تعمّق إختباري أكتشف كيف أن هذا التجريد قد دمّرَ حياتي، وكلما إزداد فهمي لمشاعر وعواطف الله في العهد القديم، أدرك مقدار الألم الذي مزّق قلب هذا الإله".

كان رجال الله المحبوبون يستجيبون لإنفعال وعاطفة. فنجد أن موسى قد تجادل مع الله بقوة، حتى أنه مرات عديدة حاول إقناعه بتغيير رأيه. وصارع يعقوب مع الله طوال الليل، واستخدم حيلة بشرية لينال بركة من الله. وإندفع أيوب بشدة في غضب ساخر ضد الله. وكسّرَ داود خمسة وصايا من الوصايا العشر، ورغم ذلك فهم لم يتركوا الله كما أن الله لم يتركهم. إن الله يستطيع أن يُعالج الغضب والملامة، بل وحتى العصيان المقصود. ولكنّ شيئاً واحداً هو الذي يقطع العلاقة وهو : اللامبالاة. ونجد تعبيراً يحمل هذا المعنى في سفر إرميا حيث يقول الله لإرميا "لقد أعطوني القفا لا الوجه"، وذلك عندما أراد أن يدين شعب إسرائيل.

هناك منظمة تُدعى "مدمني الخمر من الأطفال البالغين" تعمل على مساعدة الأسر التي ابتليت بالخمور، وتعلم الأولاد السكيرين ثلاثة أمور لتساعدهم على التغلب على المُسكّرات: لاتتحدث، لا تثق، لا تشعر. وفيما بعد، عندما يكبر هؤلاء الأولاد، وجدوا أنهم لا يستطيعون الحفاظ على العلاقة الوثيقة، فقد كان عليهم أن يرفضوا نموذج اللامبالاة. أخبرني المؤمنون الذين يعملون في حقل المشورة أن المؤمنين المجروحين قد يتواصلوا مع الله بنفس هذا الأسلوب. فقد كانت ردود أفعالهم ضد التربية المتشددة في الصغر، أو شعورهم بتخلي الله عنهم، إنهم أخمدوا العاطفة في داخلهم، وعادوا إلى الإيمان الشكلي والرسمي، وليس الإيمان الشخصي الإختباري.

وعلى النقيض من ذلك، فالعلاقة الصحيحة تحتفظ بالعاطفة والحب، والمشاعر في الحزن والألم، سواء كان في الإنتصار أو الفشل، فالغياب كالحضور يثير المشاعر. فعندما يترك الجندي منزله ملبياً نداء الوطن والواجب، أو عندما يتخرج الشاب من المدرسة الثانوية ليلتحق بالكلية، فالعاطفة لا تخبو، بل ربما تقوى وتزداد.

لقد تعلمت من أبطال الإيمان في الكتاب المقدس هذا الدرس الهام عن العلاقة مع الله غير المنظور: مهما تفعل، لا تتجاهل الله. إدع الله إلى كل جانب في حياتك. وبالنسبة لبعض المؤمنين كانت أزمة أيوب مع الله تمثل خطراً عظيماً بالنسبة لهم. فكيف يتمسكون بالإيمان بإله لا يُظهر إهتماماً بهم، بل وقد يكون كارهاً لهم؟ وآخرون، وأحسب نفسي واحداً منهم، يواجهون غضباً خبيثاً ماكراً. وربما عندما تتراكم المشاكل- كمبيوتر متعطل، فواتير يجب أن تُدفع، رحلة يجب أن نقوم بها، زواج صديق، مشاغل الحياة اليومية- كل هذه تُبعد الله تدريجياً عن مركز حياتي. وفي بعض الأيام أقابل الناس، آكل، أعمل، أتخذ قرارات، أفعل كل هذا دون التفكير في الرب. ونسيان الله هذا هو أكثر خطورة مما أختبره أيوب، لأن أيوب لم يتوقف تفكيره في الرب.

حضرت دراسة للكتاب المقدس، قال فيها أحد الأصدقاء ملاحظة عن حياة الملك داود: " إذا أثبت شاول أن "الطاعة أفضل من الذبيحة"، فإن داود أثبت أن العلاقة أفضل من الطاعة". ومع أن البعض قد يعترض على هذه الكلمات، فإن قصة داود توضح أن العلاقة مع الله بإمكانها أن تتغلب على أسوأ أعمال العصيان. إنني أواصل الإشارة لقصة الملك داود الذي يعني إسمه "المحبوب".

ولكن هناك سؤال لا يمكن تجنبه في حياة داود: كيف يمكن لشخص مثل داود، وهو من إرتكب الزنى، والقتل، يقول عنه الله: "وجدت قلب داود عبدي بحسب قلبي". لدينا الكثير الذي يمكننا أن نستفيده من الإجابة على هذا السؤال، لأن الصفحات المخصصة لداود تُعطي أفضل معالجة لأي شخصية في الكتاب المقدس، بمن فيهم الرب يسوع. لقد شعرت أن لدى هذا الرجل الشهير الكثير لكي نتعلمه.

عند مراجعتي لقصة داود بحثاً عن سره الروحي، ظهر أمامي مشهدان. الأول يقدم إجابة على السؤال الأول. ففي أحد أعماله الرسمية كملك، أرسل داود في إحضار تابوت العهد ليضعه في أورشليم كرمز لحضور الله في العاصمة الجديدة التي كان يبنيها. وعندما وصل التابوت برفقة فرقة المغنيين النحاسية وجماهير الشعب، فقد داود سيطرته على نفسه تماماً. وهو مغمور بالفرح سار بالعربة ذات العجلات في الشوارع- كما لو كان رياضيا أوليمبياً وقد حصل على ميدالية ذهبية. لقد كان منظر داود وهو يمارس هذه الحركات البهلوانية، مرتدياً ثيابه المقدسة، بمثابة الفضيحة في نظر زوجته، وقال لها: "إنني سأفعل أكثر من هذا. إنني أحتفل بقدوم التابوت أمام الرب". ولم يحفل داود بسمعته الملكية مطلقاً، طالما أن الله بإمكانه أن يشعر بفرحته وإنتصاره.

إن داود المفعم بالحب قد شعر بحب غامر نحو الله أكثر من أي

شيء آخر في العالم، وفي أثناء حُكمه تغلغلت تلك الرسالة إلى كل الأمة. كتب عن ذلك "فردريك بوتشنر":

> "لقد أخطأ داود مثل باقي البشر، بل ربما أكثر، فقد كان أنانيا، ومخادعاً، وشهوانياً، غير أن جوهر رقصه أمام تابوت الرب فقط، يمكنك أن ترى فيه لماذا أحب شعب إسرائيل داود أكثر من أي شخص آخر. حتى أنه عندما دخل يسوع الناصري راكباً على جحش ابن أتان إلى أورشليم، بعد ألف سنة، رحبوا به مصفقين له كإبن داود".

أما المشهد الثاني؛ فيأتي بعد ذلك بعدة سنوات، حيث داود في قمة قوته، وأكثر من أي شيء آخر يوضح عظمة هذا الملك. لقد إرتكب داود جريمة يرتكبها معظم الناس في كل العالم منذ القدم: رجل يرى إمرأة، ويُعاشرها، فتحمل منه، وليس هناك أمر غريب في ذلك. وبدلاً من كلمة "ملك" في هذه القصة ضع كلمة سياسي، أو ممثل، أو مليونير، أو حتى مُبشّر. وضع بدلاً من كلمة بثشبع ضع كلمة ملكة جميلة، عندئذ فقط بإمكانك أن تقرأ نفس القصة في فضيحة حديثة على صفحات إحدى الجرائد. ما هو الجديد في هذا الأمر؟

إن حادثة بثشبع تكشف جانباً مكيافيلياً لداود. فعندما فشلت خطته للتغطية على حادثة الزنا، لجأ إلى خطة جهنمية، تتضمن قتل الزوج في المعركة. قضية كلاسيكية قديمة "جريمة تقود لأخرى"، داود القائد الروحي لأمة كسر الوصية السادسة والسابعة والتاسعة والعاشرة في تتابع سريع. وعندما إنتقلت بثشبع لتعيش معه في القصر وتزوجها، بدا له وكأن الأمر كله قد نُسي، ولم ينطق أحد بكلمة إحتجاج، فيما عدا ناثان النبي.

أحب كثيراً المشهد المذكور في (٢ صموئيل ١٢) لأنه يوضح بقوة هذه القصة. يبدأ ناثان النبي بقصة الطمع الشديد- الرجل الغني الذي يمتلك الكثير من الغنم والبقر، وسرق النعجة الوحيدة للرجل

الفقير- وبعد سرد القصة، عرّضَ ناثان حياته للخطر عند توجيهه الإتهام المباشر للملك: "أنت هو الرجل". وما حدث بعد ذلك يُظهر عظمة داود الحقيقية. فقد كان بإمكان داود أن يقتل ناثان أو أن يلقيه خارج القصر، وكان بإمكانه أن ينكر كل شيء... فهل كان لدى ناثان أية أدلة على ذلك؟ وهل كان خدام داود سيشهدون ضده؟

إن أي شخص معاصر لفضيحة ووترجيت، أو مونيكا جيت، كان سيشعر بما كان يمكن أن يفعله الملك داود. لقد كذب الرئيس الجمهوري "ريتشارد نيكسون" محاولاً تغطية جرائمة بالرشوة، غير أن شريط تسجيل، وليس الإعتراف، هو ما أسقطه. والرئيس الديمقراطي "بيل كلينتون" تطلّع إلى الكاميرا بكبرياء، وخدع الأمة كلها، غير أن فستاناً ملوثاً أدانه، وليس الإعتراف، هو الذي أدى إلى إدانته. لقد اعترف نيكسون قائلاً: "إن هذه الأخطاء قد حدثت"، كما صرح كلينتون بكل ما ارتكبه، وأذيع على العالم أجمع.

إن التناقض في كلمات داود الأولى ليست أعظم من هذا: "أخطأت إلى الرب". لم يتبادر إلى ذهن داود الناس الذين أخطأ في حقهم، أوريا أو زوجته بثشبع، لكنه قال: قد أخطأت إلى الرب. وكما رقص أمام الرب عندما أحضر التابوت، هكذا أخطأ أمام الرب عند إرتكابه للخطية.

إن مزمور ٥١ هو بمثابة أعظم نتيجة مؤثرة للخطية الفظيعة التي إرتكبها. فإعتراف ملك بخطأ أخلاقي أمام النبي في جلسة خاصة شيء مختلف تماماً عن كتابة تقرير مفصّل بهذا الإعتراف (مزمور ٥١) لكي يتغنى به المؤمنون حول العالم. ويجسد هذا المزمور الطبيعة الحقيقية للخطية التي تكسر علاقتنا بالله. يصرخ داود في هذا المزمور: "إليك وحدك أخطأت..." لقد رأى أن الله يريد "الروح المنسحق، والقلب المنكسر" وتلك صفات إتصف بها داود.

عندما نظر بنو إسرائيل إلى ملكهم العظيم تذكروا تكريسه للرب أكثر من إنجازاته العظيمة. إن داود المللك- الزاني، والمحب للإنتقام- يقول عنه الله: "إن قلب داود حسب قلبي". لقد أحب الله

من كل قلبه، هل يمكننا أن نقول أكثر من هذا؟

سر داود؟ في هذين المشهدين: أحدهما مُبهج للغاية، والآخر مُدمر للناموس، ابحث عن إجابة. فسواء كان في السير بعربة خلف تابوت الرب، أو إضطجاعه على الأرض مدة ستة أيام في ندم وأسف عميق على ما فعل، فإن غريزته القوية تدفعه لأن يربط حياته بالله. فلا يهم أي شيء آخر. يتضح من كل ما دوّنه في المزامير أن حياته كانت مُشبّعة بالرب: "يا إلهي أنت إليك أبكر. عطشت إليك نفسي، يشتاق إليك جسدي في أرض ناشفة ويابسة بلا ماء، لأن حبك أطيب من الحياة، شفتاي تسبحانك" هكذا كتب هذه الكلمات عندما كان في صحراء قاحلة.

بكل وضوح وجلاء وصل كل هذا الحب، وكل هذه العلاقة مع الله. فبعد عدة سنوات عندما كاد جيش الأشوريين أن يستولى على أورشليم، أجرى الرب معجزة وأنقذهم. وقال لليهود إن حبه لهم لن ينتهي..." من أجل داود عبدي سأقطع معكم عهداً".

بينما أعيد التفكير في إفتراضاتي عن العلاقة مع الله، فإنني أرى الآن أنها ضُللت و شُوهت. فقد ورثت في طفولتي صورة عن الله كمدرس قاسٍ وصارم يوزع الدرجات على الطلبة. وكأي شخص آخر لي نفس الهدف: أن أحصل على الدرجة النهائية، وأن أرضى المدرس. لكن إذا تسببت في أي مشكلة فسوف يرسلني المدرس لآخر الفصل للوقوف في ركن الغرفة، أو ربما يرسلني إلى غرفة فارغة في آخر الردهة كعقاب.

كل شيء تقريباً في هذا التشبيه الجزي، تعلمته، يناقض تعاليم الكتاب المقدس، ويشوه هذه العلاقة. ففي المقام الأول، يتوقف رضى الله ليس على "سلوكي الطيب" بل على نعمة الله. ليس بإمكاني أن أحصل على درجات مرتفعة لكي أصل إلى المستوى الكامل للمدرس، وحمداً لله، فأنا لست مضطراً لذلك.

بالإضافة إلى ذلك؛ فإن علاقتي مع الله، سواء كانت في إرتفاع أو هبوط، لا تتوقف على سلوكي. فالله لن يرسلني إلى الغرفة الفارغة إذا عصيته، بل على العكس من ذلك تماماً: فالأوقات التي أشعر فيها بأنني قد إبتعدت عن الله قد تُشعرني باليأس الذي قد يُتيح لي فرصة جديدة لتدخل نعمة الله. فعندما إختبأ إيليا في مغارة هرباً من وجه الرب سمع الصوت الخفيض الهاديء الذي جلب له الهدوء، وليس التوبيخ. وحاول يونان الهروب من الله ولكنه فشل، وعندما أنكر بطرس المسيح إسترده يسوع بكل محبة.

أحاول أن أعبر لله عن فهمي كيفية عمل العلاقة الإنسانية مشتملة على الإفتراض بأن الخيانة تُدمر هذه العلاقة بطريقة دائمة. ومع ذلك؛ فإن الله لا يتوقف عن العطاء بسبب هذه الخيانة، ربما لأنه قد إعتاد عليها منا. قال الرب يسوع لبطرس: "على هذه الصخرة أبني كنيستي"، وكما قال لوثر: إننا دائماً، وفي نفس الوقت، الخطاة والأبرار التائبون. فتعبيرات الحب الضعيفة والمتعثرة التي نقدمها قد لا تصل إلى ما يرغبه الله منا، ولكنه مثل أي أب فهو يقبل ما يقدمه له أولاده.

قمت بزيارة صديقين يعملان في الخدمة داخل المدينة، وسألت كل منهما نفس السؤال: "يخبرنا الناس بالكنيسة بأننا عندما نخطيء أو "نرتد" فنحن بذلك نقطع علاقتنا مع الله. وأنتم تعملون مع أناس يعيشون مع الفشل كل يوم، فهل وجدتم أن الإرتداد يبعدهم عن الله أكثر أم يدفعهم نحوه أكثر.

أجابني "بد Bud" الذي يعمل بين المدمنين بإجابة سريعة: "إنه يدفعهم نحو الله، وبإمكاني أن أخبرك بقصص كثيرة عن مدمنين إستسلموا لإدمانهم وهم يعلمون أنهم يرتكبون أخطاءاً فادحةً ضد أنفسهم، وضد عائلاتهم. وعند ملاحظتي لهم، فهمت مدى قوة الخطية في هذا العالم، إنهم يريدون مقاومة الخطية، ولكنهم لا يستطيعون ذلك. وبالرغم من كل ذلك، فإن لحظات الضعف هذه هي نفسها التي يُحتمل أن يرجعوا فيها للرب صارخين إليه من

عمق يأسهم، ولكنهم فشلوا. والآن لماذا؟ هل بإمكانهم أن يقفوا مرة أخرى ويسيروا أم سيبقون مشلولي الحركة؟. بمعونة الله يتمكن البعض منهم من الوقوف ثانية. وفي الحقيقة، لقد تأكدت من وجود عامل قوي واحد لمعرفة ما إذا كان المدمن يمكن شفاؤه: إذا كان لديه الإيمانِ العميق بأن الله سوف يغفر له ويصبح إبناً لله، فسوف يُشفى تماماً.

كما يقول "ديفيد" الذي يدير بيتاً لمرضى الإيدز: "لم ألتق بأناس أكثر روحانية من أولئك الموجودين في هذا البيت، الذين يواجهون الموت ويعلمون أنهم هم الذين جلبوا هذا المرض على أنفسهم. معظمهم أصيب بهذا الفيروس من خلال إستخدامه للمخدرات أو الإتصال الجنسي غير الشرعي. ويمكن وصف حياتهم بأنها نوع من الفشل، ولا يمكنني شرح ذلك. فهؤلاء الرجال لديهم نوع من الروحانية والعلاقة مع الله لم أر لها مثيلاً في أي مكان آخر".

كما كتب "فرنسيس دي سال": "كلما إزدادت معرفتنا بمدى بؤسنا، كلما إزداد عمق ثقتنا في صلاح ورحمة الله، لأن الرحمة والبؤس مرتبطين إرتباطاً قوياً حتى أنه لا يمكن ممارسة أي منهما دون الآخر".

لقد إنتقد "فرنسيس دي سال" بقسوة أولئك الذين يتعثرون ثم ينغمسون في ملذاتهم الخسيسة قائلين: "كم أنا إنسان بائس! إنني لا أصلح لشيء!" ولكن الذين يتبعون الله بالحق يتواضعون ويقفون ثانية بكل شجاعة.

ذات مرة استمعت إلى خدمة عن حنانيا وسفيرة، تلك القصة المخيفة التي ترد في الإصحاح الخامس من سفر أعمال الرسل، والتي يحاول بعض الخدام تفاديها. وهي عن زوجين، سقطا ميتين بعد أن كذبا في ذكر مقدار المال الحقيقي الذي تبرعا به للكنيسة. يقول "جون كلايبول" إنهما إرتكبا خطأ واحداً، وهو الذي تسبب في موتهما. إن إحتفاظهما ببعض المال من ثمن الحقل لم يكن المشكلة- لقد قال بطرس أن ذلك كان من حقهما- ولكنهما قدما مثلاً

روحياً سيئاً عن نفسيهما. يستطيع الله أن يغفر أية خطية، ويتعامل مع أية حالة روحية. فنحن نسقط ونقوم، ويعطينا الكتاب المقدس أمثلة لهذا مثل: داود، وبطرس، غير أن الله يطلب الأمانة. ونحن لا نجرؤ على إنكار ما نفعله أمام الله، لأننا إن فعلنا ذلك، فنحن نغلق أيدينا عن تلقي نعمة الله.

في طفولتي كنت أشير إلى الكارزين المتنقلين والخدام الذين يقودون المؤتمرات والمؤلفين المكرسين للرب كأناس قريبين من الله. وتعرفت على البعض منهم. ولكنني الأن أشير إلى بعض أصدقائي الذين يقاومون ضد خطايا جنسية وضد الخمور. وفي هذا العالم، فإن الشخص الذي قادني إلى مستويات جديدة مع الله، هو قسيس جُرد من خدمته ويعاني من إدمان الكحول والسجائر. وفي صراعه هذا يأتي إلى الله يومياً لأنه لا يستطيع أن يتنبه و يستيقظ ويدرك أنه بار. وعندما يقابلني يقول: "أنا خاطيء و أتحدث إلى خاطيء آخر". وقد تخلى عن أي شعور زائف بالكمال قد يبعده عن نعمة الله.

في وقت الحاجة لا يلجأ كل إنسان إلى الله. ومع ذلك؛ فعندما أشعر بالعطش والتعب، يتولد داخلي أمل لحياة جديدة، إنها خصوصية الخالق. وطالما لا نتعود على الألم من حولنا أو الذي بداخنا، ونكون محايدين تجاه سقطات العالم، ولا نشعر بإشتياق لبقائنا في العالم، فسوف نعطي مكاناً لنعمة الله لأن تدخل حياتنا.

كتب "هنري نووين" عن صراعه المستمر للتمييز بين الصوت الصادر من نفسه المجروحة، والتي تبتعد بعيداً، وبين صوت الله. وإستمر الناس يقرأون له ويستمعون إليه في إنتظار ما سيقوله عن سلطان صوت الله، وفي أثناء ذلك تأمل داخله فلم يجد سوى النفس المجروحة. وتدريجياً تعلم أن صوت الله يتحدث فقط من خلال النفوس المجروحة. وإستمر في إنتظاره أمام الله بالرغم من النتائج الظاهرة:

"لم يكن وقتاً اختبر فيه إقتراباً خاصاً من الله، ولا

فترة من الإهتمام الجاد بالأسرار السماوية. وكم كنت أود أن يكون كذلك، بل على العكس، كانت فترة مملوءة بالتشتت، والقلق الداخلي، والشعور بالنوم، والإرتباك، والزهق. ولم أتمتع فيها بأي سرور. ولكن مجرد شعوري بأنني متواجد في حضوره في حضرة الرب لمدة ساعة وأظهرت له فيها ما أشعر به وأفكر فيه وأختبره بدون أن أحاول تخبئة أي شيء عنه، فلابد أن هذا الأمر قد سرّ قلب الله. أنا أعلم أنه يحبني حتى وإن لم أكن أشعر بهذا الحب مثلما أشعر بإحتضان البشر لي، أو لم أشعر بوقت مثلما أشعر بكلمات بشرية للتعزية، حتى وإن لم أر إبتسامة مثلما أراها على وجه إنسان. فسيظل الله يتحدث إليّ، وينظر إليّ، ويحتضنني بينما أنا ما زلت غير قادر على ملاحظة ذلك".

إن الله يختار آنية خزفية ليسكن فيها. وفي هذا الكتاب قد تسمع لصوت الله، وهذه هي رغبتي العميقة التي أبحث عنها طوال حياتي. ومثلما قال "نووين": فبالرغم من أنني أستمع إلى صوت نفسي المجروحة محاولاً ألا يختلط صوتي بصوت الله، فإنني أعيش في يقظة دائمة، وأعرف أنه من الأسهل أن تحرر كتاباً من أن تحرر نفساً.

> "يا إلهي، لا أعلم إلى أين أنا ذاهب. ولا أرى الطريق أمامي، ولست متأكداً من نهايته. ولا أعرف حقيقة نفسي، وإعتقادي بأنني أتبع إرادتك لا يعني أنني أتبعها فعلا. ولكنني أعتقد أن رغبتي في إرضاءك أمر يسرك."
>
> **توماس مرتون**

١٦ - فقدان الذاكرة الروحي



"إن إحتراق قشة صغيرة قد يُخبيء النجوم، ولكن النجوم ستستمر مضيئة بعد إنقشاع الدخان"

فولتير



في زيارة لحديقة يللوويستون القومية، صُدمت حين رؤيتي لساعة رقمية ضخمة مثبتة بجوار فندق "المخلص القديم Old Faithful" وهي تقوم بالعد التنازلي لتنبيه رواد الفندق إلى ثورة البركان التالية. وكنت أعتقد أن ثورة البركان هي أمر طبيعي لا تحدده دقات الساعة، وبالرغم من ذلك، يمكنني القول بأن دقات الساعة ساعدت على التنبؤ التدريجي والمتصاعد لثورة البركان. وتجمعت حول البركان مجموعات من السواح الألمان واليابانيين الذين ثبتوا كاميراتهم إستعداداً لتصوير ثورة البركان. وبدأ صوت الساعة يُعدّ ١٠، ٩، ٨، ٧، وذكرني هذا بقاعدة الصواريخ في كاب كانفرال التي تتسبب في حدوث حمم من السحب والضوضاء ولكن بطريقة صناعية.

وبعد رؤية ثورة البركان الأولى ونحن نقترب منه، دخلنا الفندق أنا وزوجتي لنرى الثورة الثانية ونحن في صالة الطعام بالفندق. وعندما وصلت دقات الساعة إلى ١، قام كل من بصالة الطعام وإندفعنا نحو الشبابيك لمشاهدة هذا الحدث الكبير.

وفوراً قامت مجموعة من جارسونات الفندق ومساعديهم بتنظيف الأطباق وإعادة ملء أكواب المياه. وعندما بدأت ثورة البركان وصدرت عنا نحن السواح الكثير من الأصوات التي تعبر عن الإعجاب والدهشة، واستخدمنا كاميراتنا لتصوير ما حدث وصفقنا بطريقة تلقائية. ولكن في نظرة سريعة للخلف لم أر جرسوناً واحداً يتطلع من شباك الفندق. فقد أصبح البركان منظراً عادياً بالنسبة لهم، وفقد قوة تأثيره.

يمكن أن يتخذ إيماننا بالله نفس الأسلوب. كان لليهود الموجودين في فرنسا في القرن التاسع عشر قول مأثور لوصف تدهور الحماس الروحي عبر الأجيال: "كان الأجداد يصلون بالعبرية، والآباء يقرأون الصلوات بالفرنسية، أما الأبناء فلا يتعبدون على الإطلاق". قد يحدث نموذج مشابه لهذا في داخل الفرد نفسه. ففي بداية حياته الروحية يشتعل فيه الحماس الروحي، ثم يهدأ ويفتر، وأخيراً قد يتبخر بسبب الإهمال.

إن قصيدة "باسكال" التي كتبها "و. هـ. أودين" تصف الشعلة الروحية العظيمة في ذهن عالم الرياضيات، يقول فيها: في البحث الروحي القوي يبدأ الشك/ ثم يسترد قلعة الإيمان التي كادت أن تتحطم وفي الخريف كل شيء معد/ وفي الليل يأتي ما هو متوقع. وهنا يشير أودين إلى الرؤية الغامضة لباسكال التي لم يستطع أن يعبر عنها بالكلمات، مواجهة ظهرت في الضوء بعد موته عندما وجدت أسرته كلمة "نار" وبعض الملاحظات السرية مكتوبة على قصاصة من الورق في معطفة. ثم يضيف أودين تلك السطور المثيرة: "ثم ينتهي كل شيء، في الصباح كان بارداً/ واسترد قدراته تماماً على إرتكاب الخطية."

لا تشتمل الحياة المسيحية على فترات من اللقاءات القريبة جداً من الله، ولكن بحسب إختباري فهذه ليست نموذجاً أو قاعدة نستند إليها. فالكارزون- الذين يحملون وعد الأخبار السارة- قد يبالغون أو يتمادون، وربما أكثر من تحذيرات المسيح لتلاميذه أو ما قاله يوحنا في تشخيصه لحالة السبع كنائس في سفر الرؤيا. ونحن نغنى بالترنيمة التي تقول: "ما أطيب ساعة أخلو فيها مع الحبيب"، ونحترم القديسين المتصوفين.

كما يتحدث الكارزون عن القصص الروحية لأسلافنا مثل القس المعمداني تشارلز سبرجن، الذي كان يقول أنه لا تمر عليه ولا ربع ساعة أثناء سيره دون أن يشعر بحضور الله معه. والناشط البريطاني "جورج موللر" كان يضع هدفاً لنفسه كل صباح " لتفرح روحي بالرب". أما زوجة "جوناثان إدواردز" فوقعت في غيبوبة لمدة ١٧ يوما عقب إحدى النهضات الروحية لزوجها، وهي في حضرة الله، لا تعي بما يدرو حولها.

أنا لا أشك في أي واحد من عمالقة الإيمان هؤلاء، ولكنني أقول فقط أن تعليقات مثل تلك التي تفوهوا بها تُظهر لماذا إكتسبوا سمعتهم كعمالقة في الإيمان. وإذا وضعناهم كنموذج وقاعدة للمؤمنين كي يتبعوها، فقد يُسبب لنا نوعاً من اليأس، ولكن ليس مثل الشمس التي تَطفئ اليراعة. قال تشارلز سبرجن بأنه كان يشعر بحضور الله كل ربع ساعة، أما أنا فقد يمر علىّ يوم كامل ولا أفكر في الله.

قارن س. إس. لويس بين إختبارين: السير على الشاطيء، والنظر إلى المحيط بين الحين والآخر، وبين رحلة بحرية عبر المحيط. قال: إن الإختبارات العميقة مع الله هي حقيقية ولكنها قليلة مثل السير على شاطيء. ولكن عبور المحيط الأطلسي يتطلب مهارات معينة ونظاماً معيناً، بل وربما ما أكثر أهمية من ذلك، وهو خريطة مبنية على خبرات بحارة آخرين. لقد شعرت بفترات كاملة من السلام

الكامل والشركة العذبة والسعادة المقدسة. إنه أمر نادر الحدوث ومع ذلك فيمكنني تسجيلها في فقرة واحدة، وبكل تلقائية كما حدث معي. فأتذكر بيتي الصغير الجميل في إنجلترا، وأتذكر الوعد بالأرض الجديدة في أمريكا. ولكنني أصعد كل يوم على ظهر السفينة لكي أواجه الإمتداد الأزرق الجميل للمحيط الأطلنطي.

إن النضوج الروحي ينمو ويتطور مثلما ينمو الجسم. فالطفل يتعلم كيف يحبو، ثم يمشي ثم يجري. ألا يجب أن يتطور سيرنا مع الله بنفس هذا الأسلوب حتى نقوى تدريجياً ونسيطر على تصرفاتنا، ثم ننطلق إلى القداسة. إستمعوا لما يقوله أشعياء النبي:

" وَأَمّا مُنْتَظِرُو الرّبِّ
فَيُجَدِّدُونَ قُوّةً.
يَرْفَعُونَ أَجْنِحَةً كَالنُّسُورِ.
يَرْكُضُونَ وَلاَ يَتْعَبُونَ
يَمْشُونَ وَلاَ يُعْيُونَ. ".

وتأمل ما يقوله "جون كلايبول" على هذه الآية: إن التسلسل فيها مقلوب وغير طبيعي. حيث يبدأ أشعياء بالطيران في الجو ثم ينتهي بالمشي. وكل المؤمنين يجتازون مراحل مختلفة، ففي بعض المرات نحلق في حالة روحية عالية، ومرات أخرى نجري بطاقة كبيرة من الإيمان والنشاط، ومرات ثالثة قد نخطو الخطوة الواحدة بصعوبة، بل وقد يُغمى علينا.

حقيقة لقد كتب "كلايبول" هذه الكلمات عندما كان جالساً بجوار سرير إبنته التي كانت في العاشرة من عمرها. خادم معروف ذو شهرة كبيرة واختبر مشاعر السمو الروحي والتحليق عالياً في الروحيات. ثم أمضى في الجري ثمانية عشر شهرا وهو يواصل الصلاة بكل إجتهاد طالباً الشفاء لإبنته التي كانت تعاني من آلام سرطان الدم. والآن؛ وبعد أن ماتت، لا يستطيع أن يفعل شيئا إلا الجلوس بجوارها ممسكاً بيدها، مبللاً شفتيها بدموعه. لقد إستنفذ

كل ما لديه من طاقة لكي يتماسك حتى لا يُغمى عليه.

"والآن أنا متأكد أنه بالنسبة لأولئك الذين يبحثون عن الإثارة وقد يبدو أن ما قلته لا أهمية له. ومن يريد أن يسير ببطيء أو يحبو أو يخطو بكل ثقل حتى يكاد أن يغمى عليه؟ وقد يبدو أن هذا لا يصلح لكي يكون إختباراً روحياً، ولكن صدقني، ففي الفترة المظلمة التي عشتها كانت فقط صورة الوعد هي التي تناسب الموقف. فحيث لا توجد مناسبة للتحلق عالياً أو أن تجري، بل كل ما تستطيع عمله هو السير خطوة خطوة، لكي تسمع عن "مساعدة أو معونة" تمكنك من "السير دون أن يغمى عليك". فإن هذه أيضاً أخبار طيبة وسارة".

ذكرت أن الحيرة والإرتباك قد تُبعد الله عن مركز حياتنا، أو في الحقيقة قد تبعده عن مجال تفكيرنا تماماً. إنني أعمل بمفردي- كما يجب أن يفعل كل كاتب- ولهذا فأنا لا ألوم الله على نسيانه للناس. وما هو أكثر إحراجاً في التصريح هو أنني أكتب كتبي التي أعيش منها عن الله. وأنا أقرأ كتباً لاهوتية، وأستبعد بعض الموضوعات من القائمة، وأكتب فصلاً أو مقالة وأجمع أية أفكار قد تساعدني في كتاباتي. وأندهش كثيراً عندما أفكر كيف أسير في رحلة هذا النظام اليومي بدون أن أفكر كثيراً في الله، أو أمارس ما أكتبه.

بإمكاني أن أكتب فقرة جميلة عن السلام الداخلي، ولكن إذا حدث خطأ في الكمبيوتر تسبب في إزالة هذه الفقرة، فسوف يختفي هذا السلام الداخلي أسرع من أي أليكترونيات على شاشة الكمبيوتر. في الماضي قال "جون دون": "إنني أنسى الله بسبب ضوضاء تحدثها ذبابة، أو صوت عربة، أو صرير باب".

كيف يحدث هذا؟ كيف يمكن أن تتحول صلاتنا قبل الأكل، التي نعبر فيها عن شكرنا للرب من أجل الطعام، إلى صلاة في

منتهى السرعة ونبدأ الأكل... إن سيارتي لو تعطلت سوف يتركز كل تفكيري في المشكلة مبعداً كل تفكير آخر في الله جانباً. إنني أحاول أن "أخصص" وقتاً لله معظم الأيام، ولكن إذا كان لديّ أمور هامة وضاغطة فلن أتمكن من إيجاد هذا الوقت. وإذا حدث أنني ذهبت في رحلة بعيدا عن نظامي اليومي العادي، فلن أتمكن إلا من صلاة سطحية سرية، ولا أفكر في الله طوال اليوم. إنني أنسى خالق الكون، ومركز حياتي؟ نعم؛ يحدث هذا!

أعترف اللاهوتي الألماني "رومانو جرواديني" قائلاً: "إن الله لا يسيطر على حياتي. فكل شجرة في طريقي يبدو أنها تتمتع بقوة أكثر منه، لأنها تُجبرني على أن أسير من حولها". ويسترسل جروايني في تساؤلاته قائلاً:

> "كيف أن الله الذي يُوجَد في كل هذا الكون، وكل شيء فيه من صنعة يديه، وكل فكر وعاطفة لدينا لها أهميتها عنده، ومع ذلك فلا تتوهج حياتنا وقلوبنا بحضوره. بل إننا نعيش كما لو أنه غير موجود؟ كيف يمكن أن يحدث هذا الخداع الشيطاني؟

إنني أتعجب من إله يضع نفسه تحت رحمتنا، كما لو أنه يسمح لنفسه بأن يخمد ويحزن، أو ربما يُنسى. تقنعني قراءتي للعهد القديم بأن هذا الميل الإنساني يُحزن الله أكثر من أي شيء آخر. وبسبب الشكاكين، والمعاندين، من غير المؤمنين، يغضب الله من أولئك الذين ينسونه ولا يفكرون فيه. ويكون رد فعله مثل المحبوب الذي يُقاوم بازدراء، ولا تُجيب محبوبته على مكالماته التليفونية.

لقد حذّر موسى شعب إسرائيل عندما أراهم تابوت العهد "إِنَّمَا احْتَرِزْ وَاحْفَظْ نَفْسَكَ جِدّاً لِئَلا تَنْسَى الأُمُورَ التِي أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ وَلِئَلا تَزُول مِنْ قَلبِكَ كُل أَيَّامِ حَيَاتِكَ..." ثم حذرهم بأنه سوف "يَرْتَفِعُ قَلبُكَ وَتَنْسَى الرَّبَّ إِلهَكَ الذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ العُبُودِيَّةِ". ونسى الشعب الرب كما تنبأ بذلك موسى، فكان رد فعل الله الحزين:

"هَلْ تَنْسَى عَذْرَاءُ زِينَتَهَا
أَوْ عَرُوسٌ مَنَاطِقَهَا؟
أَمَّا شَعْبِي فَقَدْ نَسِيَنِي أَيَّاماً بِلاَ عَدَدٍ
.... هَلْ يَخْلُو صَخْرُ حَقْلِي مِنْ ثَلْجِ لُبْنَانَ؟
أَوْ هَلْ تَنْشَفُ الْمِيَاهُ الْمُنْفَجِرَةُ الْبَارِدَةُ الْجَارِيَةُ؟
لأَنَّ شَعْبِي قَدْ نَسِيَنِي!

وبأشد الكلمات حزناً وألماً في الكتاب المقدس يقول الله: "فَأَنَا لأَفْرَايِمَ كَالْعُثِّ وَلِبَيْتِ يَهُوذَا كَالسُّوسِ."أتخيل بعض الناس الذين سمعوا هذه الكلمات لأول مرة لابد وأنهم شعوروا بوخز الندم والشعور بالذنب. وإذا كانوا قد تجاوبوا كما أفعل أنا أحياناً فإنهم قد يتجنبوا الله ربما أكثر مما هم فيه بعدم الصلاة والإبتعاد عنه والعودة إلى سلوكهم اليومي العادي كبديل عن العلاقة الحقيقية معه.

أعرف سيدة، كان ولداها مصابين بالصمم، كانت تُغلق عينيها لتقطع أية صلة بينهما وبين الآخرين. وقد أغضب هذا التصرف ولديها اللذين لم يكن لديهما أية وسيلة للتواصل معها غير التراتيم. وعندما كنت أفكر في هذه الفتاة، التي تغلق عينيها بشدة أمام محاولات الولدين المتوترة لفتحهما لكي تراهما، تخيلت كيف أن الله يشعر بالألم الشديد عندما أبتعد عنه.

كيف يمكننا تجنب فقدان الذاكرة الذي كان لدى الإسرائيليين؟. عبر سنوات طويلة حاولت بطرق مختلفة أن "أتذكر" الله. وبالنسبة لي كان الأمر يحتاج إلى تعوّد يومي لإعادة التوجيه والتذكر الواعي.

إن إعادة التوجيه بالنسبة لي تعني بداية اليوم بعلاقة واعية مع الله، حتى ينتقل مركز تفكيري تدريجياً عن ذاتي أنا إلى الله. وتعودت أن أقفز من السرير، حالما أستيقظ. ولكنني الآن أدعو الله وأنا مستلقي في هدوء، لأن يتواجد في يومي ليس كمن يشارك في حياتي، أو

كأي بند في قائمة مشغولياتي، بل كالمحور لكل ما سيحدث في هذا اليوم. إنني أريد من الله أن يكون الحقيقة المركزية، حتى أكون متنبهاً لوجود الله مثلما أعي رغباتي ومشاعري.

كتب س. إس. لويس:

" ما هو مادي وملموس، ولكن في ذات الوقت غير مادي، يمكن أن نبقيه أمام أعيننا، ولكن بمجهود كبير ومؤلم. لهذا فالمشكلة الحقيقية للحياة المسيحية تأتي عندما لا يبحث الناس عنها. يمكننا أن نتمتع بحياة الإيمان منذ اللحظة الأولى التي نستيقظ فيها كل صباح. ففي بداية كل يوم تندفع إليك رغباتك وآمالك كالحيوانات المتوحشة. وأول عمل يجب أن تقوم به هو أن تدفعها جميعا، بكل قوة للخلف، ثم تصغي للصوت الآخر الذي يدعوك للحياة الأقوى والأعظم، والأكثر هدوءاً، وتسمح لكل هذا بأن يملأ كيانك وواصل هذا الشعور طوال اليوم...

بإمكاننا أن نفعل هذا لمدة دقائق في البداية. ولكن من تلك اللحظات سوف تنتشر هذه الحياة الجديدة، من خلال نظامنا اليومي، لأننا الآن سمحنا للروح القدس بأن يعمل في الوقت والجزء الصحيح فينا".

إن الوصية الأولى والعُظمى تطلب منا أن نحب الله، ونحن الذين نتمتع بحبه. يقول: "توماس مرتون": " إن "تذكرنا" لله، الذي نتغنى له بالمزامير، هو ببساطة إعادة إكتشاف بأن الله نفسه يتذكرنا". إننا نتذكر الله عندما نثق أنه يهتم بنا شخصياً، وبلا حدود. ويجب أن أسأل مرة ومرات من أجل الإيمان، لكي أثق بأن الله يُسرّ بي، ويريد أن تكون له علاقة معي. لهذا السبب أنا أدرس الكتاب المقدس، ليس فقط لكي أتعلم اللاهوت، بل لكي تتسرب وتتغلغل في روحي رسالة محبة الله لي وإهتمامه الخاص بي.

يستريح البعض لوضع الركوع في الصلاة، أو لأي وضع آخر. لكنني غالباً ما أحتسي القهوة عندما أبتدأ في الصلاة، لأنني أرى

أنه أمر طبيعي أن أتحدث مع الله، غير المنظور، بنفس الأسلوب الذي أتحدث به مع أصدقائي الذين أراهم. أو بإمكاني أن أتمشى لأن المناطق المجاورة تعطيني أسباباً كثيرة لتقديم الشكر للرب: فالربيع يمنح الحياة للأغصان الميتة، والشتاء يُغطي الطرق الموحلة بالجليد الأبيض. وعندما أمر على منازل جيراني أتذكر إحتياجاتهم المُلحة.

أحتاج خلال اليوم إلى معونة للتذكر الواعي. لقد حاولت أن أضبط ساعتي لكي تدق كل ساعة، وعندئذ أوقف ما أقوم به وأفكر في الساعة التي مضت، وأحاول أن أمارس شعوري بحضور الله في الساعة القادمة. وفيما بعد عثرت على النظام القديم الذي يتبعه رهبان "بنداكتي" في الصلاة، إذ يتوقفون وينادون على ساعة الصلاة عندما تدق الساعة، معتقدين أن الصلاة لله يمكن أن تصبح عادة.

تعطينا "إعترافات أوغسطينوس" نموذجاً رائعاً لكيفية مشاركة وتدخل الله في تفاصيل الحياة. والكتاب غير مسبوق بأي كتاب أدبي آخر، لا في أسلوبه، ولا محتواه. ومن كان يفكر في توجيه سيرته الذاتية لله، وكتابة كتاب طويل في صورة صلاة؟ فهذا ما فعله أوغسطينوس تماماً، إذ أنه ربط معاً إعترافاته بخطاياه، وعبثه بالبدع والهرطقة، وتأملاته الذهنية المفككة. لقد كانت مراجعته المقصودة لتفاصيل حياته، وبحثه عن مصير روحه، بمثابة الأنموذج لكل المؤمنين الذي يطلبون حياة مركزها الله.

تعلمت أيضا عن التذكر الواعي مما كتبه "الأخ لورنس"، وهو طباخ في أحد أديرة القرن الـ١٧، والذي كتب كتاباً تكريسياً يُدعى "ممارسة حضور الله"، وهذه العبارة "ممارسة حضور الله" بالنسبة للأخ لورنس هي مثل ممارسة الطب، أو القانون. وللمبتدئين تُشبه تعلم البيانو: إذا مارست التمرين لفترة كافية فقد أتعلم الموسيقى.

يؤكد الأخ لورنس على حاجتنا لمعونة الله ثم نطلب بلا كلل: "ولكن كيف نطلب منه بدون أن نكون معه؟ وكيف نكون معه بدون

أن نفكر فيه؟ وكيف يمكن أن نفكر فيه بدون أن نكوّنَ عادة مقدسة لفعل ذلك؟" ثم يقترح الأخ لورنس إجابة على تلك الأسئلة:

"إن الله لا يطلب منا الكثير، إن نتذكره بين الحين والآخر، وأن نعبده ولو لفترة قصيرة، ونتوسل لننال نعمته، وفي بعض المرات نعرض له أحزاننا، ومرات أخرى نشكره من أجل عطاياه لنا، فسنجد فيه العزاء. وأنت على المائدة ووسط محادثاتك، إرفع قلبك نحوه. إن أقل قدر من التذكر لله سوف يُسره، وأنت لست بحاجة في مثل هذه الأوقات لأن تصرخ بصوت مرتفع. إنه قريب منك أكثر مما تتصور".

يذكر الأخ لورنس طرقاً عملية "لكي تقدم قلبك من وقت لآخر طوال اليوم". حتى وأنت وسط عملك الروتيني اليومي. لتتذوقه، وتتمتع به، حتى ولو بسرعة، أو خلسة. ويقول الأخ لورنس، إن عمق الروحانية لا يعتمد على تغيير الأمور التي تعملها، بل بالحري أن تعمل من أجل الله ما تقوم به من أجل نفسك بطريقة عادية. إن الأخ لورنس يستبعد التراجع الروحي لأنه يشعر أنه يتعبد لله وهو يؤدي عمله العادي تماماً، كالذي يتعبد لله في الصحراء.

لقد مارس الأخ لورنس ما نادى به. وفي تأبينه كتب عنه الأب الراهب :"وجد الأخ لورنس الله في كل مكان... وجده عندما كان يصلح الأحذية، وعند صلاته مع الآخرين... إنه الله، وليس العمل، وهو الذي كان أمامه. وكان يعلم أنه كلما كان العمل ضد ميوله الطبيعية كلما قدم لله حباً أعظم".

أُثّر التعليق الأخير على حياتي بعمق. وقرأت فتاة هذا الكتاب أثناء عملها مع كبار السن في وسط مدينة شيكاغو، وأحياناً تقوم بأعمال لا يستطيع أداءها أناس طبيعيون، وأثناء تنظيفها لمكان كان فيه شخص عجوز لا يستطيع أن يتحكم في نفسه، كانت تُذكِرَ نفسها بما قاله الأخ لورنس. وبمجهود خاص منها كانت تعتبر أن تنظيف الحمام نوع من الخدمة التي تُقدّم لله.

إن المؤمن الذي يعيش في هذا القرن، يجاهد خلال حياته لكي يعمل بمباديء الأخ لورنس. فكذلك "فرانك لوباتش"، الذي إكتسب شهرة كمؤسس حركة معرفة القراءة والكتابة، وهو الشخص الذي لم يفعل مثله أحد في التاريخ، ليُعلّم الناس القراءة والكتابة. كما أن الصحف التي أصدرها سجلت مجهوداته طوال حياته لكي تترك بصمة من نوع مختلف: أن نعيش في يقظة دائمة بحضور الله.

بدأ "لوباتش" بتركيز تفكيره على الله قبل أن يغادر فراشه، محاولاً التخلص من أية أفكار أخرى قد تشتت تفكيره. ويقول: "إنه عمل تقوم به الإرادة. فأنا أجبر عقلي على أن ينفتح مباشرة على الله... وأركز تفكيري هناك، وأحياناً يتطلب هذا وقتا طويلا في الصباح الباكر حتى يمكنك الوصول إلى هذه الحالة العقلية". لقد إعترف بأنه جاهد في البداية:

> "إنني مثل الرجل الذي يمارس التجديف ضد التيار. فالضغط الذي تمارسه إرادتي يجب أن يكون لطيفاً ولكن مستمراً، أستمع لصوت الله، وأصلي من أجل الآخرين بإستمرار، وأنظر إلى الناس وأتعامل معهم كأرواح لا كملابس أو أجساد، أو عقول. واللحظة التي يتوقف فيها الضغط على القارب فسوف أنحرف وأبتعد عن الطريق..." ولا يناسبني هذا المبدأ. "دع الأمور تسير ودع الله يفعل ما يشاء" ولكنني أوافق على المبدأ القائل "إمسك بزمام الأمور وكن أيضاً متمسكاً بالله". هناك عمل تقوم به الإرادة، وبإمكاني أن أشعر بأن عضلاتي الروحية تنمو وأنا أمارس التجديف!"

بعد مضي عام على ذلك قال: "هذا التدريب البسيط يحتاج فقط إلى ضغط خفيف للإرادة، وهو في متناول أي شخص. ويزداد الأمر سهولة بحكم العادة، ومع ذلك فهو يحول الحياة إلى سماء".

فيما بعد اقترح "لوباتش" تجربة لنفسه: أن يفكر في الله في ذهنه كل بضعة ثوان، حتى يكون واعياً لوجود الله بإستمرار. ولكي يحقق هذا الهدف بدأ يلعب لعبة تنتهي في دقائق، يحاول أن يربط فيها أفعاله بإرادة الله كل ربع أو نصف ساعة... وبدأ بمحاولة أن يعيش كل لحظات إستيقاظه في إصغاء يقظ للصوت الداخلي، ويسأل بدون توقف: "يا أبي ماذا تريد أن تقول لي؟ يا أبي هل تريدني أن أفعل هذا في تلك اللحظة؟".

لقد نجح "لوباتش" في أن يفكر في الله، على الأقل مرة كل دقيقة، وتدريجياً إرتفع هذا المُعدّل. وقدرت بعض صحفه النسبة التي توصّل إليها كل يوم: "متنبهاً لوجود الله بنسبة ٥٠٪، والإرادة رفضت الإستجابة بنسبة قليلة". لقد سجل أيضاً بعض الفشل عندما تسببت الأمور التي شتّت تفكيره في إبعاد الله عنه. ومع ذلك؛ فقد وجد أن التدريب اليومي قد غيّر حياته تدريجياً. وفي كل مرة يقابل فيها شخصاً يصلي في قلبه من أجله. وعندما يرد على التليفون يهمس لنفسه قائلاً: "أحد أبناء الله سوف يتحدث إليّ". وعندما كان يسير في الشارع أو يقف في طابور إنتظار الأتوبيس كان يصلي من أجل الناس الذين من حوله.

أثبت "لوباتش" أنه بإمكان الإنسان أن يربط حياته الحديثة المنشغلة بالعلاقة الروحية مع الله، فنحن لسنا بحاجة أن ننعزل في دير لكي يتحقق ذلك. لقد عمل لوباتش كعميد في إحدى كليات جامعة كبيرة، وأسس معهدا للتعليم وخدم الفقراء، وسافر حول العالم ليساعد في إستخدام أساليبه في القراءة والكتابة.

في صباح اليوم التالي لقراءتي كتاب "لوباتش" كان عليّ أن ألتقي بصديق على مائدة الإفطار، في الساعة السابعة والنصف. وجلست منتظراً حوالي عشرين دقيقة ولكنه لم يأت، فقلت لعله نسي الموعد. وأعرف رد فعلي العادي في مثل هكذا موقف: التوتر، والغضب من نفسي لأنني لم أحضر معي كتاباً لأقرأه لشغل هذا الوقت. وبدلاً من ذلك تذكرت بعض إكتشافات لوباتش، وصليت من

أجل صديقي. فربما يكون قد صادف بعض المتاعب في السيارة، أو حدث طاريء عائلي. وصليت من أجل كل من في المطعم، وطلبت من الله أن يُهدئ روحي ويساعدني لكي أستمتع بساعة من الفراغ في بداية اليوم. وبالرغم من أن صديقي لم يأت، فقد غادرت المطعم في حالة ذهنية أفضل مما كنت عليه عند وصولي إليه، وذلك بفضل جرعة صغيرة مما تعلمته من كتاب لوباتش.

لا يصح أن نقرأ مجرد مقتطفات مما كتبه الأخ لورنس، أو فرانك لوباتش، طوال حياتهم. فإن تدريباتهم الروحية تُظهر مدى العمل الشاق الذي قدموه بشعور من الإلتزام، لذلك يجب أن نقرأ كل ما كتبوه. وبالنسبة لهم كان النظام هو الذي يقود إلى الفرح والسرور. فقد أدركوا ببساطة أن غرابة العلاقة الشخصية بين غير المحدود، وغير المنظور، وبين كائن محدود ومنظور، تحتاج إلى توافق معين.

يقول لوباتش: إن المكافأة تعوض تماماً عن المجهود الذي بُذل "فبعد شهور وسنوات من ممارسة حضور الله، يشعر الإنسان بقرب الله منه، وعندما يساندك ويدفعك للأمام تشعر بقوته، وكذلك عندما يجذبك من الأمام تشعر بمزيد من القوة... إن الله قريب منا للغاية، وهو لا يعيش حولنا فقط، بل يعيش من خلالنا".

والآن اسمع عبارة "ممارسة حضور الله" بطريقة مختلفة. ففي السابق كنت أحاول الحصول على تأكيد عاطفي بأن الله موجود فعلاً، وأحياناً كنت أشعر بهذا، وأحياناً أخرى لا أشعر بذلك. قد غيرت أسلوب التأكيد، ففي اللحظة التي أضع فيها نفسي في حضرة الله أفترض أن الله موجود في المكان كله، على الرغم من عدم شعوري حسياً بذلك. وأحاول جاهداً أن أسلكِ في حياتي اليومية بطريقة تناسب حضور الله. هل بإمكاني أن أشير وأعود إلى الله مهما حدث اليوم، كنوع من الشكر والتقدمة؟

في مؤتمر عن الكرازة برعاية "بيللي جراهام" في مانيلا، أثّرَ رجل من كولومبيا على مستمعيه تأثيراً كبيراً عندما قصّ عليهم

قصة تأملاته اليومية:" قُبض عليه في فترة حكم "بول بوت Pol Pot" ووضع في معسكر للتعذيب، مثله كأولئك الذين رأيناهم في فيلم "الحقول القاتلة". ولأنه إعتقد أن لديه القليل من الوقت ثم يموت، أراد أن يقضي وقتاً كل يوم مع الله، إستعداداً للموت. وقد قال: "لقد حرمنا من الطعام وعذبونا، واحتملنا، ولكنني استأت من عدم السماح لنا بوقت لنلتقي فيه مع الله إذ كان الحراس يصرخون في وجوهنا دائماً لإجبارنا على العمل المتواصل". وأخيراً لاحظ أن الحراس لم يجدوا أحداً لتنظيف البالوعات. فتطوع للقيام بهذا العمل القذر. "لم يقاطعني أحد، وتمكنت من تأدية عملي في مكان منعزل وأرفع عيني فأرى السماء الزرقاء، وشكرت الله لأنني ما زلت حياً ليوم آخر. وصليت إلى الله بدون أي إزعاج، صليت من أجل أصدقائي وأقاربي، وكل من هم حولي. وأصبح هذا بالنسبة لي وقتاً رائعاً للإلتقاء بالرب".

> "يجب على النفس أن تشتاق إلى الله لكي تشتعل بحبه، ولكن إن لم تتمكن النفس من الشعور بهذا الإشتياق بعد فعليها أن تتوق لهذا الإشتياق، لأن مثل هذا الشعور هو من الله."
>
> **ميستر إكهارت**



الجزء الخامس



النمو

مراحل عبر الطريق

١٧ - الطفل



"نحن نفضل أن ننهار على أن نتغير"
و. هـ. أودين



لقد تدربت على معرفة حضور الله وغيابه، المليء وغير المليء (الفراغ)، الشركة الروحية القوية والبعد في الظلام. وفي رحلة حياتي أدهشني تتابع وإختلاف تلك الخطوات التي اتخذتها في حياتي، وبينما كنت أنظر حولي بحثاً عن خريطة الطريق التي قد تساعدني في معرفة ما أتوقعه، فإنه على عكس ذلك تماماً، إذ قد إزداد إرتباكي.

بعض مجموعات من المؤمنين يساوون بين النضوج الروحي والتقشف والزهد: فمن يسير طبقاً للمباديء الصارمة يتمتع بالقرب من الله. وأعلم أن هذا أمر خاطيء وغير صحيح، لأن المسيح نفسه كان يتمتع بحرية نسبية بمقارنته مع يوحنا المعمدان أو الفريسيين.

كما أن بعض المؤمنين الآخرين يقللون من قيمة وقدر البحث والإجتهاد، كي تكون لنا شركة قريبة من الله. ولديّ أصدقاء يعملون

في القضاء ينتقدون النظم الروحية ويعتبرونها نوعاً من "التزمت والتصوف". ومع أنني معجب بإلتزامهم وأوافق على بعض ما يقولونه، فلا يمكنني أن أتجاهل الفقرات الكتابية الكثيرة عن الإتحاد بالله، والحاجة للقداسة. إذاً من هو المؤمن الناضج؟ وكيف يؤثر سلوكي على علاقتي مع الله؟

واضعاً هذه الموضوعات في ذهني، بدأت أقرأ ببطئ العهد الجديد بأكمله، ووضعت علامة صفراء على كل فقرة تشجع المؤمنين لكي ينمو روحياً. وحاولت أن أبحث بعمق في كل الوصايا والأوامر المباشرة: لا يسرق السارق فيما بعد... ساعدوا الفقراء..، لكي أعرف المعاني والدوافع التي وراء هذه الوصايا. ما هو هدف المسيح وبولس والآخرين من أقوالهم؟ وملأت صفحات كثيرة بملاحظاتي التي نقحتها بحثاً عن إتجاهات معينة.

يقدم العهد الجديد الحياة مع الله في صورة رحلة مع أتباع آخرين، موجودين في أماكن مختلفة كثيرة عبر الطريق. ولتسهيل الأمور قررت تقسيم هذا الأمر إلى ثلاث مجموعات: الطفل، البالغ، الوالد. واضعاً بعض العلامات في الهوامش معرفة أي مستوى من النمو سأوجه إليه الكلام. وتلخص هذه الفئات الثلاث بالنسبة لي مراحل النمو في الحياة الروحية. ونظرت أولاً إلى كل الفقرات الموجهة للمؤمنين الذين بدأوا رحلتهم مع الرب، أو ربما تعثروا في مرحلة الطفولة.

يعلم أي شخص قام بتربية طفل أن التطلع إلى المباديء السامية منذ البداية قد لا يُجدي. وأعرف زوجين حاولا منذ البداية أن يدفعا إبنهما لكي يتخذ كل قرار بنفسه، موضحين له نتائج سلوكه، ثم يتركون الولد يتخذ القرار الأخير. ورأيت بنفسي ما حدث، في أحد أيام فصل الشتاء في شيكاغو، وكانت درجة الحرارة تحت الصفر، والأرض مغطاة بالجليد. واعتقد الولد- وكان اسمه "درو"، وعمره ٤ سنوات- أنه سوف يستمتع كثيراً إذا خرج للخارج لكي يلعب مرتدياً الـ تي شيرت، وبنطلوناً قصيراً. وشرح الوالدين للطفل

كيف أن مقاومة الجسم ضعيفة وخاصة في الطقس البارد، وستؤدي للإصابة بالأمراض... ولكن الولد أصرّ على موقفه قائلاً: "أريد الخروج الآن". وتركاه والداه للخروج آملين أنه سيعود بعد قليل بسبب البرودة الشديدة.

وفي الصيف يحدث منظر مختلف تماماً على شاطئ بحيرة ميتشجان. هناك يجلس طفل على مقعد أسمنتي وهو ينظر إلى مياه البحيرة، ويقول: "لا، لا، لا"، مكرراً لنفسه التعليمات التي حاول الوالدين أن يقنعاه بها. قد لا يستطيع الطفل أن يعبّرَ لماذا يريدان منعه من التمتع بالبحيرة، ولكنه يعرف الأوامر. وبلا شك، ربما فكّر الوالدان في اللجوء إلى التهديد بالعقاب.

وعندما رجعت إلى العهد الجديد، وجدت أنني كتبت كلمة طفل على فقرات كثيرة. إن يسوع نفسه لم يتردد بالتهديد بالعقاب الصارم لمن يعصى الوصية، كما وعد بالمكافأة لمن يطيع. هناك بعض السلوكيات ضارة للغاية، لذلك يجب أن نتجنبها. والشخص الذي يعطي المشورة لا يمكن أن ينصح السكير بالتقليل من شرب الخمر، أو أن يشرب في المساء فقط. كما أن القاضي لا يطلب من اللص أن يحاول كبح نفسه، أو يقترح عليه بأن يسرق المنازل أثناء العطلة الأسبوعية فقط بدلاً من كل يوم. إن الرسالة المناسبة في هذا الوضع هي ما قاله بولس: "لاَ يَسْرِقِ السّارِقُ فِي مَا بَعْد...".

إن رسائل بولس الأخلاقية مملوءة بالسخط والغضب: "ألا تعلمون... ألا تدركون...؟"، إنه يتحدث بكل إندهاش وغضب عن أناس مدعوين من الله لكي يكونوا قديسين، ولكن بدلاً من ذلك يتنازعون على قضايا أخرى مثل: أكل اللحم، الختان. إنه يتحدث بكلام نشط وحيوي مثل الأب الذي يشجع إبنه لكي يأكل الخضروات لفائدته الشخصية.

لا يستطيع من دونوا العهد الجديد أن يفهموا لماذا يتراجع بعض المؤمنين إلى مرحلة المراهقة الروحية، في حين كان يجب عليهم أن يسلكوا ككبار. ومع أنهم قد يفضلون مناشدتهم لإتباع الدوافع

السامية، فإن الذين دونوا العهد الجديد يواصلون توضيح النتائج المخيفة التي تنتظر الذي يتصرفون بطريقة خاطئة، لأنهم يعلمون أن الإختيار الحكيم الناجم عن دوافع ناضجة يتغلب على الإختيار الخاطيء. فإذا إمتنع المراهقون عن ممارسة الجنس غير الشرعي، وعن تدخين السجائر، خوفاً من المرض، وليس لأي سبب آخر، فلن تستفيد أرواحهم، ولكن أجسادهم سوف تستفيد، بكل تأكيد.

تجنبت، حتى الآن، الكتابة عن أصعب فترة في حياتي، تلك الفترة التي عانيت فيها من متاعب جسدية صعبة، ولم أتمكن فيها من أن أتحدث أو أمشي. رقدت على سريري طوال اليوم، غير قادر على تحريك ذراعي أو رِجلي. ولم أتمكن من التركيز على شيء بعيني، ولا أستطيع أن أطعم نفسي، أو أن أتحكم في عضلاتي. ولم أتمكن من فهم ما يدور حولي، واستسلمت لما أنا فيه، ولم أتوقع أي تحسن.

والآن؛ بعد أن شفيت تماماً، أنظر إلى تلك الفترة على أنها فترة إنتقالية ضرورية، طفولة إنسانية. فلا يصل أحد لمرحلة الشباب دون المرور بفترة من عدم النضج. وبالمثل؛ لا يظل الإنسان السليم صحيحاً إلى الأبد. لا أعرف شيئاً أكثر حزناً في الحياة من توقف عملية النضوج والنمو: يرقة دودة القز التي لا تتحول إلى فراشة كاملة، فرخ الضفدع الذي لا يتحول إلى ضفدع كامل، طفل معاق ذهنياً يظل في سريره لمدة ٣٠ عام.

إن الطفل، المولود حديثاً، له كل أجزاء الجسم التي يحتاجها، ومع ذلك فيجب أن تنمو هذه الأعضاء لكي تُستخدم في آداء وظائفها. وينطبق نفس المبدأ روحياً على حياة الإيمان. يوبخ بولس الرسول أهل كورنثوس بالقول: "وَأَنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُكَلِّمَكُمْ كَرُوحِيِّينَ بَلْ كَجَسَدِيِّينَ كَأَطْفَالٍ فِي الْمَسِيحِ. سَقَيْتُكُمْ لَبَناً لاَ طَعَاماً لأَنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا بَعْدُ تَسْتَطِيعُونَ بَلِ الآنَ أَيْضاً لاَ تَسْتَطِيعُونَ". ومن

الكثير من صغار المؤمنين عجز أهل كورنثوس عن تخطي مرحلة الطفولة، وعدم النضج إلى مرحلة أكثر نضجاً وتقدماً.

وعلى الجانب الآخر يقول يسوع بكل وضوح: "إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ". يجب علينا أن نتعلم التمييز بين سلوك الطفل الذي يناسبنا، وهو شرط أساسي لدخول ملكوت السموات، وبين السلوك الطفولي الذي لا يناسبنا، وهي علاقة تعوق النمو.

مزمور ١٣١، وهو من أقصر المزامير، يُشير إلى الفرق بين الثقة الطفولية والثقة كالأطفال في الله:

يَا رَبُّ لَمْ يَرْتَفِعْ قَلْبِي
وَلَمْ تَسْتَعْلِ عَيْنَايَ
وَلَمْ أَسْلُكْ فِي الْعَظَائِمِ
وَلاَ فِي عَجَائِبَ فَوْقِي.
بَلْ هَدَّأْتُ وَسَكَّتُّ نَفْسِي
كَفَطِيمٍ نَحْوَ أُمِّهِ.
نَفْسِي نَحْوِي كَفَطِيمٍ.

يعلق "أرتر ويسر قائلاً:

" إن المؤمن ليس طفلاً يصرخ لكي تضمه أمه في حضنها، ولكنه كطفل مفطوم يستريح في هدوء بجانب أمه، وهو يشعر بالسعادة لكونه جالساً بجوار أمه. وكما أن الطفل يتخلص تدريجيا من عادة التفكير في أمه على أنها هي التي تُشبع رغباته، ويتعلم أن يحبها لذاتها، لهذا وبعد معاناة وجهد يصل المؤمن المتعبد إلى حالة ذهنية يطلب فيها الله لذاته، وليس لأنه يلبي رغباته. وبذلك يتحول مركز الجاذبية في حياته".

أحنُ في بعض الأحيان لمرحلة الطفولة ودلالها. عندما يدور العالم من حولي، وعندما تلفت إنتباهي صرخة طفل، وعندما يستجيب من حولي لطلباتي دون مجهود مني. وأحيان أخرى أتذكر الماضي

في مرحلة مبكرة من رحلة حياتي الروحية عندما كنت أشعر بقرب الله مني، وكان الإيمان قوياً، مرحلة لم تحدث فيها أية إختبارات أو خيبة أمل، إنها مرحلة ما قبل الفطام. ثم يحدث أنني في الكنيسة أو في السوبر ماركت أقابل طفلاً بالصدفة المحضة، ضعيفاً ولا يقوى على الحركة ولا الفهم، وأدرك من جديد حكمة الخلق التي تدفعنا نحو النمو الذي يتطلب طعاماً لا لبناً.

بينما أحمل آثار النمو و آلامه، أتعلم كيف أتكيف وأتجنب بعض مطالب الإيمان الطفولي: توقعات غير حقيقية، التقيد بالناموس والإعتماد غير الصحي على الآخرين.

قد أشرت مرات عديدة إلى خطورة التوقعات غير الواقعية. فالطفل يجب، في بعض الأمور، أن يتعلم قبول العالم كما هو وليس كما يريده هو. فالطفل الذي يضرب الأرض بقدميه قائلا: "هذا ليس عدلاً"، عندما يكبر ويكتسب حكمة الكبار يقول: "ليس هناك عدل مطلق في الحياة". ويختلف الناس في الجمال والمستوى الإجتماعي، والمهارات الرياضية، والذكاء، والصحة، والثروة، والشخص الذي يتوقع العدالة الكاملة في هذا العالم سوف يعاني من مرارة اليأس. وبالمثل؛ فالمؤمن الذي يتوقع من الله أن يحل كل مشاكله العائلية، ويشفي كل الأمراض، ويوقف الصلع في رأسه، والتجاعيد في وجهه، وأية آثار أخرى لكبر السن، هو مؤمن واهم ولا يتمتع بالإيمان الناضج.

يقول ج. أ. بيكر:

> "إن الله رقيق للغاية مع المؤمنين الصغار، تماماً مثلما تفعل الأم مع صغارها. غالباً ما تكون بداياتهم في حياة الإيمان مملوءة بالفرح العاطفي والعناية الإلهية الواضحة، وإستجابة الصلوات والثمار السريعة لشهاداتهم الأولى، وهكذا يشجعهم الله ويؤسسهم في الحياة الروحية. ولكن عندما يزداد نموهم وقوتهم يدربهم على ما هو أقوى من ذلك. فيعرضهم لإختبارات من خلال ظروف صعبة على

قدر ما يحتملون، ليس أكثر (١ كو ١٠: ١٣) ولا أقل (أع ١٤: ٢٢). بهذا يبني الله شخصيتنا ويقوي إيماننا، ويُعدّنا لكي نساعد الآخرين.

عند كتابتي لهذا الكتاب، تمنيت مرات عديدة أن أعد بكتابة المزيد من الكتب. وأتمنى أن أشجع المؤمنين، وأزيد من توقعاتهم بأن الله سوف يغير القوانين نيابة عنا ليسهل الحياة. وفي كل مرة تمنيت هذا أواجه تجربة الإيمان الطفولي وهي نفس التجربة التي قاومها المسيح في البرية.

طبقاً لما قاله الرب يسوع وبولس فإن التمسك بالقانون والناموس يمثل عرضاً من أعراض الإيمان الطفولي. وكما وضح بولس الرسول قائلاً: إن صرامة الناموس في العهد القديم لم يُقصد بها تقديم طريق آخر بديل للوصول إلى الله، بل بالحري لكي يثبت أن هذه الصرامة مهما بلغت لا تستطيع أن تحقق قصد الله. فالله يريد الكمال، لهذا نحن بحاجة إلى طريق آخر، وهو طريق النعمة.

كتب داود، في أحد مزاميره: "مع الأمين تكون أميناً، ومع الطاهر تكون طاهراً". وهو بهذا يعبر عن عهد الإيمان المذكور في العهد القديم. وأتساءل: كيف تمكّن داود من كتابة هذا المزمور بعد سقوطه في خطية الزنا مع بثشبع، وقتله لزوجها في الحرب. لقد تعامل الله بالأمانة مع الخائن، وغير الأمين أعدّه للعدالة، وليس للنعمة.

إن التمسك بالناموس والشريعة له مكانه في التقدم الروحي- مثلما يفعل بالتأكيد في نمو الطفل- لكن التمسك الدائم والمستمر بالقانون يعوق النمو: لا تعبر الطريق بمفردك، ابتعد عن الأنهار، لا تلعب بالسكين". استمعت إلى هذه الأوامر وأنا في مرحلة الطفولة، وكنت أطيعها. والآن عندما كبرت فأنا أهرول وسط مرور المدينة، وأبحر في قارب، وأستخدم السكاكين بمهارة. ومع أنني أتذكر الصرامة التي لقيتها في طفولتي فإنها ساعدت في إعدادي للحرية المسئولة في الشباب، فإنني نادراً ما أتطلع للوراء، لأيامي الأولى بنوع من الحنين أو الأسف.

إن الرسول بولس، الذي تربى بحسب التقاليد اليهودية الصارمة، يعرف مخاطر الإيمان المبني على حفظ الناموس. وفي الحقيقة، لقد وضع إصبعه على نوع السخرية الغريبة على السلوك الإنساني: التمسك بالقانون والناموسِ غالباً ما يشجع على العصيان، وعدم الطاعة، ويتضح هذا كثيراً في العهد القديم. وكما قال بولس لأهل كولوسي: "تُفرض عليكم فرائض: لا تمس، ولا تذق، ولا تجس... التي لها حكايةحكمة بعبادة نافلة، وتواضع زائف، وقهر الجسد ليس بقيمة ما من جهة إشباع البشرية". إن رسول النعمة لم يستطع أن يتخيل لماذا يريد أي واحد أن يعود في علاقة مع الله تتسم بالتهيج والفشل. وهو يشير إلى حرية غير مبنية على القواعد والقوانين، بل على المحبة: "لأَنَّ كُلَّ النَّامُوسِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يُكْمَلُ: «تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ»".

فإذا رجعنا إلى أزمنة العهد القديم، رأى بولس أيضاً نموذجاً من الإتكال غير الصحي. فمثل الأطفال الذين نشأوا مع آباء أثرياء يمدونهم بكل إحتياجاتهم، هكذا وجد الإسرائيليون هويتهم في رفضهم الإتكال على الله. وظلوا في حالة من الثورة الطفولية في حين أن الله أرادهم أن يتحركوا بإستمرار نحو الرجولة.

أعرف رجلاً بلغ السبعين من عمره، ومازال يعيش مع أمه، ويطلب منها الإذن عند الخروج، كما يعطيها أجره الإسبوعي في نهاية كل إسبوع. وبعدما أجبرته علىٍ ترك خطيبته منذ عدة سنوات عاش تحت سلطانها. وأعرف أيضاً أناساً كبار في السن مستمرين في التصرف كالأطفال بسبب ضغط والديهم عليهم، وعدم رغبتهم في تحريرهم من هذا السلطان. وهم بذلك معاندون لقانون الطبيعة: فهدف الرعاية الأبوية هو تربية أناس تربية صحيحة وليس أطفالا يعتمدون عليهم حتى في الرجولة. إن أنثى التمساح تساعد صغارها للخروج من البيضة بكسرها، والنسر يحرك عشه ليجبر الفراخ الصغيرة على الطيران، والأب يدع إبنه يتعثر في المسير ويسقط، وبهذا يعلمه كيف يمشي. فالنمو يتضمن ولادة جديدة وتعرضنا للألم وإستقلالاً تدريجياً.

يُبنى الإيمان الطفولي على إختبارات غير واقعية، والإستناد على الناموس والقانون، وقد يصلح الإعتماد الخاطيء على الغير فترة محدودة إلى أن يُصدم الشخص بحقيقة جديدة. والإختبار العملي حطم هذا الحاجز مثلما فعل إبراهيم والأنبياء وتلاميذ المسيح. قال لهم يسوع: "لعازر مات، وأنا أفرح لأجلكم، أني لم أكن هناك لتؤمنوا". لقد كان يُعدّهم لحقيقة جديدة وهي القيامة، ولكن ليس قبل الخطوة الضرورية، وهي الموت.



عندما قال يسوع: "إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال، لن تدخلوا ملكوت السموات"، فهو لم يكن يتحدث عن الإيمان غير الناضج الذي وصفته سابقاً. ولا عن صفات الأطفال التي نراها واضحة وهم يلعبون: مضايقة بعضهم البعض، والمنافسة، والصراخ، والثرثرة. ماذا كان يقصد إذاً؟ وأنا أبحث في أحد خدمات "فردريك بوتشنر"، وجدت ثلاث صفات للطفولة قد تساعدنا على فهم معنى أن نصير مثل الأطفال.

يقول بوتشنر: "ليس للأطفال أفكار مسبقة عن الحقيقة. فكثير من الأطفال نظروا بقلق إلى المدخنة المغلقة ليتساءلوا: كيف تمكّن بابا نويل من إختراقها لكي يحضر لهم الهدايا.

ونحن نقول عن الأطفال الذين يصدقون الألعاب السحرية: "إنهم لا يعرفون أفضل من ذلك". غير أنه في بعض الأحيان يعرفون أكثر من ذلك. إن الإيمان الطفولي البسيط هو الذي دفع قائد المائة لأن يطلب من الرب يسوع أن يشفي خادمه، وهو نفسه الذي دفع أصدقاء المشلول لأن ينزلوه من السقف أمام يسوع ليشفيه، ودفع بطرس لكي يمشي على الماء، وهو الذي قاد التلاميذ لأن يدركوا أن الذي بينهم هو يسوع نفسه الذي شاهدوه مصلوباً، ومدفوناً في القبر منذ عدة أيام. في حين أن الكبار في ذلك الوقت، الذين لهم الحكمة ويعرفون أكثر وأفضل من الأطفال حاولوا إقناع الرجل الأعمى

الذي فتح يسوع عينيه، أنه من المحتمل لا يستطيع أن يرى، كما أنهم دبروا مؤامرة لقتل لعازر الذي أقامه يسوع من بين الأموات، ودفعوا رشوة للحراس الرومان لكي يشهدوا ضد يسوع.

قد أدهش الإيمان الطفولي البسيط يسوع، وأشعر بالتبكيت لحاجتي إلى هذا الإيمان عندما أقرأ الأناجيل. وكثيراً ما أشعر بضعف الإيمان عندما يُسيطر عليّ أمل ضعيف للتغيير، ولا أصدق بقدرة الله على شفاء جراح كثيرة في داخلي، أعيش بها منذ فترة طويلة. الميزان بين الإيمان البسيط والإيمان الطفولي قد يكون غير ثابت، أو مستقر، ولكننا لا نجرؤ أن نميل نحو واحد في محاولة لتجنب الآخر.

ثانياً؛ يقول "بوتشنر": إن الأطفال يعرفون كيف يتقبلون الهدية. فلأنهم يعتمدون على والديهم منذ الميلاد، فهم يتلقونها بسرور، وبغير وعي. إنهم لا يجادلون فيما إذا كانوا يستحقونها أم لا، كما أنهم لا ينزعجون بخصوص رد هدية بمثلها للآخرين. إنهم يمزقون الأربطة بكل سرعة، ويستمتعون بالهدية. اعتادت جدتي، وهي سيدة حكيمة، أن تعطيني هدية في عيد مولدي، أقل مما تعطيه لأخي. ولم أعاتبها على ذلك، مطلقاً، ولكن كل ما كنت أفعله هو أن آخذ هديتها وأعتبرها هديتي الطبيعية في عيد مولدي.

يشاركنا الله نفسه، في بساطة الأطفال هذه، وهو يقبل الهدايا بلا أية مشاكل. والعهد القديم يوضح ذلك. وعندما كان المسيح على الأرض قبل الهدايا الغالية من المجوس، والناردين غالي الثمن من المرأة الخاطئة والتي سكبته على قدميه، وقبل هدية الوقت والإلتزام من تلاميذه، وهدية السجود من مريم أخت لعازر.

لقد علمني الأطفال الكثير عن تقديم الحمد والشكر لله. إنهم يشكرون كل يوم من أجل الكلب الموجود في البيت، والسنجاب الذي يلعب في الخارج. إنها روح الطفولة فقط هي التي تساعد على تقبل عطايا الله العادية، كل يوم، دون أن أعتقد أنها أمور عادية. وهي نفس الروح التي تسمح لي ان افتح فمي لأتقبل نعمة

الله المجانية، والتي لا صلة لها بما أفعله.

ثالثاً؛ يعرف الأطفال كيف يثقون. فالشارع المزدحم لا يُزعج الطفل، طالما هو ممسك بيد أبيه. ويجب أن تُعلّم الأطفال أن لا يثقوا في الغرباء، لأن عدم الثقة ليس من طباعهم.

عندما صلى الرب يسوع في بستان جَثْسَيْمَانِي استخدم الكلمة التي يستخدمها الأطفال اليهود عندما ينادون على والدهم: "يا أبا الآب، كل شيء مستطاع لديك، فأجز عني هذه الكأس ولكن ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت". قد وثق تماماً في الله بالرغم مما كان يراه أمامه، إتكال طفولي حتى وهو على الصليب عندما صلى: "يا أبتاه بين يديك أستودع روحي".

تحكي لنا "كاثلين نوريس" عن معركة ذهنية طويلة ضد إيمان طفولتها، وقالت أنها وجدت صعوبة لفترة ما في تصديق الكثير من التعاليم المسيحية. وفيما بعد، عندما اختبرت المشاكل في حياتها الشخصية، شعرت أنها بحاجة إلى لقاء بعض المرشدين الروحيين، ولدهشتها، لم يُبد الكثير من الرهبان إهتماماً بشكوكها، وتشتتها الذهني. فكتبت تقول: "لقد تضايقت بعض الشيء.. وقد تصورت أن شكوكي هي العقبة أمام إيماني، وشعرت بنوع من الخديعة عندما قال لي أحد الرهبان من كبار السن، أن شكوكي هي بذور الإيمان، وأنها علامة على أن الإيمان مازال حياً وسينمو". وبدلاً من مناقشة هذه الشكوك واحداً تلو الآخر، أعطاها الرهبان تعليمات عن العبادة والتقوى.

لقد تعلمت "نوريس" أن كلمة "يؤمن" في أصلها اليوناني تعني "أن يعطي قلبه لـ..."، ووجدت أن عملية العبادة يمكن أن تحل محل صورة الإيمان المادي. ولم تجد أية غرابة في ترديد قانون الإيمان الذي قد لا تفهمه، لأنه كما قالت هي: "تعودت كشاعرة أن أقول مالا أفهمه تماماً". وتدريجياً اتضح لها أنه لكي تكون لها علاقة مع الله، مثل أية علاقة أخرى يجب أن تندمج فيها دون أن تعرف إلى أين ستأخذها هذه العلاقة. وإبتدأت بالثقة، ومن هناك

بدأ ينمو الإيمان الناضج.

التوقعات غير الحقيقية، عكس الإيمان المنفتح، والناموس عكس النعمة، والإتكال الخاطيء عكس الثقة البسيطة للإيمان. وغالباً ما أشعر أنني أسير على حبل مشدود بين الإيمان الطفولي والإيمان البسيط الواثق. الفرق بين الإثنين دقيق مع أن: أحدهما يُبقيني في حالة طفولة مستمرة، بينما يقودني الآخر نحو علاقة ناضجة مع الله.

الكتيب الشهير "هو يقودني" الذي كتبه "والتر سيزيك" يوضح إيمان الأطفال الذي يُمارس في الظروف الصعبة. "سيزيك" كاثوليكي مخلص من بنسلفانيا، التحق بجماعة اليسوعيين، وتطوع للخدمة في الإتحاد السوفيتي وهو في قمة إلحاده. ولدهشته الشديدة عينه رئيسه، بدلاً من ذلك، لأن يذهب للخدمة في بولندا. وبعد مضي بضع سنين إندلعت الحرب وغزا جيش هتلر بولندا. ووسط مجموعة من اللاجئين البولنديين الهاربين إلى روسيا، وجد "سيزيك" فرصة إلهية للذهاب إلى روسيا. وتنكر في زي أحد العمال وهرب مع الهاربين إلى روسيا حيث كان يريد أن يخدم. لقد إستجاب الله لصلواته.

ورغم ذلك؛ وبعد فترة بسيطة قبض عليه البوليس السوفيتي، وقضى في أحد سجون موسكو خمسة أعوام، مجتازاً في الكثير من المضايقات والمعاناة. وأثناء وحدته في سجن لوبيانكا في موسكو، قضى سيزيك الليل والنهار موجهاً الأسئلة لله: ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟ لقد شعر أنه دُعي كخادم وقسيس، ولكن كيف له الآن أن يخدم وهو في الحبس الإنفرادي؟ وما فائدة كل التدريب الذي تلقاه؟ لماذا يُعاقب؟ وأخيراً استسلم لضغوط البوليس السري K.G.B ووقّع على إعتراف مكتوب بأنه يمارس الجاسوسية. وعندما رفض التعاون معهم فيما بعد، حكموا عليه بخمسة عشر عاماً مع الأشغال

الشاقة في سيبريا.

في منطقة جولاج حيث الظروف الصعبة، والبرد القارس، والعمل لمدة ١٤ ساعة حصل سيزيك أخيراً على الفرصة للخدمة كقسيس، بعدما اكتسب تدريجياً ثقة الكاثوليك الأوكرانيين. وقام بمغامرات واحتمل العقوبات وناضل مع الله، وتبددت بقايا الإيمان الطفولي واحدة تلو الأخرى. وبدلاً منها نمي إيمان الأطفال البسيط اليانع على المثال الذي اقترحه "فردريك بوتشنر".

أولاً؛ كان على سيزيك أن يتكيف مع حقائق جديدة. ففي سنوات تدريبه على الكهنوت لم يعرف شيئاً ولو لمرة واحدة عن كيفية العمل في روسيا. فاجتاز في بولندا أولا، ثم لوبيانكا، ثم معكسر العمل في سيبريا، وأخيراً في منفى للعمل في إحدى القرى، وفي كل هذه الأماكن واجه ظروفاً ما كان يختارها لنفسه. ولم تكن لدية أية كتب لاهوتية أو روحية يقرأها. وكان عليه أن يهرّب النبيذ، والخبز لممارسة شعائر مائدة الرب. ومنعت السلطات كل أنواع التبشير. ولفترة ما شعر سيزيك بالخيانة لأن دعوته للكهنوت لم تسير كما يتوقع لها.

وتعلم سيزيك أن يقبل إرادة الله "ليس كما يريد هو أو كما يعتقد بحكمته البشرية الفقيرة" بل بالحري "مثل ساعات اليوم الأربع والعشرين: الناس والأماكن، والظروف التي وضعها أمامنا في ذلك الوقت". وأدرك أن عليه أن يتقبل الحياة ويتوقعها بحسب مشيئة الله وانتظر أن يساعده الله على تحقيق ذلك. وبدلاً من ذلك تعلم أن يقبل المواقف التي يسمح له بها الله بأن يواجهها كل يوم، ومعظمها لا تخضع لسيطرته. وإنحصرت رؤية سيزيك في إطار الأربع والعشرين ساعة يومياً.

ثانياً؛ اكتشف سيزيك مواهب جديدة أعطاه إياها الله. وكما كان يصلي "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم" بدأ في قبول هذه المواهب المقدمة له:

"كل يوم بالنسبة لي يجب أن يكون أكثر من عقبة أحاول

أن أتخطاها أو فترة زمنية علىّ أن أحتملها، أو ساعات متتابعة يجب أن أعيشها. كل يوم، بالنسبة لي، يأتيني من يدي الله مخلوق بفرص جديدة لكي أتمم إرادته... ومن جانبنا يمكننا أن نقبل وأن نقدم له كل صلاة، وعمل، ومعاناة تصادفنا في هذا اليوم، بغض النظر عن مدى أهميتها بالنسبة لنا. ومع ذلك فبين الله والإنسان لا توجد لحظات غير هامة، وهذا هو سر العناية الإلهية".

وأخيراً؛ وفوق كل ذلك، تعلم سيزيك الثقة في الله. ويسجل كتابه الحزن والألم الذي يعانيه للتغلب على شكوكه والثقة في الله عندما يجد كل شيء في الحياة يظهر كما لو كان ضده. وتعلم ذلك بمراقبة إيمان الفلاحين من حوله. "كان الله بالنسبة لهم حقيقة مثل والدهم، أو أخيهم، أو أعز أصدقائهم". وقد لا يستطيعون التعبير عن ذلك بالكلام، ولكن في أعماقهم يؤمنون بأمانة الله. ويثقون في الله، ويلجأون إليه في الأوقات الصعبة، ويشكرونه في أزمنة الإنفراج والرحب، وإن كانت قليلة، وهم على إستعداد لأن يفقدوا كل شيء في العالم على أن يُغضبوا الله، ويتوقعون أن يكون معهم طوال الأبدية.

تحير سيزيك في فهم الشعور بحضور الله. ففي معسكر سجن سيبيريا تعلم حقيقة هامة: "بالإيمان نعلم أن الله موجود في كل مكان، ويوجد لنا عندما نطلبه. ولهذا فنحن الذين يجب علينا أن نضع أنفسنا في حضرته، ونعود إليه بالإيمان، وننتقل من الخيال إلى الإيمان بأننا في حضرة أب محب يقف دائماً على إستعداد لأن يستمع لقصصنا الطفولية، ويستجيب لثقتنا الطفولية البسيطة".

وعندما قرر أن يسلم نفسه لإرادة الله، علم سيزيك أنه كان حينئذٍ يعبر حاجز الثقة الذي كان يخافه دائما. ومع ذلك وعندما عبره "كانت النتيجة لا شعوراً بالخوف، بل شعور بالتحرر".



عندما أراجع رحلتي في الحياة يمكنني أن أرى المخاطر المحزنة في الإيمان الطفولي. كان عليّ أن أتعلم أن الحياة ليست عادلة، وأن الله لن يمهد لي بطريقة سحرية أرض الملعب. وتعلمت أن الناموس لا يعلمني الفضيلة، أو النضج، بل ربما يعلمني عكس ذلك. وتعلمت أن الإتكال الخاطيء على الآخرين يمكن أن يوقف النمو الروحي.

إنني ما زلت أسعى لبساطة إيمان الأطفال الناضج. وقد استفدت من أفكار والتر سيزيك. وبالرغم من أن ظروفنا مختلفة فالتحدي متشابه: أن نثق بأن طريق الله هو الأفضل دائماً. وحالة الطفل تمثل حالتي في علاقتي مع الله، لأنني خليقة ساقطة تبحث عن علاقة مع الخالق الكامل.

> "من هو الأعظم في ملكوت السموات؟ سأل التلاميذ هذا السؤال لأنهم كانوا يحاولون بإجتهاد معرفة الإجابة، وأراهم الرب طفلاً لا يعرف ما هو ملكوت السموات، ولا معنى السؤال الذي سأله التلاميذ. ثم طلب منهم يسوع أن يكونوا مثل هذا الطفل الصغير، لا يعرف بمعنى يفهم، ولا يهتم بمعنى يقلق".
>
> **فردريك بوتشنر**



١٨ - البالغ

"أنت تسأل: ما هي عقوبة أولئك الذين لا يقبلون الأشياء بهذه الروح؟ إن عقوبتهم هي أن يظلوا كما هم."

إبيكتيتوس



يدفع الوالدون الحكماء أطفالهم عن فكرة الاعتماد عليهم إلى الحرية بهدف تربيتهم على الاستقلال عندما يكبرون. أما المحبون فيختارون الاتكال على بعضهم البعض بإرادتهم: إنهم أحرار ولكنهم يتنازلون عن هذه الحرية من أجل الحب. وفي الزواج الناجح يتنازل الشريك عن رغباته لشريكه الآخر ليس إجباراً ولكن بدافع الحب. وأعتقد أن علاقة الكبار معاً تكشف ما يطلبه الله من الإنسان دائماً: ليس مجرد تعلق طفل بوالديه وليس لديه أي اختيار حقيقي ولكن التزام ناضج وحر من الحبيب للمحبوب.

ودائماً ألجأ إلى فكرة الزواج كصورة لهذه العلاقة الناضجة لأنني عايشتها كل يوم لمدة ثلاثين عاماً وهي أيضاً صورة يؤكد عليها الكتاب دائماً. كيف يمكنني أن أختار نوعاً جديداً من الاتكال

التطوعي في الزواج؟ وأعتقد أنني أنا وزوجتي جانيت اتخذنا قرارين ساعدانا لكي ننتقل إلى آفاق جديدة.

في أول مرة، انتقلنا من الأحياء البعيدة في شيكاغو إلى وسط المدينة. وكان يبدو أنها نوع من المخاطرة لأننا اعتقدنا أننا يمكن أن نتعرض لأي هجوم أو اعتداء مرة كل أسبوع في هذه المدينة. وتجولنا في المدينة وسمعنا لغات أخرى ينطق بها الناس في الشوارع. وتعلمنا كيف نتقبل ونستمتع بالأجناس والثقافات المختلفة المحيطة بنا. ولم نتعرض لأي نوع من الاعتداء طوال ثلاثة عشر عاماً قضيناها وسط المدينة.

وبعد تلك السنوات الغنية في حياة المدينة انتقلنا إلى كولورادو وهي على النقيض من شيكاغو في كل شئ. ولم نعرف أحداً فيها وكان علينا أن نبدأ ثانية العملية المعقدة لاكتشاف المجتمع والكنيسة والأصدقاء.

وعندما أتأمل في الأحداث الماضية يبدو واضحاً أننا انتقلنا إلى شيكاغو من أجل جانيت ثم انتقلنا إلى كولورادو لأنها كانت هذه رغبتي أنا. ونجحت جانيت في المدينة وأعدت برنامجاً للخدمة في الكنيسة تجاوب مع الاحتياجات العملية للمسنين وكان معظمهم فقراء والبعض منهم بلا مأوى. إن حياة المدينة بضغوطها وضوضائها بددت طاقتي الإبداعية، ولذلك اخترنا كولورادو بحثاً عن بيئة أكثر هدوءاً تساعدني على الكتابة.

وانتقالنا إلى كلا المكانين تطلّب الكثير من التكيف والتضحيات. وكما يعرف كل شخص في زواج ناجح أن الزوجين يتحملان كل هذه التغيرات بروح متبادلة من التسليم. ولأنني أعمل بالمنزل فقد ساعدنا هذا لأن يكون لدينا الكثير من الاختيارات أكثر من آخرين. ولكن روح القوة التي قد تقول (إنني أحتاج إلى تغيير مجتمعنا هذا الذي نعيش فيه وسوف أنتقل من هنا أردت هذا أم لا) أو العلاقة (لقد حققت أنت رغبتك، وجاء دوري لكي أحقق رغبتي أنا) فمثل هذه الروح ستدمر كل شئ. لا أحد منا كان يفرض قراره على

الآخر.

وفي الحقيقة، في أية علاقة ناضجة يضع الحب الحدود والروابط. فلا يمكنني الإشارة إلى عدد المرات الكثيرة التي تخلت فيها جانيت عن أمور محبوبة لديها حباً لي، وأنا أيضاً فعلت نفسي الشئ. فلا أحد منا يستطيع أن يكسب كل شئ طوال الوقت. ولأننا مرتبطان وملتزمان معاً فنحن نتكيف في الأمور الكبيرة والصغيرة الضرورية حتى نحيا معاً في سلام ونحاول ممارسة القوة والحرية في نطاق الحدود التي وضعناها معاً بالحب.

ثلاثون عاماً في هذا الزواج أحدثت تغييراً في كل منا. فقد تغيرنا كثيراً عما كنا عليه في بداية الزواج. علمتني جانيت مهارات اجتماعية، ومحبة النباتات، والعطف على الفقراء، وأنا علمتها الاستمتاع بالموسيقى الكلاسيكية، والتنبه للجمال الطبيعي، والحماس للسفر، وممارسة الرياضة. وخضوعنا لبعضنا البعض ساعدنا على النمو وليس الانكماش والعزلة.

ويدرك المحبون أن العلاقة تنمو في تربة من الثقة والنعمة والغفران وليس الناموس. وأن الحب لا يُفرض بالأمر. إنه لأمر طبيعي أن يريد أحد المحبين ما يريده الآخر. وعندما يتطلب الحب تضحية شخصية، فيبدو الأمر وكأنه موهبة: "لتكن لا إرادتي بل إرادتك". ويفتخر المحبون قائلين: إنني أتحدث عن زوجتي للآخرين وأفتخر بإنجازاتها ليس لأنني مضطر لذلك ولكن لأنني أريد للآخرين أن يعرفونها كما أعرفها أنا. بهذه الطريقة وبطرق أخرى تعلمت من الزواج كيف يجب أن تكون علاقتنا مع الله ناضجة. وقد وصف أوغسطينوس الحياة الروحية الطيبة بأنها "الحب المنظم جيداً".

إن الحالة التي يريدها الله منا تأتي كنتيجة لعلاقة أمينة ومخلصة معه. إننا نسعى لأن نُسِر الله وهدفنا الأعلى أن نعرفه ونحبه ونضحي بالكثير، وأثناء هذه العملية نحن أنفسنا نتغير. وتنمو الروحانية الشخصية كثمرة من ثمار تعاملاتنا مع الله. وفي النهاية، نجد أنفسنا

أننا لسنا فقط نعمل ما يُسِر الله بل أننا نريد أن نعمل ذلك.



إسأل أي شخص عالمي ليوضح لك سلوك المؤمنين الملتزمين. لماذا يتجنبون العادات الضارة بالجسم، ويحاربون الشهوة والفساد، ويفضلون الآخرين على ذواتهم، ويصرون على ممارسة الأمانة والعدل، يبحثون عن المكروهين والمنبوذين؟ وقد تسمع إحدى هذه الإجابات: "إنهم يخشون الجحيم، ويخافون من غضب الله، الدين هو دعامتهم، إنهم يعتمدون على هذه القواعد والقوانين لأنهم لا يستطيعون أن يكوّنوا رأيهم الخاص- إنهم مضغوط عليهم- إنهم يجتمعون معاً لتأكيد معتقدات بعضهم البعض" ومع أن هذه الإجابات قد يكون لها أساس من الصحة، فإنها لا تعكس الدوافع لدى المؤمنين والموصوفة في الكتاب المقدس.

لقد حكى لنا الرب يسوع عن التاجر الذي وجد لؤلؤة ثمينة فباع كل ما يمتلك لكي يشتريها. وفرحه بشرائها أنساه كل ما خسره. هذا هو تصور الإنسان الناضج والبالغ عن الحياة المسيحية: ليس وجهاً عابساً ونظاماً صارماً ولكنها حياة جديدة مملوءة بالحيوية تستحق كل تضحية من أجلها.

والوصول إلى هذا الهدف قد يأخذ وقتاً وممارسة طويلة. وكما قال س. إس. لويس: "يجب أن أقول صلواتي كل يوم سواء شعرت بالخشوع أم لا، ولكن هذا يشبه اضطراري لتعلم قواعد اللغة إذا أردت قراءة الشعر". ومثلما درس لويس قواعد اللغة اليونانية لا لكي يعرب الأفعال ولكن ليقرأ الشعر، فكذلك أمارس أنا التدريب على مفاتيح البيانو حتى تمكنني من إتقان استخدامه. وتأتي المكافأة بعد الممارسة ولا نحصل عليها بلا ممارسة. وقال أيضاً لويس: "نحن نتصرف بدافع الواجب آملين يوماً ما أن نفعل نفس الشئ بحرية وإصرار".

لماذا يجب أن نكون صالحين؟ لماذا نهتم بكل الوصايا المذكورة

في العهد الجديد؟ وأثناء قراءتي لصفحات الكتاب، قمت بوضع خط على الأماكن التي تصف العلاقة التي يريدها الله من الكبار. وأقدم ثلاثة أمثلة توضيحية يشير كل منها إلى دافع له ما يماثله في الكتاب المقدس.

المثل التوضيحي الأول سمعته من آرون غاندي حفيد المهاتما غاندي والمقيم الآن في الولايات المتحدة. قضى آرون فترة المراهقة في جنوب أفريقيا، حيث قام والده بالمساعدة في حملة المطالبة بالحقوق المدنية التي بدأها جده غاندي منذ عدة سنوات. وبعدما تعلم آرون القيادة طلب منه والده أن يأخذه بالسيارة لوسط المدينة لمكتب محام لاجتماع هام معه ثم يمكنه بعد ذلك أخذ السيارة لإصلاحها. وقاله له: "بإمكانك أن تفعل أي شئ تريده طالما ستأتي لتأخذني في الساعة السادسة تماماً". ومثل أي مراهق حصل على رخصة قيادة، قفز آرون فرحاً بالفرصة التي أتيحت له للقيادة في المدينة الكبيرة.

وبعد أن وضع السيارة في الجراج ذهب آرون إلى السينما. وكان الفيلم مسلياً للغاية حتى أنه حضر العرض الثاني ولم يتنبه للوقت. وعند خروجه من السينما شعر بنوع من الارتباك لحلول الظلام وتساءل ما إذا كان الجراج مازال مفتوحاً. وأسرع إلى هناك ووجد المكان مفتوحاً. وأخذ السيارة وأسرع بها إلى مكتب المحامي حيث وصل الساعة ٦,٣٠ ووجد والده منتظراً.

ولأنه كان يعرف أن والده يحب حفظ المواعيد، اخترع آرون قصة بعض المشاكل التي واجهها عند إصلاح السيارة وقال: "إنني سعيد الحظ لأنهم انتهوا من إصلاح السيارة إذ كان عليّ أن أنتظر لمدة ساعة وهذا هو سبب تأخيري".

وكان والد آرون قد اتصل بالجراج الساعة الخامسة وعرف منهم أن السيارة جاهزة. عندما قاد آرون السيارة وخرجوا خارج حدود المدينة طلب الأب من إبنه آرون أن ينتحي جانباً. وقال أنه اتصل بالجراج وعرف أن آرون كاذب. وقال الأب: "لقد تضايقت للغاية.

ما الذي جعل إبني يكذب عليّ؟ كيف أنني فشلت في أن أعلّم إبني أن يقول لي الحقيقة؟ يجب أن أفكر في هذا الأمر؟

ونزل الأب من السيارة وسار على قدميه بقية الطريق حتى المنزل طالباً من آرون أن يسير خلفه بالسيارة ويضيئ أنوارها لتضيئ له الطريق. وأخذ يسير لمدة ٦ ساعات وهو مطرق برأسه إلى الأرض في تفكير عميق. وقاد آرون السيارة على بعد خطوات من والده طوال الطريق.

عندما سمعت آرون وهو يروي هذه القصة، تساءلت ما إذا كان بإمكانه أن يستخدمها كمثل "رحلة تذنيب" استغلها الأب ليشعر إبنه بالذنب الذي اقترفه. ولكنه لا يراها بهذه الطريقة. حتى وهو في فترة المراهقة كان يحترم والده كقائد عظيم وضع المثل للأمانة والعدل. وعندما قال والده أنه يجب أن يفكر لماذا فشل كأب في تربية إبنه، كان يقصد ما يقول وقد أثر هذا في أعماق آرون. وأكثر من أي شئ آخر، أراد آرون أن يدخل السرور إلى قلب والده وإذا وإذا بحادثة الكذب تبرز أمامه. ويقول آرون: "بعد هذه الحادثة لم أكذب أبداً".

والمثل الثاني مأخوذ من فيلم "الإنقاذ الخاص لرايان" تتولى مجموعة إنقاذ يقودها الممثل توم هانكس، في إرسالية جريئة للعثور على رايان الذي قُتل إخوته الثلاثة في الحرب العالمية الثانية. وبدأت المجموعة تنفيذ مهمتها وحاربوا في اشتباكات مع النازي خلف خطوط العدو. ومات العديد منهم. وعند نهاية الفيلم يتقابل رايان صدفة مع الكابتن توم هانكس الذي أصيب بجرح مميت. وعندما نظر حوله إلى الدمار الذي نتج عن المعركة التي حاربوها لإنقاذ رايان، قال الكابتن هذه الكلمات الأخيرة في الفيلم "إربحها".

إربحها! لقد كانت لك نعمة الشجاعة والتضحية وأخيراً حياة أولئك الذين ماتوا عنك لكي تحيا أنت. ليس لديهم ما يقدمونه أكثر من حياتهم. ولكن أنت تستطيع ذلك بإمكانك أن تحيا حياة تُثبت بها أنك كنت تستحق كل هذه التضحيات. لا تُجب بدافع الشعور بالذنب

بل بدافع الشكر والامتنان مقدراً ما فعلوه من أجلك.

أما المثل الثالث فهو ما قاله أستاذ الفلسفة إدوارد لانجريك بكلية القديس أولاف في مينيسوتا - وهذا ما خاطب به إحدى الكنائس:

"تعرفت مرة على ولد صغير وعندما كان في السابعة من عمره ارتكب خطأ ترك أثراً عميقاً في نفسه. ذهب مرة إلى مخزن أدوية وحاول أن يسرق بعض المال. وفشل في ذلك ولكن بدلاً من تبليغ الشرطة أرسل إلى منزله وأبلغ والداه بما حدث. وهذا هو أصعب أمر واجهه في حياته. وتبادر إلى ذهنه أن يكسر ذراعه عمداً أمام سيارة مسرعة أو يفعل أي شئ ليريحه من المناقشة الخطيرة التي ستحدث مع والديه. ولكن المناقشة حدثت. وكان رد الفعل السريع للوالد هو قوله: "إبني مجرم" ونفذت هذه الكلمات إلى قلب الولد. لقد كانت كلمات مرعبة ولكنها صادقة: طفل عمره سبع سنوات ومجرم. ولكن والدة الطفل الباكية قالت: "إبني ليس مجرماً، وسوف يصبح قسيساً".

كنت أنا ذلك الطفل، وكانت إجابة أمي هي درس في الحب. لقد أحبني والدي أيضاً حتى أن ما قاله هو الصدق. لقد فعلت ما أستحق أن أوصف به بأنني لص. ولكنه لم يقل كل الحقيقة، لقد رأت فيّ أمي إمكانية ما يمكن أن أعمله وليس فقط ما عملته. والآن أرى أن كليهما كان مخطئاً (فلم أصبح قسيساً ولا لصاً بل أصبحت أستاذاً)، ولكن الطريقة التي أحبتني بها أمي علمتني الكثير عن كيف أحب نفسي..

لنفترض وجود شخص كان يرى فيك دائماً الإمكانيات، وسامحك من أجل إمكانياتك هذه وكان يتحداك باستمرار ويقول أنه سيكون لك شأن. وأفترض أن هذا الشخص ليس مثل باقي الناس ولكنه هو المسئول عنك وعن كل شخص آخر. ألا يمنحك هذا الشخص القدرة لتكتشف قوة المحبة

لتدرك حق الادعاء الذي يقول بأن الذي يُحب يمكن أن يُحِب. وأن مثل هذا الشخص تحبه من أجل نفسك والآخرين أيضاً؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن أجل هذا الشخص ألا تحب نفسك وتحب قريبك كنفسك. وسوف يكون هذا أمراً رهيباً حقاً.."

إن الرغبة في أن تدخل السرور لشخص تحترمه، مثلما فعل آرون وتعبر عن الامتنان مثل ريان من أجل التضحية غير العادية، كلاهما يمثل تصرف الكبار وليس دوافع طفولية للطاعة وكلاهما يمكن أن تطبقهما في علاقتنا مع الله. ومع ذلك فأستاذ الفلسفة وضع لنا مثلاً متفرداً لأقوى دافع: أن نعكس هويتنا الحقيقية كأشخاص محبوبين من الله. يقول الرسول يوحنا نحن نحب الآخرين لأن الله أحبنا أولاً. ونُسر قلب الله كما يُسر المحبوب حبيبته ليس بالاضطرار بل بالاختيار والرغبة.

فكر في الأمر: هل بإمكان أي شخص أن يفي بالوصية العظمى - أحب الرب إلهك - خوفاً من العقوبة؟ إن المحبة ليست بالإكراه. إنها تنبع من الامتلاء لا من الخوف. ووضع الرب يسوع الخطوة التالية: "من يحبني يتبع وصاياي".

عند قراءتي للعهد الجديد، اندهشت من الإصرار المستمر للكتاب على أن الخليقة الجديدة هي الدافع للسلوك الصالح. وأنني كهيكل لله الحي، ما هو العمل الذي أغرسه فيمن حولي وقد لا يرضى عنه الله؟ ويسمى هنري نووين هذه الخليقة الجديدة "صوت الله الداخلي للحب". روح داخلي يذكرني ويحررني لكي أتعرف كشخص محبوب من الله غير ناظر لمديح الناس أو ملامتهم. إن الصلاح أو "القداسة" هي ليست بعض الأنظمة الجديدة الفاضحة التي يجب أن أرتديها حول نفسي. إن القداسة هي ثمرة تغيير داخلي وهي استجابة تدريجية ولكن أكيدة لشخص يسكن الله فيه.

يقول أوغسطينوس: "إننا عابرو سبيل على الأرض، ونسير باستمرار". "وهذا يعني أن علينا أن نواصل المسير باستمرار.

ولهذا فأنت دائماً لا تشعر بالسعادة في المكان الذي أنت فيه إذا كنت تريد الوصول إلى غير المكان الذي أنت فيه. وإذا كنت مسروراً بحالك فقد توقفت فعلاً. وإذا قلت هذا يكفي، فأنت مفقود. واصل المسير وتقدم للأمام محاولاً تحقيق الهدف".

لديّ ذاكرة قوية عن ممارسة التدريب والتهذيب الروحي. وبعد تخرجي من مدرسة لدراسة الكتاب المقدس فرضوا علينا كتيباً من ٦٦ صفحة لقواعد نتبعها، ولكنني مارست حريتي في تجنب أي شئ مقتبس من الناموس والقواعد الروحية الصارمة. وفي إحدى العطلات الأسبوعية في فصل الشتاء استضفنا زائراً يدعى Joe وكان زميلي في كلية اللاهوت وهو يتمسك بالأمور الروحية بجدية أكثر مني، حتى أنه كان يوقظ كل من بالبيت في الساعة الخامسة صباحاً.

وأذكر أنه كان لدينا كلب قنص صغير يكره أولئك الذين يمارسون التمارين الرياضية. فكان يطارد الذين يمارسون الجري أو يركبون الدراجات، وعندما حاولت زوجتي ممارسة نط الحبل كان يضايقها كثيراً. وحدث مرة أنه في الخامسة صباحاً سمعنا نباح الكلب في حجرة المعيشة. وخوفاً من وجود لص وبسرعة أمسكت بمضرب الراكيت، وهو السلاح الوحيد الذي وجدته أمامي، وأسرعت نحو الغرفة وفتحت الباب وأضأت النور. وإذ بي أرى Joe مرتدياً الشورت، وعيناه مفتوحتان في فزع شديد محاولاً دفع كلب رمادي صغير واقفاً على ظهره العاري ومحاولاً عض شعر رأسه.

وبعد تهدئة الكلب، شرح لنا Joe ما حدث، قال أنه بعد قضاء ساعتين هادئتين في الصباح بدأ في ممارسة بعض التمارين ليستيقظ. ومن معاشرتي لـ Joe كزميل في الدراسة أدركت أنه يمارس كل هذه التدريبات الروحية ليس بدافع من ضمير يؤنبه بل كواجب مفروض عليه كما يمارس الرياضي تمارينه الاعتيادية

اليومية. وبالرغم من أنه لا يوجد أحد يستمتع بالاستيقاظ مبكراً في منزل بارد ومظلم لكي يصلي ويقرأ الكتاب، كان Joe يعتقد أنه أمر طيب أن يبدأ يومه بمثل هذا النظام. إن المؤمن الناضج لا يجب أن يعمل ويتصرف بدافع الواجب بل برغبة وحب، لأن العمل الذي يدخل السرور لقلب الله هو أيضاً يفرّح المؤمن.

وحتى اليوم أشعر أنني غير مؤهل لكي أُعطي تعليمات محددة للتدريب الروحي. بل بالحري أنصح بما كتبه إيوجين بترسون، و دالاس ويلارد، و ريتشارد فوستر، وإرشادات توماس ميرتون للجيل الماضي. وما كتبه بندكت، وأغناطيوس في القرون الماضية عن برامج مفصلة في هذا الأمر: البساطة، الانعزال، التسليم، الخدمة، الاعتراف، العبادة، التأمل، الصلاة، الصوم، الدراسة، التوجيه الروحي، حفظ يوم الرب، المجموعات الصغيرة، الضيافة، الطهارة، الصداقة، التكريس، العمل، القيادة، الشهادة ... كل هذه تلعب دوراً في النضوج الروحي، وكلها تتطلب التزاما قد يُوجد نوعاً من الصلة بينها وبين الأفكار القديمة التي كانت تُتبع.

ويعطينا تاريخ الكنيسة الكثير من الأمثلة لأناس مارسوا التهذيب الروحي بطريقة متطرفة وغير صحيحة معذبين أجسادهم ورافضين لكل أنواع التسلية. نحن نرفض كل هذا السلوك المتطرف. ومع ذلك فعندما كنت أقرأ ما كتبوه عن تلك "الرياضة الروحية" عرفت أنها كانت تُمارس طوعياً، والقليلون منهم كانوا ينظرون إليها بنوع من الأسف. إننا نعيش في مجتمع لا يستطيع أن يفهم أولئك الذين يصومون أو يصلون لمدة ساعتين في وقت هادئ، ثم يُقدرون لاعبي كرة القدم المحترفين الذين يتدربون لمدة خمس ساعات يومياً وقد تُجرى لهم عمليات جراحية في الركبة أو الكتف لعلاج إصاباتهم في الملاعب. إن كرهنا للنظام الرياضي قد يكشف الكثير عن أنفسنا أكثر مما يكشف عن "القديسين" الذي ننتقدهم.

عبّر توماس ميرتون عن التشابه بين الحرية والثروة التي يتمتع بها الرجل الغني. فالرجل الغني بإمكانه، إذا أراد، أن يشعل

سيجارته بنقوده. ويقول ميرتون أنه قبل معرفته للرب، بدد حريته في الحفلات وشرب الخمر. ولكن الرجل الغني الحكيم يعرف الطرق لاستغلال أمواله ليجني الثمار فيما بعد. أما ميرتون فقد اختار أن يستثمر حريته بالتحاقه بدير، والصلاة لعدة ساعات، ويعيشِ في سكون وعزلة. وقليلون من الذين يعرفون حياته يقولون أنه قد أضاعها.

وعندما أدرس حياة أناس مثل: فرنسيس الأسيزي، بندكيت، ميرتون، والأم تريزيا، أرى في هذه النفوس المنظمة ليس مجرد اتباعها لنوع من النظم في تصميم وتزمت بل يحدث هذا بتلقائية بل وبفرح. وباستثمارهم لحريتهم في نظام، فإنهم بذلك يتمتعون بحرية أعمق وغير متاحة في أي مكان آخر.

وقد نصح القديس بندكيت بالحاجة إلى "قليل من الحزم لكي نصلح الأخطاء ونحمي الحب"، وتساعدنا هذه النصيحة لكي نحافظ على النظام من أن يصل إلى التطرف. إن المحبة هي ما يريده الله منا في علاقته معنا، ولكننا نحن البشر نود أن نختبر الحب مثل أي عاطفة أخرى: قد تقوى أو تضعف. إن النظام يغذي في داخلنا قوة روحية ماكثة فينا - فالحب الذي يستمتع به الزوجان في ذكرى زواجهما ليس هو بنفس القوة التي كان بها في بداية زواجهما. وكجزء من الاشتراطات الروحية وضع يوناثان إدوارد قائمة من ٧٠ "قراراً" لمراجعتها بانتظام. ويقول القرار رقم ٢٥ "امتحن بعناية وباستمرار، الشئ الذي في داخلي، والذي قد يتسبب في شكي في محبة الله والذي قد يوجه كل قواي ضده".

إن أولئك الذين يكتبون عن الحياة المسيحية يقررون أنها تزداد صعوبة وليس سهولة بمرور السنين. وفي مثل هذه الأوقات فإن التدريب والنظام الروحي يقدم العلاج الوحيد المؤثر. فالذي يتسلق قمة جبل إيفرست يعتمد على خبرة سنوات، فمجرد الطريق غير الممهد قبل الصعود لا يكفي.



لمدة عشرين عاماً مارست رياضة الجري والدراجات والأيروبك ثلاث مرات أسبوعياً. ولم أفعل هذا لأن أحداً يجبرني على ذلك أو لأنني مقتنع بأن هذا أمر جيد ولكن أفعل هذا لفائدته بالنسبة لي. فبإمكاني تسلق الجبال والتزحلق على الجليد دون متاعب في التنفس أو العضلات. وهذه هي المكافأة من ممارسة الرياضة الجسدية. (وقد كتب الرسول بولس شيئاً مشابهاً لذلك) "درب نفسك على التقوى، الرياضة الجسدية نافعة لقليل أما الروحية فنافعة لكل شئ ولها وعد الحياة الحاضرة والمستقبلة أيضاً".

شاركت في مسابقات للجري لمسافات محدودة ولكن شاركت في ماراثون واحد فقط، وكان بالنسبة لهاوٍ مثلي حدثاً رياضياً. وقد استمر الجري لمدة ثلاث ساعات ونصف ناضلت فيها بتركيز ذهني. وعندما كنت أشارك في الجري لمسافات قصيرة، كان بإمكاني أن أظل متيقظاً لما أفعله وللمسافة المتبقية وبإمكاني تقدير الوقت الباقي لإنهاء السباق. أما في الماراثون فكنت أشعر كما لو أنني أضع نظارة سوداء على عيني وغير قادر على التركيز في السباق ككل. وركزت تفكيري على الألم في إصبع قدمي اليسرى وعلى امتلاء المثانة بالبول ... وكانت تنتابني لحظات من الفرح واليأس بدون أي سبب واضح. وكنت أقول لنفسي واصل الجري فسوف ينتهي بعد قليل. والطريقة الوحيدة لكي تصل للنهاية هي أن تستمر في الجري.

وافق أحد أصدقائي على رؤيتي عند مسافة عشرة كيلومتر، ولكنه لم يحضر فأصبت باليأس الذي استمر معي لمدة خمس دقائق. وأجبرت نفسي للنظر إلى من يجرون حولي، وإلى المناطق المجاورة في شكاغو، والإعلانات المعلقة طوال الطريق، وبينما كنت أفعل ذلك فقدت طريق السباق الصحيح ولم أعرف ترتيبي فيه. وبعد الجري لمسافة ١٧ ميل سمعت صوتاً من الجمهور الذي كان يستمع للراديو أن المتسابق الأول عبر خط النهاية. وكان عليّ

أن أجري تسعة أميال لأصل للنهاية.

وعند علامة العشرين ميلاً شعرت بالرغبة لتهدئة الجري ثم السير. وفجأة ظهر صديقي ولأول مرة وجدت شخصاً لأتحدث معه. وكان سبب تأخيره عن الحضور أن الكثير من الشوارع كانت مغلقة وقال هذا وهو يجري بجواري. وفي عمل يدل على قوة صداقته لي وشعوره بمدى ضعفي، واصل داف Dave الجري بجانبي لمسافة الستة أميال الباقية مقدماً لي كل تشجيع.

يشبه العهد الجديد الحياة المسيحية بالسباق في خمسة أماكن، ولو كان بولس مازال يكتب حتى اليوم لكان قد وضع مواصفات لسباق الماراثون. فالستة وعشرون ميلاً التي جريتها تشمل كل العواطف الإنسانية. أما الأميال العابرة والمؤقتة فقد تلاشت بسرعة. والذي ساعدني على تكملة السباق هو السير والتحمل وأخيراً تشجيع صديقي لي. وفيما بعد، عندما فكرت في السباق، عرفت أن مشاعر الهزيمة التي شعرت بها هي أمر عادي كما وصفته المجلة الخاصة بالسباق. وفي ذلك الوقت لم تكن لي أية توقعات فاتخذت قرار السير خطوة خطوة لتكملة السباق حتى النهاية.

اعتاد مارتن لوثر كنج أن يقول للعاملين في مجال حقوق الإنسان "إن لم تستطع الطيران فأجرِ. وإن لم تستطع الجري إمشِ. وإن لم تستطع المشي إزحف فالأمر المهم أن تظل متحركاً". وتنطبق نصيحته على من يشاركون في الماراثون وعلى المؤمنين في

> ""أعتقد أن كل المؤمنين يتفقون معي إذا قلت أنه مع أن المسيحية تبدو في بداية الأمر كما لو أنها تتحدث عن الأخلاقيات والواجبات والقوانين والذنب والفضيلة، وبالرغم من ذلك فهي تقودك إلى شيء ما وراء ذلك. فيمكن للإنسان أن يتخيل بلداً لا يتحدث فيه أحد عن هذه الأمور إلا كما لو أنها نكته. فكل واحد هناك سوف يمتلئ بالصلاح كما تمتلئ المرآة بالضوء. ولكنهم لا يسمونه صلاحاً أو أي شيء. ولا يفكرون فيه فهم مشغولون بالنظر إلى مصدر هذا الصلاح".
>
> **س. إس. لويس**

مسيرتهم مع الرب. وتتقدم الحياة مع الله مثل أية علاقة أخرى: عدم ثبات، فترات طويلة من السكون، انتصارات وهزائم، تجارب وانتصارات. ولكي نحقق الكمال الذي يقودنا للهدف المنشود يجب أن ننتظر حتى ينتهي السباق، حتى الموت، وهذا الانتظار في حد ذاته هو عمل غير عادي للإيمان والشجاعة.



١٩ - الوالد

"أعتقد أن المحبة تتنازل من أعلى إلى أسفل. الآباء يحبون أطفالهم أكثر من محبة الأطفال لآبائهم، ولذا يمكن للأطفال أن يدركوا عمق هذه المحبة فقط عندما يصبحون هم أنفسهم آباء."

الأسقف كينج



لأنني لست أباً، فإنني أشعر بالرهبة تجاه الآباء. أصدقائي، من الآباء، يدخرون المال لسنوات ليحضروا أولادهم إلى كولورادو، وينفقون آلاف الدولارات للاستمتاع بالأجازات ثم يحصلون على عائد بسيط لهذا الاستثمار. فالولد الذي بلغ العشر سنوات يود أن يلعب ألعاب الفيديو طوال اليوم. والمراهق يجلس عابساً في المقعد الخلفي ويعبث في مسجل CD مركزاً كل انتباهه في مجلة رياضية ورافضاً حتى أن يلقي نظرة على المناظر الطبيعية الجميلة من شباك السيارة. والأطفال الصغار يتشاجرون فيما بينهم على المقاعد ويتذمرون من طول الوقت الذى قضوه فى السيارة ، إن الطقس

بارد للغاية ولا يصلح للخروج للنزهة. لماذا ذهبنا في هذه الرحلة الغبية؟ كنت أعتقد أننا سنرى حيوانات متوحشة - أين هي؟ ألا نستطيع البقاء في المنزل ونشاهد فيلماً؟

وللدهشة، فإن ردود الأفعال هذه لا تزعج الآباء على الإطلاق. لقد تعودوا على إنفاق الدولارات ويحثون أطفالهم لكي يرتدوا ملابسهم، ويتخلصوا من بواقي الطعام من أطباقهم، وينظفوا حجراتهم وكل هذا قد يُقابل بالعناد وعدم الاكتراث. وكآباء لا يتوقعون أكثر من هذا.

ومثلما نتقدم في نمونا البشري من طفل إلى بالغ إلى أب فهذا ما يحدث لنا أيضاً في الحياة الروحية وإن لم يكن بنفس الدرجة تماماً.

وكما يقول جان فانييه: أن لكل شخص "ثلاث صيحات من القلب". الأولى: نحن نصيح طلباً للحب من الأب والأم الذين بإمكانهما أن يحميانا في ضعفنا. وكل منا يبدأ حياته كطفل عاجز وضعيف، وحتى عند البلوغ لا نستغني عن حب الوالدين. وهذا الاشتياق قد يعيدنا إلى الله، كأطفال يحتاجون إلى الآب السماوي.

والثانية: نشعر بحاجة الشاب إلى صديق، شخص يشاركنا أعمق أسرارنا ونثق فيه بلا خوف ونحبه. وهذه الحاجة قد تقودنا إلى الله الذي يتغلب على كونه غير منظور فيرتبط بنا كبشر، ويعد بأن يعيش فينا "لا أعود أسميكم عبيداً بل أحباء" هكذا قال يسوع لتلاميذه.

وأخيراً، نشعر بالحاجة لخدمة أولئك الذين هم أضعف منا. وبالنسبة للكثيرين، فإن شعور الأبوة يشبع هذه الحاجة. أما آخرون- مثل فانييه القسيس أو يسوع نفسه - يسعون لخدمة الفقراء، والمتروكين، والمرضى، والمعاقين كاستجابة لهذه الحاجة القلبية.

ومثل الوالدين، يعيش المؤمن الناضج لا لنفسه. بل يعيش من أجل الآخرين. ويضع يوحنا لنا هذا المبدأ بكل وضوح:

"بهذا قد عرفنا المحبة: أن ذاك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغي أن نضع نفوسنا لأجل الأخوة. وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه. ياأولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق" (١يو ٣: ١٦ - ١٨).

وعندما قرأت العهد الجديد ووضعت علامة على ما يُقال للأولاد، والشباب، والآباء، وجدت الكثير من الفقرات موجهة إلى "الآباء". ويؤكد الكتّاب في كلمة الله تدريجياً وبلطف على القرّاء أن يتخطوا ذواتهم. فمثلاً، بعض الفقرات تحث المؤمنين على تجنب قضايا المطالبة بحقوقهم لكي يضعوا مثلاً للآخرين لجذبهم للإيمان. ومع أن الرسول بولس نفسه لا يشعر بوخز الضمير تجاه أمور مثيرة للجدل والخلاف، فقد عدّل من سلوكه من أجل المؤمنين الضعفاء وغير الناضجين. ويقول: "فإني إذ كنت حراً من الجميع استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين".

ويدفعنا العهد الجديد وبإصرار لأن نسمو نحو دوافع أعلى نحو الصلاح. فالطفل يريد أن يعرف ماذا سيأخذ، والبالغ يدرك أن الحدود وُضعت لمصلحته، أما الآب فيضحي بحريته من أجل الآخرين. وكما قال روبرت برووننج: "هذا هو طريق المحبة دائماً، لكي ترتفع لابد وأن تتنازل وتنحني وتخضع".

وهاكم حقيقة مدهشة: عندما يحزم أصدقائي شنطهم ويعودون لمنازلهم فلا أحد منهم يتأسف على ما احتملوه من متاعب. ففرحة الأطفال الذين شاهدوا الثعالب في أوكارها، واستمتاع الشباب بتسلق الجبال، وعناق طفل في عمر العشر سنوات في نهاية رحلة متعبة، مثل هذه الذكريات تبدد كل ضيق. إنهم يتقدمون نحو النضوج والثقة والاستقلال، وماذا ينتظر الآباء من مكافأة أكثر من ذلك؟



الله يعلم أننا أولاد، ولهذا فالكتاب يذكر دائماً هذا التشبيه المماثل.

ولكن في ذات الوقت يشتاق الله أن ننمو في مرحلة الأبوة والمحبة والتضحية وهي التي تعكس طبيعة الله بكل دقة. إننا نقترب من طبيعة الله عندما نضحي بأنفسنا من أجله. ويقول جان فانييه: أننا نحتاج إلى هذه المرحلة كجزء أساسي للتقدم الروحي إذ أنها تعلمنا ما الذي يجب أن تكون عليه حياتنا وإلا لن نتعلم.

الآباء البشريون يتعلمون شيئاً من المحبة التي لا شروط لها وهي المتمثلة في محبة الله. ويقول رولاند رولهيسر:

"قد لا يوجد شئ في هذا العالم يقوى على تحطيم الأنانية مثل النظر إلى أطفالنا. ففي محبتنا لهم نشعر بأن لنا نفس امتياز مشاعر الله نحونا - وهذا يدفعنا لأن نضحي ونفرح ونُسر وتكون لدينا الرغبة لأن ندع حياة الآخر أن تكون أهم وأفضل من حياتنا".

في كل العلاقات الإنسانية نحن نُقدر بحسب إمكانياتنا. فصاحب العمل يحكم علينا بمهاراتنا ومستوى ذكائنا، والبنوك والمحلات التجارية تتعامل معنا إذا كان لدينا رصيدٌ بالبنك، وحتى أصدقاؤنا يختاروننا بناء على المصالح المشتركة. أما في العائلة فالشئ الوحيد المهم هو: الميلاد. هل بإمكانك أن تتخيل مشاعر والدين علّما بأن نتيجة اختبار الذكاء الذي أُجري لإبنهما هو ٩٠ درجة أو هل يتنكران لابنتيهما إذا فشلت في الانضمام لفريق الكرة بالمدرسة. إن الحب في الأسرة النموذجية هو حب غير مشروط. فالإبن المعوق يتمتع بنفس المحبة والمشاعر الفياضة كالتي يتمتع بها الإبن الرياضي القوي.

حتى بدون ولادة الأطفال يمكننا أن نكتسب الإحساس بمحبة الآخرين محبة غير مشروطة كما يحبنا الله. وعندما حصلت زوجتي على برنامج تدريبي لمعاملة المسنين، تعودت أن أجيب كل من يسألني عن عدد أطفالنا أقول: "لدينا العشرات ولكن عمرهم ضعف عمرنا" فقد قامت زوجتي جانيت بخدمة المسنين في بيوت المسنين وفي بعض الفنادق ومنحتهم حباً أبوياً رائعاً.

عندما قُطعت الكهرباء والغاز والتليفون عن سارة، وهي سيدة مسنة، بسبب خطأ وسوء فهم، دافعت عنها جانيت بكل قوة ووبختهم لسوء تصرفهم مع سيدة مسنة وأعادت لها كل شئ. وعندما فقد هانك ساقه بسبب غرغرينا ومرض السكر، مكثت جانيت بجواره وعلمته كيف يمشي بالعكاز. وعندما عانت زيلدا من عدم تدفق الدم لأقدامها لازمتها جانيت بالمستشفى وقامت بعملية التدليك وراقبت الممرضات حتى لا يهملنها.

لم تقم جانيت بهذه الأعمال لأن هؤلاء المسنين استحقوا رعايتها، بل لأنها كانت تؤمن أن الله يحب كل مسنٍ في شيكاغو ولكي يشعر كل منهم بهذه المحبة من خلال أيادي خادمة للرب. وفي أحد الأيام قرأت جانيت هذا الاقتباس: "الفقراء يعبرون عن امتنانهم ليس بأن يقولوا شكراً بل بطلب المزيد". وكانت قد أمضت يوماً مرهقاً في الخدمة بين أولئك الذين يطلبون المزيد. وكان هذا الاقتباس مصدر عزاء لها.

حدث أمر عجيب أثناء وجود زوجتي جانيت في مركز خدمة المسنين. وعندما راقبتها هي والآخرين الذين يُشاركون في خدمة الفقراء في المناطق البعيدة، رأيت مدى التضحية الشخصية التي يبذلونها. ويتقاضى الأخصائيون الاجتماعيون مبلغاً بسيطاً نظير الساعات الطويلة التي يقضونها مع المسنين. وقد أدهشني أنه بالرغم من العبء الكبير على جانيت كانت تبدو كما لو أنها تستفيد مثل المسنين تماماً. وقد لاحظ مرة شهيد العمل المرسلي جيم إيليوت أن كثيراً من المؤمنين يصممون على فعل شئ ما لله حتى أنهم ينسون العمل الأساسي الذي يطلبه الله وهو أن يصنع بهم شيئاً. ورأيت هذا المبدأ حياً في زوجتي. فهي عندما تغدق كل مهاراتها ومشاعرها على الناس ولكن يحكم عليها معظم المجتمع بأنها غير مستحقة، إلا أنها في داخلها تزداد قوة في الأمور الهامة.

وفي تناقض ظاهري إنساني، كلما ازداد عطاء الإنسان للآخرين كلما ازداد غنى وعمقاً وكلما أصبح أكثر تشبهاً بالرب. ومن الناحية

الأخرى، كلما تقوقع على ذاته، كلما قلت إنسانيته. إن حاجتنا لأن نعطي هي في نفس درجة حاجة الآخرين لأن يتلقوا عطاءنا.

أخبرني د. بول براند عن زائر لا يُنسى قام بزيارته في فولاور في الهند عندما كان يدير مستشفى البرص. ففي أحد الأيام زاره راهب فرنسي يدعى بيري يرتدي ملابس راهب ويحمل حقيبة بها كل ما يمتلك. ولبضعة أسابيع مكث مع مجموعة تدعى براندس وأخبرهم قصة حياته. ولد في عائلة من النبلاء وخدم في البرلمان الفرنسي ثم تركه بسبب التغير السياسي البطئ. وبعد الحرب العالمية الثانية، وباريس مازالت تترنح تحت تأثير الاحتلال النازي، عاش آلاف المشردين في الشوارع. لم يتسامح بيري مع مشاورات النبلاء والسياسيين تاركين الآلاف من الشعب يتضورون جوعاً في الشوارع.

وأثناء فصل الشتاء القارص تجمد الشحاذون في باريس حتى الموت. وفي يأسه استقال بيري من وظيفته وأصبح راهباً كاثوليكياً ليعمل وسطهم. وعندما فشل في إرضاء السياسيين أو المجتمع في محنة الشحاذين، قرر أن يركز مجهوده على تنظيم الشحاذين أنفسهم. علمهم كيف يؤدون الأعمال الحقيرة بطريقة أفضل. فبدلاً من جمع الزجاجات والخرق البالية، انقسموا إلى فرق لتنظيف المدينة. ثم قادهم لبناء مخزن للسلع من الطوب ثم يبدأون عملاً تجارياً حيث قاموا بشراء الزجاجات المستعملة من الفنادق. وأخيراً شجع بيري كل شحاذ بتكليفه بمسئولية مساعدة شحاذ آخر أكثر فقراً منه. ونجح المشروع وفي سنوات قليلة قامت منظمة تدعى عمواس لكي تنقل نوعية هذا العمل لبلاد أخرى.

والآن جاء بيري إلى فولاور لأن المنظمة تواجه بعض المشكلات. وبعد سنوات من العمل لم يعد هناك شحاذون في باريس. ثم قال "يجب أن أجد شخصاً ما ليساعد الشحاذين. وإن لم أجد أناساً أشد فقراً من الشحاذين، فسوف تتراجع هذه المنظمة. وقد تصبح منظمة غنية وقوية وعندئذ سوف يضيع منها الهدف والتأثير الروحي إذا

لم يجدوا أحداً ليخدموه".

وفي مستعمرة البرص في الهند- تبعد خمسة آلاف ميل- وجد الأب بيري أخيراً الحل للمشكلة التي في باريس. وقابل المئات من مرضى البرص، والكثيرون منهم أسوأ حالاً من الشحاذين الذين تركهم في باريس. وعندما قابلهم ابتسم ابتسامة عريضة. وبدأ يدفعهم لبناء عنبر في المستشفى في فولاور وقال للمسئولين "لقد أنقذتمونا يجب أن نعمل وإلا سنموت".

لقد أتقن ومارس الأب بيري مبدأ القائد الخادم، وهذا جزء أساسي في الدور الروحي للآباء. قال يسوع عن نفسه: "لأن ابن الإنسان لم يأت ليُخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين". لا أعرف رسالة عاجلة لبلاد الغرب الغنية غير هذه والذين يشاركون كوكباً به ثلاثة بلايين شخص يكسبون أقل من دولارين في اليوم، عالم يموت فيه ٤٠,٠٠٠ طفل يومياً بسبب سوء التغذية والأمراض المستعصية. وكما قال الأب بيري نفسه، إن الحل لن يأتي من البرامج الكثيرة التي تقيمها الوكالات الدولية، حتى وإن كانت تساعد بعض الشئ، ولكن الحل سيأتي من الأفراد الذين يلتزمون برغبتهم الخالصة بحب الخدمة.

تمثل مرحلة الكبار حالة متقدمة من النضج. إن آجلاً أو عاجلاً، سيجد الآباء أنفسهم يواجهون تجارب صعبة بمفردهم دون أن يرشدهم أحد ماذا يفعلون .. وهذه حقيقة في حياتنا العادية ويمكن تطبيقها على الآباء الروحيين مثلما تحدث مع الآباء الجسديين. وقد تقابلت مع مؤمنين في أماكن صعبة مثل لبنان وروسيا والصومال لم يكن لديهم أي استعداد لمثل هذه المرحلة المتقدمة. لقد تطوعوا لخدمة الآخرين بروح مثالية. وكلما ازدادت التجارب، كانوا يتوقعون الإحساس بحضور الله، وبمساندة أكثر وإيمان أقوى. ولكن بدلاً من ذلك وجدوا العكس.

في إحدى روايات س. إس. لويس يُدرك الشيطان - الذي أعطاه إسم "سكروتاب" بطريقة كاملة نموذج بناء الإيمان. ونصح أتباعه بأنه في بداية الحياة الروحية قد يشعر المؤمن بقرب حضور الله، وهي حالة خطرة تقل فيها أسلحة الشيطان في مواجهة المؤمن. وفيما بعد سوف تسنح له فرص كثيرة ضد العدو (الله):

> "في أثناء مثل هذه الفترات تبدأ حياة المؤمن في النمو. ومن هنا فالصلاة التي تُقدم في حالة الجفاف هي تلك التي تُسر الله كثيراً .. إنه يريدهم أن يتعلموا المشي ولذلك سوف يرفع يده، وإذا حاولوا المسير بمفردهم فسوف يُسر الله حتى لو تعثروا. لا تنخدع يا علقم Wormwood (وهو اسم الشيطان الآخر). إن قضيتنا سوف تكون في خطر عندما يحاول الإنسان تنفيذ إرادة عدونا (الله) ويتطلع إلى الكون من حوله فيرى آثار عدونا (الله) تبدو كما لو أنها اختفت، ويتساءل لماذا ينساه الله وهو مايزال يطيعه".

فكَّرَ أحد أصدقائي في عمل كتاب قراءات روحية يومية لمدة ٣٦٥ يوماً فتحدث مع آلاف القديسين لكي يختار من أقوالهم شيئاً لكتابه وأخبرني أن معظمهم يجتازون في صعوبات متزايدة. ولأن الله يوكل إلينا بمزيد من المسئوليات لثقته فينا فقد تزداد المتاعب أيضاً. وهنا يظهر الشعور بالإهمال والترك ويضعف الشعور بحضور الله وتتكاثر التجارب والشكوك.

صاغ هنري نووين عبارة جريئة "خدمة الغياب" وقال أن خدمتنا ستكون ناقصة إذا كنا نشهد فقط عن حضور الله ولا نُعد الآخرين لكي يختبروا الأوقات التي يبدو فيها الله غائباً. إن خدمة العبادة ذاتها تعبر عن حقيقة غياب الله:

> نحن نأكل ولكن ليس بالقدر الكافي الذي يوقف جوعنا، ونشرب النبيذ ولكن ليس بالقدر الكافي ليقضي على عطشنا، ونقرأ الكتب ولكن ليس بالقدر الكافي الذي يقضي على جهلنا. وحول هذه "الإشارات الفقيرة" نجتمع ونحتفل.

بماذا نحتفل إذاً؟ هذه الإشارات البسيطة التي لا تشبع رغباتنا وتتحدث عن غياب الله. إنه لم يعود بعد، ونحن مازلنا نسير في الطريق، ومازلنا ننتظر، ومازلنا نرجو، ومازلنا نتوقع ومازلنا نشتاق .. إن الخادم لم يستدع لكي يفرّح الناس ولكن لكي يذكرهم أنه في وسط الألم والتجارب يمكننا أن نجد أول علامة للحياة الجديدة ويمكننا أن نختبر الفرح المختبئ في وسط الحزن".

ولسنا بحاجة لأن ننظر إلى أمثلة أبعد من تلك الموجودة في الكتاب عن غياب الله. يقول أشعياء: "الماذا تحجب وجهك عنا. لماذا أنت كغريب في الأرض، كمسافر يمكث ليلة واحدة؟" وأي علاقة تتضمن أوقاتاً مِن القرب وأخرى من البعد، وفي علاقتنا مع الله، لا يهم مدى قربنا، فالبندول يتحرك من جانب إلى آخر.

وقد اختبرت الشعور بالبعد والترك وأنا أتقدم روحياً من الإيمان الطفولي إلى المرحلة التي شعرت فيها أنه بإمكاني أن أساعد الآخرين. وفجأة حل الظلام. ولمدة عام كامل لا أشعر باستجابة للصلاة، ولم أثق في أن الله كان يسمع لي. ولم يجهزني أو يعدني أحد "لخدمة الغياب". وبحثاً عن الراحة بدأت أقرأ لشعراء مثل: جورج هيربرت، فرانك أبوت، وأيضاً جيرد مانلي هوبكنز الذي كتب ما يلي:

يا الله، وإن كنا نرفع مزاميرنا إليك
فلا تأتي أية استجابة من السماء؛
فإليك يصلي الخاطئ الخائف
ولكن لا يصله صوت الغفران
ويبدو أن صلواتنا فُقدت في الصحراء
وترنيماتنا تموت في السكون الواسع

وهذا ما اختبرته أنا شخصياً. ولم تُجد معي أية وسيلة حتى أنني في يأسي اشتريت "كتاب الساعات" الذي يستخدم في الطقوس الدينية. وخلال هذه السنة كنت أقرأ تلك الصلوات وبعض فقرات

من الكتاب المقدس مقدماً إياها لله كصلوات لي. وقلت للرب: "ليس لدي ما أقوله. ربما لم يكن لدي إيمان. أرجوك قبول هذه الصلوات التي قالها آخرون كصلوات لي أقدمها لك الآن. واقبل كلماتها بدلاً من كلماتي أنا".

وأتذكر الآن هذه الفترة من الشعور بغياب الله عني كفترة هامة للنمو، لأنه أثناءها كنت أحاول جاهداً أن أجد الله أكثر من أي فترة سابقة. وخرجت منها بإيمان متجدد وتقدير لحضور الله كعطية وهبة منه أكثر منه أن نُؤهل لذلك. وتعلمت أن أنظر لفترات غياب الله كنوع من الحضور الغائب. فإذا غاب طالب عن حضور مدرسة أو جامعة لفترة محددة، فسيشعر والداه بغيابه كل يوم. ومع ذلك فهما لا يشعران بالفراغ الكامل لأنهما يتذكران وجوده السابق معهما. ويجدان في كل المنزل ما يذكرهما به، ولديهما أمل في عودته. وهذا المعنى ينطبق على غياب الله عنا.

وبعد هذه السنة اجتزت في فترات من الجفاف الروحي ولكن لم يكن في قسوة تلك الفترة التي عانيت فيها من اليباب الشديد. ومن الكتاب المقدس يمكنني أن أفهم أن غياب الله عنا قد يكون نوعاً من الاختبار الذي لم يستثنِ منه الرب يسوع نفسه "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟" ومن الناحية الأخرى قد يمثل وجهاً من علاقة غير مهمة. وأنا لست أول من اختبر هذه الأوقات المظلمة ولن أكون الأخير. وإذا كان رد فعلي منها الابتعاد عن الله فسوف أُحرم من مرحلة نمو العلاقة الناضجة. وإذا كان الله قد منحنا الحرية لكي نقترب منه أو نبتعد عنه، ألا يكون له هو نفس الحق في مثل هذه الحرية؟



مع أنني لست أباً، فقد جلست مع آباء كثيرين واستمعت إلى شكواهم: لقد فعلنا كل ما نستطيع فعله. أعطيناها كل ما احتاجت إليه، أحببناها بكل الطرق التي نعرفها .. والآن حدث ما حدث. تقول أنها كانت تتمنى لو لم تولد، إنها تلومنا وتعتبرنا سبباً في كل مشاكلها وتتمنى أن لا ترانا ثانية.

إن الآباء يعرفون استخدام القوة ويعرفون أيضاً حدودها. بإمكانهم الإصرار على سلوك خارجي معين ولكنهم لا يستطيعون تغيير الداخل. قد يطلبون الطاعة وليس الصلاح ولا الحب. كيف إذاً يمكنك بناء شخصية الطفل؟ كيف تغذي فيه صفات مثل الصبر، الشفقة، اللطف، والعاطفة؟ كيف تغفر عن سلوك بغيض بدون عقاب؟

ويكافح الآباء الأرضيين مع نفس القضايا الحساسة مثل القوة والحدود الذاتية وهي أيضاً تعرّف علاقة الله بنا. فمن خلال ما يجتاز فيه الآباء يمكن أن تكون لدينا لمحة عن "المشاكل" التي تحدث مع الكائنات البشرية التي خلقها الله وأعطاها الحرية لكي تثور ضده. وعندما قرأت سفر أرميا منذ فترة وجيزة، سمعت صدى كلمة الله عن الألم الذي يشعر به الآباء. "بعد كل الذي فعلته من أجلكم، وكل الحب الذي منحته لكم، كيف تعاملونني هكذا؟ لماذا تحولون ظهوركم لمن خلقكم؟".

أنت لست بحاجة لأن يكون لك أولاد حتى تتعلم مثل هذه الدروس. إسأل أي خادم ما إذا كانت فكرته وخبراته مع الاجتماع الذي يخدمه تتفق مع المثاليات التي جذبته للخدمة في بداية حياته. أو إقرأ رسائل الرسول بولس لأهل كورنثوس وأصغ إلى مدى توتره وغضبه وحيرته إزاء تصرفاتهم الروحية الصبيانية. إن المحبة ترفض التحكم في الآخرين بل تطلقهم أحراراً وتتحمل النتائج.

قال الرب يسوع هذه الآية ست مرات في الأناجيل: "من يضع حياته من أجلي يربحها أما من يحتفظ بها فيخسرها".*

---

* وهنا يجب أن أذكر تحذيراً للكنيسة لأنه أحياناً يُساء تفسير إنكار الذات. إنه لا يعني إنكار قيمة الفرد، ولم يقصد يسوع هذا على الإطلاق. ولا يُقصد بالآية التقليل من مواهب الشخص وإمكانياته: بل أن الرسول بولس أكد على ذلك وقال إن هذه هي مساهماتنا الرئيسية لجسد المسيح. ولكن ليس كل شخص يستطيع أن ينكر ذاته. يجب أولاً أن نأخذ لكي نتمكن من العطاء ويجب أن يكون لدينا مكان قبل أن نتركه. كثير من المؤمنين يضعفون بسبب الأفكار اللاهوتية الخاطئة ويحتاجون إلى تصحيح أفكارهم من جهة ممتلكاتهم الشخصية قبل أن يفكروا في إنكار الذات. إن الأطفال المجروحين يجب أن يشفوا قبل أن يصبحوا آباء أصحاء.

إن حياة يسوع تحمل هذا المبدأ، لأنه اختبر الخسارة حالما التزم بالخدمة الجهورية. فطاردته الجماهير بطلبات متزايدة دائماً. وظهر الاعتراض وأخيراً بذل حياته.

وضع براند Bernard of Clairveaux أربعة مراحل للنمو الروحي:

١ - نحب أنفسنا من أجلنا.
٢ - نحب الله من أجل أنفسنا.
٣ - نحب الله لذاته وبدون أنانية منا.
٤ - نحب أنفسنا من أجل الله عالمين مدى محبة الله العظيمة لنا.

وأنا أود أن أضيف رقم ٥ وهي التي تمثل مرحلة الأبوة للنمو الروحي وهي: محبة الآخرين من أجل خاطر الرب.

ويمكن للمؤمنين أن يؤثروا في العالم بمحبتهم المضحية، وهي أفضل طريقة لتغيير العالم. إن الآباء يعبرون عن محبتهم بالبقاء ساهرين طوال الليل مع أطفالهم المرضى، والعمل في وظيفتين ليتمكنوا من دفع مصروفات المدرسة، ويضحون باحتياجاتهم من أجل أبنائهم. وكل من يتبع يسوع يسلك على نفس النموذج. إن ملكوت الله يعطى في محبة وسخاء، وهذا ما يفعله الله من أجلنا.

"كُتب على إحدى اللافتات اللاصقة: لتقُد السيارة بحذر، فالحياة التي تنقذها قد تكون حياتك". هذه هي حكمة الإنسان في كلمات قليلة. ومن الناحية الأخرى يقول الرب "الحياة التي تخلصها هي الحياة التي تضحي بها من أجل الآخرين" وبمعنى آخر، الحياة التي تحتفظ بها لذاتك، وتدخرها، وتحاول أن تحافظ عليها فهي في النهاية قليلة القيمة بالنسبة للآخرين بمن فيهم أنت، أما الحياة التي تبذل من أجل الآخرين في محبة فهي التي تستحق أن نعيشها. ولكي يوضح هذا الأمر أرانا الله إنساناً بذل حياته دون أن يكون له أية أموال في البنك. وفي رأي البشر وحكمتهم، إنه كان غبياً وكل من يفكر في اتباعه بدون أن يتبع نفس طريقه فهو بذلك لا يحمل الصليب بل يخدع نفسه".

فردريك بوتشنر

في فترة تحقيق الذات،

لا يستطيع كل فرد أن يوافق على مبدأ إنكار الذات الذي نادى به يسوع والقائل بأننا يجب أن ننكر ذواتنا لكي نتبعه. كتبت جلوريا ستينم في كتابها "ثورة من الداخل" ما يلي: "إن السلطة الذاتية هي الفكرة الوحيدة الجوهرية والراديكالية الموجودة" وأنا لا أوافق على ذلك. فعندما نقبل سلطة أعلى وننكر ذواتنا في خدمة تلك السلطة وهذا السلطان، فهذا هو أمر أساسي وجوهري وراديكالي.

إن يسوع لم يستخف بمحبة الذات وقال: "تُحب قريبك كنفسك". بل بالحري اقترح أقصى تحقيق لنتائج خدمة الآخرين ليست الأنانية أو حب الذات. فنحن نحقق ذواتنا لكي نتمكن من تقاسم تلك المواهب مع الآخرين الأقل موهبة. بعض طلبة الكليات قد يذهبون إلى البرية ليقضوا فترة في التأمل "لاكتشاف أنفسهم. ويقول الرب يسوع أننا نكتشف ذواتنا لا بأن نبدأ من الداخل بل بأن ننظر للخارج، ليس بفحص أفكارنا ومشاعرنا بل من خلال أعمال المحبة للآخرين. ولا يستطيع أحد أن يفهم كيف يصبح أباً بقراءة الكتب وقبل أن يولد أول طفل. إنك تتعلم هذا الدور عند القيام بالآف الأعمال الدنيوية: استدعاء طبيب عند المرض، إعداد الطفل لأول يوم لذهابه للمدرسة، اللعب معه، تضميد الجراح ... والأب الروحي يمر بنفس المراحل. وفي النهاية سوف يثبت صحة ما قاله الرب يسوع "من يضع نفسه من أجلي يربحها". فالتواضع يقود للرفعة.



الجزء السادس





غاية العلاقة

٢٠ - الفردوس المفقود

"في أعماق قلب كل إنسان منذ ولادته وحتى مماته، يوجد شئ ما لا يُقهر متوقعاً، أنه في قلب كل جريمة تُرتكب أو يعاني منها، يشعر سراً بأن الأمر الصالح وليس الشرير هو الذي سيحدث ... ومصدر هذا الشعور هو أمر مقدس داخل كل إنسان".

سيمون ويل



في اليوم الذي انتُخب فيه بيل كلينتون للفترة الأولى، انتقلت إلى الفردوس. قمت بقيادة السيارة ومعي زوجتي، محملة ببعض الأوراق على المقعد الخلفي وسرنا عبر ولايتي إيوا، و نبراسكا متجهين إلى منزلنا في كولورادو. وفي اليوم التالي عند الغسق أفرغنا ما معنا في السيارة لحين مجئ عربة الشحن التي بها أدواتنا. وفي صباح اليوم التالي استيقظنا لنجد الأشجار مغطاه بالجليد. ياله من فردوس رائع.

وفي الأسابيع التالية بدأت أنظم كتبي ومكتبي وبدأت العمل في

كتاب كنت قد بدأت كتابته في شيكاغو. ياله من فرق كبير بين ما أراه هنا في كولورادو عندما أتطلع من الشباك وبين شيكاغو. في شيكاغو كنت أعمل في بدروم وعندما كنت أنظر من النافذة كنت أرى أرجل الناس فقط وهي تسير. وكنت أرى الحمام والسنجاب والكلاب التي كانت تترك بقاياها لننظفها. أما هنا في كولورادو فكان يزورنا يومياً الغزلان والثعالب الحمراء والطيور.

وكل فصل كانت له مسراته. في فصل الشتاء كنت أسير على الجليد خلف منزلنا محاولاً التعرف على آثار أقدام الحيوانات متتبعاً إياها إلى منازلها وسط الصخور والأشجار. وفي الربيع والصيف تظهر الزهور على التلال. وفي الخريف كانت تظهر الحيوانات لتحاول جمع غذائها قبل الشتاء.

ثم اكتشفنا الجانب الآخر من هذا الفردوس. فعندما كنا نقود السيارة إلى وايمنج لحضور حفل زفاف أحد الأصدقاء اكتشفنا وجود خمسة عشر حفرة بجوار منزلنا. وعندما سألنا الجيران قالوا إننا سمعنا أصوات طرق فاعتقدنا أنكم تبنون أرضية للمنزل. وفي الصباح التالي عند الساعة الخامسة عرفنا سر هذا الصوت عندما رأينا طائر نقار الخشب حول المنزل.

وفي الربيع زرعنا بعض الأشجار وحرثنا التربة ووضعنا بعض السماد ورويناها بالماء. وبعد فترة ازدهرت حتى جاء قطيع من الأيائل وأكل هذه الفروع التي أزهرت.

وجاء السنجاب ليتسلق المدخنة والمواسير، ثم جاء حيوان الراكون ومزق الألواح الخشبية بالسقف. وتشوه الفردوس مثلما يحدث للعالم من حولنا، وتخيلت اجتماعاً عقدته الحيوانات عندما بدأ العمال في بناء منزلنا في الغابة: "البشر قادمون! السنجاب والراكون مسئولان عن السقف، ونقار الخشب مسئول عن الأشجار..".

وفي كولورادو اكتشفت قصة الكون. العالم مكان جيد. العالم سقط، العالم يمكن فداؤه. وتعلمت الدرس الأول عندما جئت إلى هنا من مجرد نظرتي من النافذة. ثم تعلمت الدرس الثاني تدريجياً

عندما تآمر الفردوس على سكانه من البشر. ومنذ ذلك الوقت بدأت العمل لإصلاح ما حولي: عندما علقت ثعابين من المطاط، وبومة من السيراميك، وشنطاً بلاستيكية للزبالة لكي أخيف نقار الخشب، وبوضع مصيدة للفيران، ورش الأزهار والنباتات والأشجار بالكيماويات.

هذه الدورة من الصلاح والسقوط والفداء تنطبق على كل شئ في هذا الكون. الجنس، الأسرة، الكنيسة، الاقتصاد، الحكومات. وفي الحقيقة كل شئ يلمسه الإنسان تخرج منه الرائحة الأصلية للصلاح ثم الرائحة الكريهة للسقوط ثم يحتاج إلى الفداء والتوبة. وهذه هي "الخطة" والفكرة الرئيسية المقدمة في الكتاب المقدس، وهي خطة كل التاريخ.



العالم حسن وجيد. وبعد كل عملية في الخلق في سفر التكوين يقول "ورأى الله أن كل شئ حسن".

ومن مكاني المفضل في غرفة زجاجية على تلال روكي أستمع للموسيقى الهادئة من حولي، في هذا الجو الشاعري لا أجد صعوبة في فهم وتصديق أن كل شئ حسن. وفي ظرف ساعة واحدة رأيت ثعلباً يسير بكل قسوة على سنجاب رمادي كان يجلس على فرع شجرة. والعصافير تنتقل من شجرة إلى أخرى. ورجعت إلى سفر المزامير وإلى ترانيم الحمد التي كتبها داود في بيئة جميلة مثل هذه ونسمع منها صدى العبادة الروحية.

في العطلة الأسبوعية الماضية في رحلة إلى شيكاغو حضرت حفلاً موسيقياً وقدمت الأوركسترا حفلتين، واحدة من موسيقى موزارت والثانية أنطون بروكنر. وكان الذي يغني السوبرانو إيطالي وآخر ألماني، أما التينور فهولندي وكان يقود الجميع دانيال بارنبويم وهو يهودي أرجنتيني وقادهم في عرض رشيق تسانده الآلات والأصوات من أوركسترا شيكاغو السيمفونية. ورنموا

"مجداً لله في الأعالي" وأعطوا مجداً لمن جاء من السماء، حمل الله الذي رفع خطية العالم. وعندما رنم الموسيقيون انفتحت أبواب السماء. وأنا جالس في هذه الصالة الفخمة وأستمع إلى هذه الموسيقى العذبة، ليست لدي مشكلة في أن أثق بأن هذا العالم حسن وجيد.

وبعد عشر ثواني خارج صالة الموسيقى ثارت شكوكي الكامنة. وعلى جانبي الطريق ظهر أناس شرسون يريدون الاعتداء على الأثرياء الذين حضروا الحفل الموسيقي. والليلة الماضية غطى الجليد كل شئ. وسائقو التاكسي بدأوا في الصياح والشجار معاً بحثاً عن مكان لسياراتهم. ورجعنا إلى حالة الفوضى ثانية وهي واقع العالم.

إنه شر الإنسان الذي يفسد حُسن وجمال هذا العالم. إن الناس في شيكاغو يتشردون بسبب الحاجة للعواطف والمشاعر وليس بسبب الحاجة للمكان أو الموارد. وبالمثل، فالعالم ينتج ما يكفي من الطعام ليغذي كل البشرية، ولكن الناس تموت جوعاً كنتيجة للطمع والظلم.

فمنذ أوغسطينوس وما بعده، أَصر اللاهوت المسيحي على أن ما نسميه الأشياء السيئة هي في الواقع أشياء حسنة ولكن أسيئ استخدامها. الكذب يُغلف الحق، والفساد الجنسي يلطخ جمال الحب الجسدي، والشراهة والنهم تُفسد الطعام والشراب. إن الشر يجب أن يبتعد عن الخير إذ ليس له القدرة لخلق أي شئ جديد. وكما قال س. إس. لويس: "إن الفرح هو من اختراع الله وليس نحن. إنه هو الذي صنع كل هذا الفرح والسرور: وكل مجهوداتنا وبحثنا حتى الآن لم تمكنّا من أن نصنع شيئاً واحداً مثله".

وبالطبع، أشياء كثيرة في هذا العالم لا تبدو أنها جيدة. ومع ذلك، فقد تعلمت أن أتطلع إلى ما وراء السلبيات الظاهرة إلى الأمور الحسنة المختفية بدءاً من الجسم الإنساني. وتعلمت من الدكتور بول براند الذي شاركني في تأليف ثلاثة كتب، أن أصادق الكثير من الأمراض الجسدية التي نعتبرها أعدائنا. فكل نشاط

لأجسادنا الذي ننظر إليه بنوع من الغضب والضيق والاشمئزاز مثل البثور، والتورم، والحمى، الانفلونزا، السعال، القيئ ... إلخ كل هذه الأمراض تبين قدرة الجسم على المقاومة والحماية. وبدون هذه الإشارات التحذيرية والخطوات الحرجة في عملية الشفاء، لكنا نعيش في خطر عظيم.

وآلامي العاطفية تكشف أيضاً عن أمور طيبة مختفية. ما هي ميزة الخوف؟ وأحاول أن أتخيل رياضة تسلق الجبال أو التزحلق على التلال بدون أن يحميني هذا الخوف ويحفظني من أي إهمال قد يحدث. أو قد أفكر في عالم بدون وحدة وعزلة، شكل من أشكال الألم الذي شعر به آدم قبل السقوط. هل يوجد الحب والصداقة بدون شعور داخلي يحثنا على ذلك ويبعدنا عن التفكير في الرهبنة والنسك؟ إننا بحاجة إلى قوة الشعور بالوحدة لكي تدفعنا لمصادقة الآخرين.

إن المشاعر السلبية قد يكون لها قيمة إيجابية إذا استجبنا لها بطريقة حسنة. وفي كلمات الطبيب النفسي جيرالد ماي ما يلي: "في الحقيقة إن حاجتنا لتحقيق الذات هي أثمن موهبة لدينا. إنها مصدر مشاعرنا وعواطفنا وإبداعنا وبحثنا عن الله. وكل الأمور الجميلة في حياتنا تأتي من اشتياقاتنا الإنسانية وشعورنا بعدم الاكتفاء". كلما ازداد حبنا ازدادت معاناتنا. ونحن نبتعد عن الموت لأننا نريد أن نحيا. وقد تعلمت تقديراً ثابتاً للأمور الحسنة في هذا العالم، هناك شئ حسن في الشئ السيئ المتبقي. فعندما يحدث أمر سيئ، سوء تفاهم مع زوجتي أو صديق لي أو شعور بالذنب لأنني لم أؤدِ مسئولية ما، أحاول أن أنظر لهذا الأمر تماماً مثلما أنظر لألم جسدي، كإشارة وتنبيه لي لكي أستعد لأمر يحتاج لتغيير. وأحاول أن أشكر ليس الألم ذاته بل الفرصة للاستجابة لاستخراج ما هو جيد مما قد يبدو سيئاً.



لقد سقط العالم. وفيلم الوادي الكبير يظهر بوضوح سقوط العالم بكلمات ربما أُخذت من القديس أوغسطينوس. ويحكي الفيلم قصة سائق شاحنة بمقطورة ويدعى داني جلوفر هدده خمسة مشاغبين وهو يحاول إنقاذ سائق موتوسيكل مرعوب فيقول: "يارجل، لا يجب أن يكون العالم بهذه الصورة. ربما لا تعرف ذلك، ولكن لا يجب أن تسير الأمور هكذا. من المفروض أن أؤدي عملي بدون إذن منك. وهذا الرجل يجب أن يتمكن من الانتظار بسيارته دون أن تأذونوا له. كل شئ يجب أن يختلف عما هو عليه هنا".

وفي الأزمنة المتفائلة يجب على المؤمنين أن يجعلوا هذا العالم الساقط قضيتهم. وأولئك الذين لهم النظرة المتفائلة للطبيعة الإنسانية والذين كانت لهم رؤية ثابتة للتقدم نحو خلق "إنسان اجتماعي جديد"، سقطوا في صحراء سيبريا في المنطقة القطبية الشمالية وفي سهول الصين وربما وصل عدد جثثهم إلى مائة مليون. والآن، فالولايات المتحدة، التي كانت مرة الأمل المشرق لأوروبا المُتعبة، ها هي تقود العالم بمقاييس مختلفة من العنف والفوضى الاجتماعية.

وما قاله سائق الشاحنة تقوله المبادئ المسيحية عن سقوط الإنسان: "أيها الإنسان، لا يصح أن يكون العالم هكذا ..." وإذا كان الله قد خلق العالم في أحسن صورة فلابد وأن شيئاً ما قد انحرف. وكلمة سقوط - والتي لم تُستخدم في الكتاب لوصف ما حدث لآدم وحواء - حققت مكاناً مركزياً في اللاهوت لأنها تبدو ملائمة لذلك. فقد وصل آدم وحواء إلى مكانة عالية، ثم فقدا توازنهما، ونزلا إلى الأرض بارتطام شديد.

ولدى اليونانيين قصص مشابهة، فقد سرق رجل يدعى برومثيوس ناراً تخص الآلهة، ثم صعد ولد يدعى إيكاريوس إلى أعلى بأجنحة من الريش وسقط وارتطم بالأرض، وامرأة تدعى باندورا فتحت صندوقاً سرياً للآلهة. وفي كل هذه القصص تتقدم الشخصيات بطريقة ما ولكنها تسقط بشدة. أما آدم وحواء سقطا

بسرعة عندما عرفا الخير والشر وجلبا الشر للعالم، وبهذا خسرا فرصة الحياة كما كان يريدها الله.

وفي أزماننا، تكرر التكنولوجيا نفس دورة آدم وحواء، بارمثيوس، وإيكاروس، باندورا لقد سيطرنا على الذرة ولكن محونا أنفسنا. إننا نتعلم أسرار الحياة فقط لكي نطور أساليب التدمير للأجنة والمسنين. لقد عرفنا الخريطة الجينية وفتحنا صندوق باندورا الأخلاقي. واستأنسنا السهول العظيمة بالصين بزراعتها، وتمكنا من إحداث فيضانات على الغابات وأذبنا الجليد. وربطنا العالم بالإنترنت فقط لنجد فيها أموراً فاحشة. وكل تقدم يُدخل نوعاً من السقوط.

أحد الذين بقوا أحياء من معسكرات النازي ويدعى بريمو ليفي قال: "لم يعط الإنسان الفرصة لكي يتمتع بسعادة غير ملوثة". وهذا حقيقي. ولا يمكننا أن نعرف محبة أو صلاحاً أو أي شئ آخر غير ملوث. وبسبب سقوط آدم تلوث كوكب الأرض كله. كل الاختيارات بها أمر خاطئ ونحن نبذل جهداً لاختيار أقلها ضرراً. "ومع ذلك ..." هاتان الكلمتان - طبقاً لما يقوله إيلي ويسل - تستخدمان دائماً، فحتى في عالم قد سقط بإمكاننا أن نرى لمحات من الحسن الأصلي الذي خُلق به. كتب الفنان فان جوخ رسالة لأخيه ثيو يقول فيها: "أشعر بطريقة متزايدة أننا لا يجب أن نحكم على الله بما نراه في هذا العالم، إنها مجرد دراسة لم تنته. ماذا بإمكانك أن تفعل بدراسة خاطئة؟ - فإذا كنت معجباً بالفنان، فلن تجد لديه ما تنتقده - وتمنع لسانك عن الكلام. ولكن لك الحق لكي تطلب شيئاً أفضل.

وفيما بعد أضاف فان جوخ ما يلي: "لقد تحطمت هذه الدراسة بعدة طرق" إن السيد فقط هو الذي بإمكانه أن يُحدث مثل هذا الخطأ الفادح، وربما يكون هذا هو أفضل عزاء لنا في هذا الأمر، لأننا في مثل هذه الحالة يكون لنا الحق في أن نأمل بأن نرى نفس هذه اليد الخالقة ستصنع ما هو أفضل. فالأخطاء والأمور الناقصة في العالم وفي فان جوخ نفسه أوجدت فيه دافعاً للأمل والرجاء.

يمكن للعالم أن **يُفتدى**. قالت الكاتبة الروائية مارلين رولنسون: "إنه لأمر حقيقي بالنسبة للعالم المسيحي وللبشرية أيضاً أن الإنسان سقط بسرعة بعد خليقته ليجعل من المسيحية والسقوط حادثتين في حادث واحد. فالموضوع المتكرر في الكتاب المقدس هو دائماً إنقاذ الإنسان، سواء كان نوح وأسرته، أو شعب إسرائيل أو فداء المسيح. والفكرة تقول أن هناك أملاً باقياً وهو أثمن من أن نفقده، وهو الذي سيحيي البشرية، وقد كان دائماً أملاً جديراً بالثناء".

وقد اخترت بعناية كلمة **يُفتدى**، لأنني أعلم أنه بمرور الوقت ضعفت قيمتها. في الثقافة التي يُسمح فيها بوجود عبيد، استقر المترجمون الأوائل للكتاب المقدس على الفداء كأقوى صورة لما هو لدى الله ليعطيه للبشر. هل هناك أية صورة أخرى يمكن أن تعبر عن نعمة الله أكثر من شراء عبد لكي تطلقه حراً؟ ولكننا اليوم نحن نفتدي (نحرر) الرهانات والساعات وليس العبيد. لقد كادت الكلمة أن تفقد معناها.

ومع ذلك فلا توجد كلمة أخرى تناسب هذا المعنى. وكلمات مثل يسترد، يُصلح، يعيد خلق، وكلها تشير إلى الأصل الحسن الذي وعد الله يعيد إقراره، كلها كلمات تحتاج إلى معنى جديد. فالعبد الذي تحرر (وافتُدى) لم يُفتد أو يُسترد تماماً وحقيقة: فمازال يحمل جروح الكرباج الذي ضُرب به وصدمة وألم العذاب الذي عاناه في المنزل والأسرة والقارة إلى أن بيع في سلاسل إلى سيده. وبسبب هذا الضيق وهذه الصدمة، فالحرية تعني الكثير لهذا العبد المتحرر أكثر من أي معنى كان في ذهنه من قبل. وبالرغم من كل المصاعب - أو ربما بسببها - فإن شيئاً ما تقدم وتطور. ولمحات الكتاب المقدس عن حالتنا الأبدية توضح أن ما نحتمله على الأرض الآن، وكيف نستجيب له، سوف يكوّن هذه الحالة، ويظهرها، وسوف نتذكرها هناك. حتى يسوع المقام احتفظ بجراحه.

إن الفداء لا يعد بإحلال شئ مكان آخر بل بالتغيير الذي يستفيد مما كان قبلاً. وسوف ندرك تخطيط الله الذي أصلح الأصل مثل الكاتدرائية التي يُعاد بناؤها بعد تدميرها بالقنابل. ويتضمن الفداء نوعاً من الكيمياء أو حجر الفلاسفة الذي يصنع ذهباً من التراب. وفي النهاية سوف يتحول الشر إلى أداة للخير.

ويشترك اليهود والمسيحيون في وجهة النظر التاريخية هذه مع اختلاف واحد مهم. فيقبل اليهود فكرة صلاح وسقوط العالم، في حين أن المسيحيون، يرون التاريخ يحقق غايته بطريقة مُشابهة لبدايته. ففي حين أن سفر الرؤيا يرسم صورة لهذا العالم الذي افُتدي، فهو يستعير مشاهد من أنبياء العبرانيين وينتهي بنفس المشهد الطبيعي الموجود في سفر التكوين. جنّة، أشجار، نهر، سلام، حضور الله. والفرق في مدة آلاف السنين- أثناء فترة معاناتهم التي أظلمت تاريخهم الطويل- يستغيث اليهود طلباً لوعد الفداء بمجئ المسيا. بينما يؤمن المسيحيون أن المسيا قد جاء فعلاً وحقق ما لم يتحقق في موعده.

وفي كتابه "الصنّاعُ" قارن، أمين مكتبة الكونجرس دانيال بورستن، النظرة اليهودية المسيحية بالطرق الأخرى للنظر للعالم. فالبوذيون لا يهتمون كثيراً بالبدايات والنهايات وبدلاً من ذلك يحاولون الهرب من مشاكل هذا العالم. والهندوس والمسلمون يستسلمون للفكرة. ويقول بورستن: أن العلم والفن ازدهرا في التربة اليهودية والمسيحية بسبب ميلنا الفطري للنضال ضد هذا العالم المرتبك، وتنبع هذه الفكرة من الاعتقاد بأن لنا دوراً يجب أن نلعبه في فداء هذا العالم. الوقت مهم، والتاريخ مهم والأفراد مهمون. ونحن نتحرك نحو الفداء.

حتى الحركات التي تُنكر القصة المسيحية تقتبس منها بعض العناصر. فحركة التنوير وعدت بحركة فدائية تتجه نحو يقظة جديدة، والرومانسية سعت لتغطية البراءة الأصلية، والشيوعية وعدت بطريقة ضد السقوط بدون الحاجة للفداء. إن النساء

والأقليات، والمعاقين، والناشطين في حقوق الإنسان والبيئة، كل هؤلاء يستمدون قوتهم الأخلاقية من قوة القصة المسيحية التي تعد بالفداء للمظلومين والمستعبدين.

ومع ذلك فالقصة المسيحية تحتاج إلى عناصر ثلاثة لكي تكتمل. افصل أي حلقة، تنفك السلسلة. فينكر الكثيرون اليوم أن الله الصالح هو الذي خلق العالم وبه الكائنات البشرية التي تلعب دوراً رئيسياً، ونتيجة لذلك يجدون صعوبة كبيرة في التمييز بين الخير والشر، وماله قيمة وما ليس له معنى. (يقول الناشطون من أجل حقوق الحيوان أن الإنسان ليس له قيمة أكثر من خنزير). وكما ذكرت سابقاً، فإنني أسخر من المتفائلين الذين ينكرون سقوط الإنسان ويرسمون صورة وردية عن القوة الكامنة في الإنسان وينتهون إلى خلق أسوأ المآسي التي رآها العالم. وأولئك الذين لا أمل لهم في الفداء يصلون إلى فكرة عن التاريخ كتلك التي كانت لماكبث: "إنه قصة سردها غبي أحمق، مملوء بالغضب، وقصة لا معنى لها".

> "القلب نفسه ما هو إلا وعاء صغير، ومع ذلك فالتنين هناك والأسود أيضاً. وتوجد هناك الوحوش السامة وكل كنوز الشر. ولكن الله أيضاً موجود هناك، والملائكة والحياة والملكوت، النور والرسل، والمدن السماوية وكنوز النعمة - كل هذه الأشياء هناك".
>
> **مقاريوس**

وتصر القصة المسيحية على أن التاريخ يتجه نحو حل. فكل شرارة جمال وهي ذات قيمة ومعنى جديد نختبره في هذا الوجود الغريب يسطع كأثر مقدس لعالم صالح مازال يحمل آثار خلقه الأصلي الأول. وكل ألم، وقلق، وقسوة، وظلم هو علامة من علامات السقوط والبعد عن الخطة التي رسمها الله. وكل إعلان للحب والعدل والسلام والمشاعر هي حركة نحو فداء هذا العالم واليوم الذي قال عنه الرسول بولس: "الخليقة كلها سوف تتحرر من عبوديتها وتتمتع بحرية مجد أولاد الله".



٣١ - سخرية الله

"يجب أن يُحرث الحقل، وينصهر الحديد، ويُشذب البستان، وتُذرى الحنطة، ويُغلق المجرى فوق الطاحونة. وربما يحدث نفس الشئ في حياة الإنسان. من الهزيمة تولد المحاولة والسعي العظيم، ومن الدموع يزداد التعلق بالهدف، ومن اليأس يولد الأمل. لماذا يسقط الإنسان إلا ليقف ثانية، ويموت لكي يحيا".

جورج ديل

نتعلم من رياضة تسلق الجبال استمرار تغير وجهة النظر وتدبر الأمور. في البداية يواجهني حائط ضخم من الجرانيت يرتفع آلاف الأقدام. وأشعر في البداية بأنني لن أستطيع تسلقه. ولكن عندما أقترب من الحائط أتمكن من رؤية ممر صغير وسط الصخر ومن خلاله أستطيع التسلق على هذه الصخرة التي كانت تبدو صعبة على التسلق. وكلما ازداد صعودي يختلف المنظر أسفل الصخرة.

فمن فوق يمكنني رؤية الأشجار تحيط ببحيرة جبال الألب، وكل من الغابة والبحيرة يحتضنهما الوادي المملوء بالبحيرات الأخرى التي تجري منها المياه لتغذي نهراً يجري في قناة بالقرب من منزلي على بعد عشرين ميلاً. وعندما أصل للقمة يمكنني رؤية المنظر العام بأكمله. وأي استنتاجات أتحدث عنها قبل وصولي للقمة ستكون خاطئة.

العالم جميل وحسن. العالم سقط. العالم يمكن فداؤه ورجوعه إلى الله. وإذا كان هذا التسلسل يصف قصة الكون، عندئذ يجب أن أنظر إلى العالم وإلى نفسي من خلال هذه الفكرة. والإيمان هو الذي ينمي فينا القدرة لقبول وجهة النظر هذه التي لن أتمكن من فهمها فهماً تاماً وكاملاً حتى أصل للقمة، بغض النظر عن كيفية رؤيتي للأشياء وأنا أواصل عملية التسلق. وهذا يعلمني أن أثق في أسلوب الله الغامض على هذا الكوكب، وبعلاقاتنا مع باقي المخلوقات يمكننا في يوم ما أن نفهم المعنى الصحيح الذي أراده الله.

يشبه الفيلسوف نيقولاس ريتشر إتصالنا مع الله كما لو أننا نتحدث في جهاز تليفون من النوع القديم. الأصوات غير واضحة والخط متقطع ولكننا نستمر في الصراخ "يامرحباً .. هل تسمعني .. هل أنت على الخط؟" وطبقاً لما يقوله الرسول بولس أن هذه الصعوبات في طريق معرفتنا لله هي مؤقتة "فإننا ننظر الآن في مرآه في لغز لكن حينئذ وجهاً لوجه. الآن أعرف بعض المعرفة ولكن حينئذ سأعرف كما عُرفت". وفي النهاية عندما يسترد الله الخليقة للحالة الأولى التي خلقها عليها فسوف يختفي أي فاصل بين المنظور وغير المنظور. إن هدف الله هو جمع العالمين معاً مرة أخرى ليصالحهما معاً.

من الأصحاح الأول في سفر التكوين وحتى الأصحاح الأخير في سفر الرؤيا يمكنني أن أتبين قوتين رئيسيتين تسريان في تاريخ هذا الكوكب. أولاً، يمسك الشر بكل ما هو خير ويفسده. فمنذ سقوط آدم نحن نعيش في عالم تسيطر عليه قوى شريرة، وهذا ما توضحه

كتب التاريخ والصحف اليومية. ولا يجب أن ننزعج من العنف والظلم لأننا موجودون في عصر يحكمه الشر.

وعلى النقيض من ذلك، يُطلق الله قوة لفداء ما أفسدته الخطية والشر. والآن اختار الله أن يمارس قوته من خلال الجنود المشاة وهم البشر الذين أخطأوا. وبسبب هذه الترتيبات والوسائل قد يبدو أحياناً أن الله سوف يخسر المعركة. وسوف نتمتع بالانتصار النهائي فقط عندما ينهي الله - بقوته ومجده - وللأبد سلطان الشر.

وأثق أن اليوم سيأتي عندما تتغلب قوة على الأخرى، ولقد كانت قيامة يسوع كوعد ساطع ومضئ لهذا اليوم. وحتى ذلك الوقت، فإنني أختبر هذه القوى المتصارعة كل يوم بل طوال اليوم. وهذه القوى تعمل سراً، ولا تُرى وأجد نفسي دائماً ممسوكاً من تلك القوتين الموجودتين في التاريخ، إحداهما تواجه الخير وتحاربه والأخرى تسعى لفداء ما أفسده الشر.

إنني أفكر في أسلوب الله "الساخر". إن التفسير الأكثر استقامة يجيب على كل مشكلة جديدة بحل فوري. امرأة تمرض والله يشفيها. رجل يُسجن ظلماً، والله يخرجه من السجن. ومع ذلك فالله نادراً ما يستخدم هذا الأسلوب. إن بولس يشكر الله من أجل "الشوكة التي في الجسد" لأنها السبب في تقدم عمل الله من خلاله، ويوسف يتذكر الصعوبات التي صادفها في حياته الماضية ويقول لإخوته القساة "أنتم قصدتم بي شراً ولكن الله قصد به خيراً". ومع أن يوسف لم ينكر الماضي الرهيب ولم يقلل من آثاره السيئة، ولكنه في النهاية يراه جزءاً من قصة ذات معنى خدمت أهدافاً عظيمة أكثر مما كان يتصوره في تلك الأيام. فقط عندما نصل إلى قمة الجبل يمكننا أن نتمتع بجمال المنظر ونفهم معناه.

لا يجب أن نندهش من أن الله صاحب السلطان قد يستخدم أشياء سيئة كمادة خام ليصنع منها خيراً. إن رمز إيماننا الذي

نضعه ختماً على الذهب ونلبسه على أعناقنا ونحفره على أحجار كنائسنا هو الصليب. إن الله لم ينقذ المسيح من على الصليب ولكن خلصنا نحن بموت المسيح على الصليب. وفي التجسد تتدفق قوة الله وتنقذ الخير من الشر. إن الله يغلب الشر بالخير، والكراهية بالحب والموت بالقيامة.

يقول فلانري أوكنور وهو من أفضل كتّاب القصة:

"إن كتّاب القصة يتحدثون دائماً ما الذي يُنجح القصة": "اكتشفت من خبرتي الخاصة في محاولة جعل القصة ناجحة هو حاجتها إلى عمل غير متوقع تماماً، ومع ذلك يمكن تصديقه، واكتشفت أنه حدث يوضح أن النعمة قد قُدمت. وكثيراً ما يكون حدث يكون فيه الشيطان أداة غير مرغوب فيها للنعمة. وليست هذه معلومة أضعها في قصص، ولكنه اكتشاف توصلت إليه عندما قرأتها. وعندما ينمو إيماني وثقتي تشارك حياتي الشخصية بنوع ما في قصة أكبر. إن قصتي تحتوي على تفاصيل أتأسف لكتابتها بل وقد أستاء منها: ألم في الطفولة، مرض، فقر، اختيارات خاطئة، علاقات تحطمت، فرص ضائعة، فشل واكتئاب. هل بإمكاني أن أثق أن الله بتدبير فدائه ومحبته يمكن أن يستخدم كل هذه في قصة حياتي كأدوات غير مرغوب فيها ليقدم لي النعمة من خلالها؟"

ويكتب تيلهارد دي شاردان بتفصيل عن نفس فكرة أوكنور الذي شبّه الله بالفنان قائلاً:

"مثل الفنان الذي يستطيع أن يستفيد من خطأ أو عيب في حجر ينحته، الله - بدون أن يعفينا من الموت الجسدي أو الموت الأبدي وهما جزء أساسي من حياتنا - يحولهما بربطهما بخطة أفضل (بشرط أن نثق فيه بكل حب). وليس فقط أمراضنا التي لم نستطع تجنبها بل أخطاؤنا، حتى التي تعمدنا فعلها يمكن أن يشملها هذا التغيير. فليس كل

شئ خير فوري للذين يعرفون الله، ولكن كل شئ ممكن أن يصبح ويتحول إلى خير للمؤمن".

وأنا طالب بالمدرسة الثانوية كنت أفتخر بمهارتي في لعب الشطرنج. والتحقت بنادي الشطرنج وأثناء فترة الغذاء كنت أقرأ كتباً عن الشطرنج. ودرست فنون اللعبة، وكنت أكسب معظم مبارياتي، ثم تركت اللعب لمدة عشرون عاماً. وفي شيكاغو التقيت بلاعب شطرنج كان يحاول أن يزيد من مهاراته منذ المدرسة الثانوية وحتى الآن. وعندما لعبنا معاً تعلمت وضع اللاعب عندما يلعب مع إنسان متفوق. فكلما استخدمت طريقة من طرقي القديمة معه كان يواجهني بنفس الأسلوب. حتى أخطائي كان يستفيد منها. ومع أني كنت أشعر بحرية في التحرك بحسب رغبتي أيقنت أن كل استراتيجياتي في اللعب لم تكن مهمة بالنسبة لي. وضمنت له مهارته المتفوقة أن كل محاولاتي كانت تنتهي لصالحه.

ربما يتعامل الله مع هذا الكون، وهو خليقته، بنفس الطريقة. فيمنحنا الحرية لكي نثور ضد خطته الأصلية التي وضعها، ومع ذلك ونحن نفعل هذا فالأمر ينتهي بخدمة هدفه لاستعادة البشرية. فإذا قبلت هذا المخطط - وأعترف أنها خطوة كبيرة للإيمان - فسوف يغيّر ذلك نظرتي لكل من الخير والشر الذي يحدث. فالأشياء الخيرة مثل الصحة، الموهبة، والمال يمكن أن أستخدمها لخدمة الله. والأشياء غير الطيبة - مثل العجز والفقر والعائلة غير الموفقة والفشل - يمكن افتداؤها وتغييرها إلى وسائل تقودني إلى الله. وكتب الرسول بولس من السجن "تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه". ومن الطبيعي أنه كان يفضل التعزية على الحزن والصحة على الضعف (صلاته لكي يرفع الرب عنه شوكة الجسد تُثبت ذلك)، ولكن بولس كانت لديه الثقة في أن الله يمكنه أن يستخدم هذه الظروف سواء طيبة أو سيئة لكي يحقق إرادته.

ومرة أخرى - وقد يتهمني الشخص الذي ينزع إلى الشك بأنني أبرر أمراً خاطئاً - أناقش وأجادل الماضي لكي يناسب الدليل

استنتاجاً سابقاً. نعم وهذا ما أفعله تماماً. فالمؤمن يبدأ بالخاتمة والتي تقول بأن الله الصالح سوف يسترد خليقته لخطته الأصلية ويرى التاريخ سائراً في هذا الاتجاه. وعندما يلعب الإنسان المتفوق في الشطرنج مع شخص هاوٍ، فسوف ينتصر بكل تأكيد مهما حدث على لوحة اللعب في أي وقت.



ويعلن الكتاب المقدس نفسه الاستخدام الساخر من الله للأحداث السيئة لخدمة النتيجة التي يرغبها. فمثلاً، يسجل ثلاثة أرباع الكتاب الفشل المذهل لعهد الله مع بني إسرائيل. وفي نهاية العهد القديم يتبدد حلم توصيل النور للأمم عندما تقضي جيوش الأمم على الإناء المختار لتوصيل هذا النور. ومع ذلك فعندما تذكر بولس تاريخ الشعب القديم رأى تقدماً كبيراً. فعندما رفض الشعب المختار توصيل الرسالة، قامت الكنيسة بهذا الدور، وأطلق رفضهم الإنجيل حراً لينتشر عبر كل العالم.

واستخدم بولس ما هو متاح- خير كان أو شر- لتقديم الخدمة وتحقيق الرسالة. فعبر الطرق الرومانية التي بناها القياصرة لتسهيل حكمهم على رعاياهم، حمل بولس رسالة محبة الله عبر كل الإمبراطورية. كما لجأ للعدالة الرومانية طلباً للحماية في الأوقات الصعبة. وحتى عندما مات بولس - ومعظم التلاميذ - ويسوع نفسه بين يدي هذه "العدالة" ساد هذا النموذج الساخر الذي استخدمه الله. وحقق صلب المسيح وموته الخلاص للعالم، وكما وعدهم "سيتحول حزنكم إلى فرح". وفي تلك الأثناء، عجّل موت الشهداء بنمو الكنيسة. وكما قال المؤرخ ترتليان: "إن دماء المؤمنين الشهداء هي بذور المسيحية". ومنذ ذلك الوقت - بكل سخرية - قادت المحاولات للقضاء على الإيمان إلى تقدمه العظيم.

إن سخرية الله تساعد على توضيح التناقض العميق في الإيمان المسيحي. فتقدم التطويبات المعاناة والفقر كأمور حسنة: إذ قال

الرب يسوع طوبى للفقراء والمضطهدين والحزانى. وفي ذات الوقت يشجعنا لمساعدة الفقراء، ومحاربة الظلم وتخفيف المعاناة. ألا تخدم هذه الأمثال والحكم أهدافاً متعارضة؟ إذا كان الكتاب يطوّب الفقراء والمضطهدين فلماذا لا تحاول الكنيسة زيادة الفقر والألم؟

إن تتابع الصلاح والسقوط والفداء هو فقط الذي يوضح هذا التناقض. وإذ أعطانا الله عالماً حسناً، فهو يريدنا أن نستمتع بثماره. "إله كل تعزية" يريدنا أن نكون مستريحين بكل معنى الكلمة. ولكن لأننا نعيش في عالم ساقط مملوء بالشر والظلم فسوف يعاني الكثير من الناس من ظروف الفقر والمعاناة. وبإمكان الله أن يستخدم مثل هذه الظروف لتحقيق أغراضه، مستخرجاً الصالح من الشرير. وكما قالت الأم تريزا، إن الدول الفقيرة هي غالباً غنية روحياً والدول الغنية فقيرة روحياً. وقد اختارت هي ومن معها من مرسلات عمل الخير أسلوب الفداء إذ قبلوا تطوعاً المصاعب الشخصية لكي يريحوا الآخرين.

وفي معجزة من معجزات النعمة، يمكن أن يتحول فشلنا الشخصي إلى أداة في يدي الله. وقد اكتشف الكثيرون أن استمرار التجربة - حتى وإن كان الإدمان - هو نفس الجرح الذي يدفعهم للعودة في يأس إلى الله، ليبدأوا حياة جديدة. وفي هذا الصدد قال بول ترونر:

> "إن أجمل ما في هذا العالم ليس هو الأمور الحسنة التي نحققها، ولكن الحقيقة بأن الخير يخرج من الشر الذي فعلناه. وقد قابلت الكثيرين من الذين عادوا إلى الله بسبب التأثير الطيب للذين هم قد أساءوا إليهم قبلاً. إن عملنا هو بناء الخير من الشر. لأننا إذا حاولنا أن نبني خيراً من خير فنحن في خطر فقدان المادة الخام لعملنا".

وبالرغم من أن ترونر يفضل أن الناس لا يرتكبوا الشر أساساً، فإن هذا أمر يصعب الوصول إليه في هذا العالم الشرير. وهنا، يصلح استخدام الأسلوب الساخر إذا أن هذا سيوفر لنا مادة خاماً للعمل والخدمة.



واصلت التساؤل لفترة طويلة لسؤالي القديم: "لماذا تحدث أمور غير طيبة حتى للناس الصالحين؟ لأن هذه القضية تسبب نوعاً من الارتباك، وربما إحساس بالخيانة، في علاقتنا مع الله. كيف يمكننا أن نثق في إله محب يسمح لنا بمثل هذه الأمور السيئة؟ هل الأمور المرعبة التي تحدث على الأرض هي إرادة الله؟ لماذا يستخدم الله مثل هذا الأسلوب "الساخر"، ولماذا لا يوقف كل هذه المآسي.

ويضع المطران البريطاني ليسلي ويذرهيد تمييزاً لهذه العبارة "إرادة الله" فيقول "يتضمن تفاعل الله المهيمن على خليقة حرة ثلاثة أنواع من "الإرادة". أولاً، إرادة الله المقصودة: نحن نعلم ما يقصده الله، ففي الفصلين الأولين من سفر التكوين يخلق الله عالماً حسناً وكاملاً، كما أن سفر الرؤيا ينتهي بنفس المنظر. وبذلك يقصد الله للإنسان أن يكون صحيحاً ويعيش مع الآخرين في ظروف طيبة ومزدهرة. وأي شئ آخر - الفقر والمرض والكراهية والألم والعنف والجوع - هي ضد إرادة الله التي يقصدها لخليقته.

ومع ذلك فالسقوط غيّر قوانين هذا الكوكب. وفي يقظة انتصار حاسم لقوى الشر، ظهرت شرور كثيرة على الأرض. وعندئذ كان يجب أن يكون لله "إرادة عرضية" (مستمدة من الظروف) تتوائم مع الشر الذي حدث على الأرض. ولأن الأمور الحسنة التي عملها الله في الأصل قد فسدت، كان عليه أن يستخرج الخير من الشر. وعوامل كثيرة تحاول هزيمة خطة الله الأصلية، وقد سبب له هذا الكثير من الحزن. هل "إرادة" الله ليوسف ودانيال وإرميا وبولس وآخرين أن يعذبوا في السجن؟ كلا بكل تأكيد فهذا لم يكن في قصد إرادته. ورغم ذلك فالظروف الشريرة مثل حسد إخوة يوسف والقهر السياسي، وتهديدات القادة الدينيين سبّب لكل منهم أن يقضوا فترة في السجن.

وبالرغم من ذلك - ولثقة كل هؤلاء في الرب - فإن خطة الله نفذت

بالرغم من الظروف الشريرة، وإن كانت بطرق مختلفة للغاية. فانتصر يوسف وأصبح ثاني رجل في مصر، واختبر دانيال تحريراً غير عادي، وترك لنا إرميا شهادة دائمة "كالنبي الباكي" وكتب لنا بولس الكثير من لاهوته خلف الأسوار. ويدعو ويذرهيد هذا النموذج الأخير "بإرادة الله العليا". إلى أولئك الذين يثقون فيه، يعد الله أن يستخدم أية ظروف لكي يخدم إرادته العليا والأساسية.

الفيلسوف المسيحي نيقولاس ولترستروف، الذي فقد ابنه إريك في حادث تسلق للجبال، حاول أن يفهم إرادة الله كشئ مخطط: "كيف يمكننا أن نحتفظ بالشعاع في حين أننا نناضل ضد من جلبه؟ وتساءل في كتابه "رثاء ابن" كيف أتقبل معاناتي كنوع من البركة بينما أرفض الفكر السيئ الذي يقول بأن الله يهز الجبل لكي أكون في حال أفضل؟" وملأ كتابه بأسئلة أكثر من الإجابات، وتضمن وجهة نظرنا المحدودة بأنه ستكون لدينا دائماً الكثير من الأسئلة غير المجابة. وقد وجد ولترستروف مساحة ضيقة من الثقة عندما أدرك أن "الله لكي يخلصنا من انسحاقنا وشعورنا بعدم محبته لنا وهو يعاني معنا لم يضربنا بل أرسل ابنه الحبيب لكي يعاني مثلنا ويخلصنا بمعاناته تلك من المعاناة والخطية. وبدلاً من أن يوضح لنا سبب معاناتنا شاركنا الله فيها". وحقق الله في ابنه الانتصار العظيم لأسلوبه الساخر في الفداء.

وفي الصورة التي ذكرتها سابقاً عن تسلق الجبال، اقترح ليسلي ويذرهيد أن تصور مجرى ماء يجري أسفل الجبل. وبإمكاننا أن نوقف جريان الماء نحو الوادي، ولكن بصورة مؤقتة فقط. فقانون الجاذبية يقول بأن الماء الذي يأتي من أعلى سوف يشق طريقه لأسفل. وبالمثل، فإن إرادة الله العليا لا يمكن اعتراضها أو مقاومتها. ومع أن التاريخ الإنساني بكل شروره قد يمثل عقبات كثيرة في الطريق، ففي النهاية سوف نتغلب عليها. وسوف يسترد الله عائلته ويعيدها إلى حالتها الأصلية.

وقد يسمح الله لنا ونحن على كوكب الأرض بأن نصاب بأذى.

مباني تنهار، تحدث زلازل، تنتشر الفيروسات، يلجأ الأشرار للعنف. ومما نعلمه عن شخصية الله، فلا شئ من تلك الأمور تعكس إرادته وقصده. ولا تعكس إرادته العليا من نحونا. وفي ذات الوقت فإن الفترة التي نقضيها على الأرض سوف تحدث أموراً سيئة لا يمكن تجنبها.

وفي الخليقة يعمل الله من خلال المادة. أما في الفداء فهو يعمل من خلالنا. وعند مواجهة المآسي يمكنني الاستجابة إما بالشكوى والتذمر والبعد عن الله أو بالرجوع إليه، واثقاً في قدرته أن يحول آلامنا إلى أفراح. واختيار واحد يركز على الماضي ويغلق المستقبل. أما الاختيار الثاني فيفتح المستقبل، ويسمح للفنان الأعظم بأن يستخدم الأحداث كمادة خام يصنع منها قصة جديدة تختلف تماماً عما كانت عليه وينتزع منها الألم والفشل بل ستكون أكثر غنى من سابقتها.

> "إن حياتنا فترة قصيرة نقضيها في التوقع، فترة يلتقي فيها الحزن والفرح في كل لحظة. فهناك الحزن الذي قد يغطي كل لحظات حياتنا. ويبدو لنا أنه لا يوجد ما يسمى بالفرح في هذه الحياة، ولكن حتى في أسعد لحظات وجودنا ينتابنا شعور بالحزن. وفي كل تعزية هناك شعور بالمحدودية. وفي كل نجاح، هناك خوف من الحسد. وخلف كل ابتسامة هناك دمعة. ووسط الشعور بالألفة قد نشعر بالعزلة والوحدة. وفي الصداقة قد نشعر ببعد المسافة. ووسط النور قد نشعر بالظلمة. ولكن في هذا الاختبار الوثيق الذي نشعر فيه بأن في الحياة يوجد أيضاً الموت قد ينقلنا وراء حدود وجودنا. ويحدث هذا عندما ننظر بتوقع إلى اليوم الذي فيه تمتلئ قلوبنا بالفرح الكامل، فرح لا يمكن لأحد أن ينتزعه منا.
>
> **هنري نووين**

٢٢ - زواج مُعَدّ

"في كل شئ يستحق أن تمتلكه، وفي كل فرحة تشعر بها يوجد نوع من الألم والضجر، لكي يثبت وينتعش هذا الفرح. وفرح المعركة يأتي بعد الخوف الأول من الموت، ومتعة قراءة فيرجيل Virgil لا تأتي إلا بعد معاناة تعلّم أفكاره وأسلوبه، ونجاح الزواج يأتي بعد فشل شهر العسل".

ج. ك. تشسترتون



لو استمعت إلى أي محطة إذاعية تذيع الموسيقى الشعبية المشهورة أو شاهدت قناة تليفزيونية للموسيقى تجد في كل أغنية موضوعاً عن الحب الرومانسي. وهل يوجد أي مسلسل تليفزيوني بدون أن يكون الحب الرومانسي جزءاً أساسياً في فكرته الرئيسية؟ والعبارات التي نسمعها مثل "أمسكي رجلاً" أو "اصطد إمرأة" تصف المبدأ الأساسي للحياة والحب .. إلى أن نسافر إلى أجزاء أخرى من العالم. ومن الملاحظ أن معظم حالات الزواج في العالم تجمع بين رجال ونساء لم يشعروا إطلاقاً بمتاعب الحب الرومانسي

وقد لا يدركونه إذا طرق باب قلوبهم. والمراهقون في أفريقيا وآسيا يستسلمون لاختيار والديهم لزوجاتهم تماماً كما نسلم نحن للحب الرومانسي.

شرح لي زوجان من الهند تزوجا حديثاً كيف حدث زواجهما وهما يدعيان مارثا، و فيجاي لقد قام والدي فيجاي بفحص كل بنات القرية قبل أن يقررا زواج ابنهما من مارثا. كان فيجاي يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً أما مارثا فكانت في الثالثة عشر من عمرها ومع أن العروسين التقيا مرة واحدة، فقد اتفقا والديهما على زواجهما منذ ثمانية سنوات. وعندئذٍ أبلغا كل من الولد والبنت بمن سيتزوج ومتى. وخلال الثماني سنوات التالية سُمح لهما بتبادل خطاب واحد بينهما كل شهر ويشاهدا بعضهما بحضور مرافق. وبالرغم من أنهما في بداية الزواج كانا يشعران كما لو أنهما غرباء، فقد بدا زواجهما آمناً ومتسماً بالحب مثل أي زواج آخر.

وفي الحقيقة، إن المجتمعات التي تمارس الزواج المنظم والمرتب سابقاً فيما بينهم يوجد بها نسبة طلاق أقل من التي تؤكد على زواج المراهقين المحبين. وإنني أشك في أن الغرب سوف يتخلى عن فكرة الحب الرومانسي حتى وإن كان لا يساعد على إقامة الاستقرار العائلي. ولكن من خلال مناقشاتي مع مؤمنين من ثقافات مختلفة بدأت أقتنع بأن الزواج المرتب والمنظم قد يكون عاملاً مساعداً في إقامة علاقة مع الله.

وفي كل من الولايات المتحدة والثقافات الأخرى التي تتبع الأسلوب الغربي في الحياة، يميل الناس للزواج لما في الطرف الآخر من صفات جذابة مثل: الابتسامة المشرقة، الذكاء، الجمال، القدرات الرياضية، الجاذبية. وقد تتغير تلك الصفات بمرور الزمن وخاصة عند تقدم العمر. وفي أثناء ذلك قد تظهر على السطح أمور تثير الدهشة - عدم العناية بالبيت، فترات من الاكتئاب، عدم توافق جنسي - وقد تقضي على الحب الرومانسي. وعلى النقيض من ذلك، فالزوجان اللذان تزوجا زواجاً منظماً مرتباً لا يركزان علاقتهما

على الجاذبية المتبادلة. فبعد قرار الوالدين، أنت تقبل بأنك ستعيش لعدة سنوات مع شخص تعرفه معرفة محدودة وضعيفة. ويتحول السؤال المهيمن من "من الذي يجب أن أتزوجه؟" إلى "بعد أن عينوا لي هذا الشريك، أي نوع من الزواج يمكننا أن نبنيه معاً؟".

ويمكن تطبيق نموذج مماثل في علاقتنا مع الله. فلا يمكنني أن أتحكم في صفات الله مثل كونه غير منظور. فالله له شخصيته وصفاته الخاصة به سواء أحببتها أم لا. وليس لدي أي اختيار في ملامحي أنا أيضاً: ملامح الوجه، الشعر المجعّد، إعاقتي أو محدودية إمكانياتي، عناصر شخصيتي، خلفية الأسرة التي نشأت فيها. وطبقاً للأسلوب الغربي في التعامل يمكنني أن أرفض هذه الصفة أو تلك التي لله وأتمنى أن يدير العالم بطريقة مختلفة. ويمكنني أن أطلب أن يغير الله ظروفي قبل أن أثق في وضع حياتي بين يديه. كما يمكنني اتباع أسلوب آخر. فبإمكاني أن أقبل الله بكل تواضع كما أظهر نفسه في المسيح وأقبل نفسي، أنا المملوء بالخطية، كالشخص الذي اختاره الله. فأنا لا أدخل في علاقة مع الله ومعي قائمة بالطلبات التي يجب أن تستجاب قبل أن أعزم بأن أعيش معه؛ وكما يحدث في الزواج المرتب فأنا ألتزم مسبقاً بالعيش مع الله بالرغم من كل ما يحدث.

إن الإيمان يعني أن نأخذ عهداً بأن نحب الله ونتعلق به مهما حدث "في الصحة أو المرض، في الفقر أو الغنى ..." وبالطبع فإن هذا يتضمن نوعاً من المغامرة، فقد اكتشفت أن ما يطلبه الله مني يتعارض مع رغباتي الذاتية. ولحسن الحظ، فإن الزواج المرتب يعمل بطريقتين: إن الله أيضاً يلتزم مسبقاً برعايته لي، يعدني بحياة أبدية ستفتدي ظروفي التي أناضل فيها. إن الله لا يقبلني بشروط، على أساس ما أقدمه، ولكنه يمنحني محبته وغفرانه مجاناً، بالرغم من أخطائي التي لا تُعد.

بعض الناس يتوقعون أن حياتهم مع الله سوف تحل كل مشاكلهم ويختارون الله كما يختار الشخص شريكه في الزواج على أساس

رومانسي ويبحثون عن نتائج يرغبون فيها. كما يتوقعون من الله أن يمنحهم أشياء طيبة، ويقدمون عشورهم لأنهم يعتقدون بأنهم سيتلقون عشرة أضعاف، ويحاولون أن يعيشوا باستقامة آملين أن الله سوف يجعل حياتهم حياة مزدهرة. وبغض النظر عن المشكلة - البطالة، طفل متخلف، زواج منهار، ساق مبتورة، وجه قبيح - يتوقعون تدخل الله نيابة عنهم بإيجاد وظيفة، علاج مشاكل الزواج، شفاء الطفل المتخلف والساق التي ستبتر والوجه القبيح. وكما نعرف كلنا، فإن الحياة لا تسير دائماً بحسب رغباتنا أو بهدوء. وفي الحقيقة في بعض البلدان يعتقد الناس أنهم إذا آمنوا بالرب فسوف يضمن لهم هذا حياة ضد البطالة والمشاكل العائلية، والكراهية من المجتمع وحتى السجن.

كل زواج لابد وأن يعاني من أزمات، فقد تأتي لحظات يشعر فيها الشريكان بالحاجة للانفصال. ويقول قدامى المتزوجين أنهم في أثناء تلك الفترات راجعوا العلاقة بينهما من جميع جوانبها. والآن، مع أنهم يستعيدون هذه القصص بنوع من المزاح والشوق للماضي، يشعرون أن الأزمات وبتعاونهم معاً تحولت إلى نموذج من الحب والثقة. وعندما يفكرون في فترات الوفاق القليلة الماضية بينهما يتضح لهما أن تجاوبهما معاً هو الذي أعطاهما الغلبة على هذه العواصف ومنحهما القوة على الاحتمال والثبات. وكذلك علاقتنا مع الله تحدث بطريقة مشابهة.

وأخذ الرسول بولس روح هذا الزواج المنظم إلى أقصى مدى حتى أنه يعتبر خبيراً في علم الأمراض (الباثولوجي) بحسب التعبير الحديث. فيقول لأهل فيلبي أنه فرح في سجنه لأن السلاسل التي قُيد بها ساعدت على تقدم الإنجيل. وفي رسالته لأهل كورنثوس كان يفتخر بضعفاته والصعوبات التي واجهها. وذكر الجلد والرجم والسفينة التي تحطمت والكوارث الطبيعية الأخرى، الجوع والعطش وآلام الجسد والصلاة غير المستجابة. "إن كنت أفتخر فسأفتخر بضعفاتي. ومن أجل المسيح أسر بالضعفات والإهانات والصعوبات والاضطهادات. لأنه بينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي".

وأقرأ هذه الكلمات ثم أتساءل وسط كتبي المسيحية التي أقرأ فيها عن كيفية إنقاذ زواجي، وكيف أرى الأولاد في مخافة الله، وكيف أختبر بركات الله، وكيف أقاوم التجربة، وكيف أجد السعادة. وكل سنة تظهر مثل هذه الكتب وتزداد الحاجة إليها. وإذا كان أي كتاب بإمكانه حقيقة أن ينقذ زواجاً من الانهيار، فإن معدلات الطلاق كان يجب أن تقل بين المؤمنين الذين يشترون هذه الكتب، وكم أود أن ألاحظ هذا يحدث. وبالمثل، فتتطلب علاقتنا مع الله شيئاً أكثر من مجرد محاولة لحل المشكلة.

وتقترح دوروثي ساير طريقة أخرى لرؤية مشاركة الله معنا. وهي تشير إلى وجه الشبه مع الفنان الذي "لا يرى الحياة على أنها مشكلة تحتاج إلى حل ولكنها وسيلة للإبداع" وتقول ساير: ربما استخدمنا الله بشئ من الحرية كالفنان، ويسمح لنا أن نعمل بمختلف المواد. فالنحات يعمل بالصلصال أو المعدن ولكنه لا يستخدم الألوان كثيراً، أما الرسام فيعمل بالكثير من الألوان. ومع أن هذه المواد الخام المستخدمة للإبداع لها محدودية معينة، فالفنان الماهر يمكنه أن يصنع بها عملاً فنياً رائعاً.

وكأفراد، فكل منا يبدأ بوسيلة مختلفة. البعض منا قبيح والبعض جميل والبعض ذكي والبعض غبي والبعض الآخر جذاب وآخرون يشعرون بالخجل. وقد نقضي حياتنا كلها في حالة كراهية لله بسبب عيب خلقي أو تشوه في الوجه أو الأسرة التي نشئنا فيها. وقد نطلب من الله أن يحل هذه المشاكل نيابة عنا (كيف يمكن أن يحدث هذا .. بتغيير الجينات الوراثية أو بإعادة اختراع أسرة خاصة لنا). ومع ذلك فإن نفس هذه الخامات التي توّلد الكراهية لله لدى بعض الناس، قد تكون هي نفسها المكونات التي يستخدمها لكي يشكلنا بالطريقة التي يراها حسنة بالنسبة لنا.

وفي الحقيقة يحتاج الإنسان لمشاكل أكثر من الحلول. فالمشاكل

تقربنا أكثر إلى الله لكي نعتمد عليه. ويكرر الكتاب المقدس القول بأن النجاح يمثل خطراً عظيماً. فشمشون وشاول وسليمان وعشرات غيرهم يوضحوا لنا أن النجاح يقود إلى الكبرياء والغرور، وهو الطريق إلى الاستقلال عن الله وغالباً ما يكون المقدمة للسقوط.

إن الله لم يعد بأن يحل كل مشاكلنا وعلى الأقل ليس بالصورة التي نراها نحن. (ولا أجد شخصية واحدة في الكتاب لم تعان من مشاكل). إن الله يدعونا أن نثق فيه ونطيعه، سواء عشنا حياتنا في بركة ونجاح - مثل بعض المؤمنين - أو نقضي أيامنا في معسكرات اعتقال. وما يهم الله في هذا الأمر هو ما نصنعه بهذه المواد التي بين أيدينا.

وفي الحقيقة كانت حياة دوروثي تسير طبقاً لهذا المبدأ التي تحدثت عنه. كانت تتمتع بذكاء خارق ولكنها لم تكن جميلة. والرجل الذي أحبته في شبابها لم يبادلها هذا الحب. وفي توترها وغضبها - وهي العالمة المتخرجة من جامعة أكسفورد - لجأت إلى ميكانيكي غير متعلم والذي جذبها معه إلى الخمر والتدخين والرقص والجنس. ومع أنه اصطحبها كشريك في حفل لفترة وجيزة، فلم تكن لديه الرغبة في الزواج منها. وتركها ومعها طفل منه، وهي الآن تشعر بثقل المسئولية وفضيحة طفل غير شرعي. وأخيراً تزوجت برجل مطلّق عجوز وكان يصعب عليها أن تبادله الحب.

ولكن ساير استفادت من خبرات الفشل والذل والخطية والأخطاء هذه وعادت إلى الله. والذين يقرأون كتبها اليوم يستفيدون كثيراً مما شكلته من المواد الخام في حياتها الصعبة. قد تكون مشكلاتها لم تحل بالطريقة التي أرادتها، ولكن من هذه المواد خلقت عملاً فنياً رائعاً.

ووسط هذا العمل الشاق لدينا نموذج الرب يسوع نفسه الذي - عندما جاء لأرضنا - كان بإمكانه أن يختار أية مجموعة من "المواد الخام" ولكنه أصر على اختيار الفقر، والعار العائلي، والمعاناة والرفض. وهو لم يستثن نفسه من مضايقات هذه الحياة

على هذا الكوكب، كما لو أنه يريد أن يثبت أنه ولا واحدة من هذه الظروف لا توجد في علاقة صحيحة مع الآب. وربما نقول: "إن المسيح هو النموذج" وليس "يسوع هو الإجابة" لأن حياة يسوع لم تقدم الإجابات التي يبحث عنها معظم الناس. ولا مرة واحدة استخدم يسوع القوى غير الطبيعية لكي يحسّن من وضع عائلة، أو يحمي نفسه من الضرر، أو يزيد من راحته وثروته.



أعرف عائلة ازدادت مشغوليتها بسبب الآثار السيئة للمدرسة الثانوية على ابنتهم. وبعد الصلاة من أجل هذا الأمر وطلب مشورة الآخرين، نقلوها من هذه المدرسة السيئة إلى مدرسة أخرى، وهناك في السنة التالية قُتلت وماتت. وأعرف رجلاً في نفس عمري والذي وثق أن الله حقق أحلامه، وأصبح مديراً لأحد المعاهد ووضع خططاً للنهوض بهذا المعهد حتى أصابه ورم في المخ ومات في ظرف سنة واحدة. وأعرف امرأة اختبرت كأم قصة الابن الضال التي حكاها يسوع واحتفلت بعودة ابنتها من هوة السقوط في المخدرات والدعارة، ولكنها فوجئت بهروب ابنتها ثانية لتعود للكورة البعيدة.

كيف يمكننا أن نستوعب ما يحدث في الحياة ونفهم مثل هذه القصص؟ فلا تستطيع أية معادلة لحل المشاكل أن تفسر لنا ما يحدث. كما لم تستطع أية معادلة أن تفسر لنا ما تعرض له بولس وبطرس والمسيح نفسه. إن الحياة ليست مشكلة لكي تُحل ولكنها عمل يُنجز، وهذا العمل قد يستخدم الكثير من المواد الخام التي نفضل نحن العمل بدونها. إن صلاح الله معنا لا يعني أنه لن يصيبنا أي أذى وعلى الأقل ليس في هذا العالم الساقط. وصلاحه أعمق من السرور أو الألم ولكن يشمل كليهما.

وعندما كتب الرسول بولس قائلاً: "كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله" ذكر في نفس هذه الفقرة بعض هذه الأشياء

التي استخدمها الله في حياته: المتاعب، المصاعب، الاضطهاد، الجوع، العري، الخطر، السيف. وفي الثلاث عائلات التي ذكرتها سابقاً يمكنني أن أرى استمرار عمل الله الفدائي. ولا عائلة منها كانت ستختار ما حدث ولا يلومون الله بسبب هذه المآسي، ومع ذلك فالجميع يتفق على أن الله يفعل الصلاح في حياتهم من خلال الأمور المحزنة التي حدثت لهم.

فلانري أوكنور التي عانت من مرض الذئبة وماتت في عمر التاسعة والثلاثين كتبت لصديقة ما يلي: "ما من مكان ذهبت إليه إلا وكنت مريضة" وفي نفس الخطاب تحدثت عن المعلمين غير المدعوين اللذين جاءا إلى حياتها المتأخرة وهما: المرض والنجاح. "المرض هو مكان تعلمت فيه أكثر مما كنت سأتعلمه من رحلة إلى أوروبا". ثم كتبت جملة أثارت الخوف في أولئك الذين يعرفون قدر معاناتها: "إن المرض قبل الموت هو شئ مناسب للغاية وأعتقد أن أولئك الذين لا يصابون بالمرض قبل وفاتهم يفقدون إحدى مراحم الرب علينا". وعلى النقيض من ذلك اعتبرت النجاح أمراً سلبياً تماماً إنه يعزل صاحبه ويولد الغرور ويُبعد الشخص عن العمل الحقيقي الذي كان سبباً في هذا النجاح.

وبمقارنة ما حدث مع فلانري بما حدث معي فقد عانيت بعض الشئ. ألم شعرت به في طفولتي آذى روحي أكثر مما آذى جسدي: ألم بسبب وفاه والدي مشلولاً والفقر الذي تبع ذلك، معاناتي من بعض الكنائس، العار، العزلة، والشعور بالنقص الذي عانيت منه في فترة المراهقة. والآن مازلت أقابل بعض المراهقين الذين يذكرونني بحالتي السابقة: الخجل، عدم الكفاءة الاجتماعية، ضعف جسماني. إنهم يعيشون في عالم يمجد الجمال والرياضة والثقة. وإذا حدث مرة وصلوا فهم يصلون لله لكي يغيرهم ليصبحوا مثل أبطال السينما أو الرياضيين. وليس مهماً مدى حماسهم لاستجابة الصلاة بحسب رغباتهم.

لو أنهم تمكنوا من أن يروا كيف أن الله يرى العالم بطريقة مختلفة.

ونحن نعلم من هم أولئك الذي أحبهم يسوع وفضلهم على آخرين: جباة الضرائب، سيدات سيئات السمعة، البرص، المرفوضين، الصيادين. وبولس أيضاً قال: "ليس كثيرون حكماء حسب الجسد، ليس كثيرون أقوياء، ليس كثيرون شرفاء. بل اختار الله جهال العالم ليخزي الحكماء واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه". (١كو ١: ٢٦ - ٢٩).

إن الله لم يدعُنا لنزيل كل الأشياء السيئة من العالم بل أن نفتدي الشر ونحوله إلى خير.

قالت الشاعرة كاثلين نوريس بعد أن فكرت في آلام طفولتها وخاصة تلك التي جاءت من ميراثها الديني: "لكي نغير ميراثاً مؤلماً إلى شئ صالح فهذا أمر يحتاج إلى كل الحكمة والفطنة التي لدينا أو من مرشدين آخرين. فكل اللعنات التي يصبها الناس علينا والشتائم والرعب الذي يسببونه لنا لا يمكن أن يُنسى، ولكن يمكن أن نحسن استخدامه في حياتنا الجديدة مع الله". فكثير من الأمور التي نعاني منها اليوم سوف نظل نعاني منها غداً وبعد غد. وبعض الآلام لن تنتهي. والجراح لن تندمل تماماً، والمشكلة لن تجد حلاً نهائياً. وبدلاً من ذلك سوف يقدم لنا الله رجاء حقيقياً قادراً على شفاء جروحنا.

إن أولئك الذين يحاولون استخدام الله كوسيلة لتحقيق مآربهم سوف يصابوا بخيبة الأمل. ففي ذهن الله أمر آخر غير ذلك: إنه سوف يستخدمنا نحن، نحن أوعية نعمته، ليحقق بنا أهدافه على الأرض.



الكاتب التشيكي المولد الذي يدعى ميلان كوندرا كتب مرة أنه اعترض دائماً على ما قاله جوته Goeth "إن الحياة يجب أن تمثل عملاً فنياً". وبدلاً من ذلك، تساءل كوندرا ما إذا كان الفن قد

ظهر لأن الحياة كانت عديمة الشكل ولا يمكن التنبوء بها، ولهذا فالفن ينشئ ويترجم ما تحتاجه الحياة. ولكنه وضع استثناء في حالة صديقه فاسلاف هافل الذي بدأ ككاتب مثل كوندرا واستمر حتى أصبح رئيساً لجمهورية التشيك وأصبح واحداً من أقوى الأصوات في عصرنا. ومن وجهة نظر كوندرا أظهرت حياته الفكرة الرئيسية للوحدة والتقدم التدريجي والمتواصل نحو الهدف.

وبعد قراءتي كتباً لكلا الكاتبين، أتساءل ما إذا كان الاختلاف موجود في وجهة نظرهما الأساسية. فبالنسبة إلى كوندرا - كما كان بالنسبة للمفكرين ما قبل الحداثة - ليس للحياة تركيبة ذات معنى لكي نوضح من أين أتت وإلى أين تذهب. أما بالنسبة إلى هافل فللحياة معنى. إنه يرثي حال العالم ويقول: "لقد ازداد اقتناعي بأن أزمة حاجتنا العالمية الماسة للمسئولية هي في المبدأ وهذا يُعزي إلى حقيقة أننا فقدنا روح التأكد من أن الكون والطبيعة والوجود وحياتنا هي من عمل الخليقة التي يرشدها هدف محدد وأن لها معنى محدداً وتتبع غرضاً محدداً".

إن المؤمن - ولم يصف هافل نفسه على أنه مؤمن - لا يرى الحياة ككل بل الحياة الفردية لكل شخص كعمل فني رائع. إننا نشارك الله في تشكيل شئ جميل من المادة الخام. إننا نكتب قصة قصيرة بحياتنا وهي جزء من قصة كبيرة نحن نعرف كل تفاصيلها. وكل من القصة القصيرة والطويلة لها بداية ونهاية وهدف وأحداث تقاومها كما أن لها نتائج لا يمكن تجنبها وأحداث غير متوقعة قد تعترضها. وفي النهاية يجمع كاتب القصة كل هذه التفاصيل في خط قصصي واحد يحقق هدفاً مرضياً.

ويقول قول قديم في التلمود: "ليس من حقك أن تُنهي هذا العمل (الحياة)، كما أنك لست حراً في الاستمرار فيه". إن العمل هو عمل الله، وإصلاح وافتداء هذا الكوكب قد تعرض لتدمير شديد. وبالنسبة لكل من اليهود والمسيحيين فالعمل هنا يحتاج إلى لمسة سلام وعدالة وأمل وشفاء حيثما تمتد أيدينا. وبالنسبة للمؤمن فإنه

يفعل هذا كمن يتبع المسيح الذي أعد لنا فداء ما كان باستطاعتنا الحصول عليه بمفردنا.

في كاتدرائية ونشستر في انجلترا توجد نافذة زجاجية فريدة في شكلها. إنها لا تحكي قصة كتابية ولا تذكرنا بقديس والقطع الزجاجية لها مشهد متغير الألوان كما لو كان تصميماً حديثاً مدهشاً. وهذه النافذة هي أثر مقدس من فترة تاريخية اتسمت بالعنف عندما استخدمت فرق من جيش أوليفر كرومل قضباناً حديدية لتحطم نوافذ الكاتدرائية وتماثيلها. وتركت هذه الفرق العسكرية بقايا الزجاج على الأرض، وقام أهل المدينة بجمع بقايا الزجاج ووضعوه في مخزن حتى انتهت هذه الفترة المؤلمة. وبعد عدة سنوات، تطوع أحد العاملين بالكاتدرائية بإعادة النافذة إلى ما كانت عليها. ووضع السقالة وجمع قطع الزجاج الملونة ووضعها في مكانها. إنها لم تمثل شيئاً في أوروبا في ذلك الوقت وحتى اليوم يبدو شكلها غريباً. ومع ذلك فلا ينكر أحد أن إعادة القطع الزجاجية إلى مكانها يشكل عملاً فنياً جميلاً. وينساب من خلالها ضوء الشمس ليضئ الكاتدرائية.

وهذه الصورة التوضيحية للفداء والاستعادة تتحدث إليّ برسالة شخصية عن الرجاء لأن الكثير من جراحي كانت نتيجة لنفس النوع من الحماس الديني التي أشعلت جنود كرومول. وأحياناً تكون الكنيسة سبباً في التدمير تماماً كما تسعى للفداء، ويجب أن يفتدى ثانية نوعاً جديداً من السقوط. وهذه العملية المستمرة تلخص نفسها في العالم والكنيسة وفي كل نفس ملتزمة بقصة الله على الأرض.

> "إن الله الذي يمنح البداية هو الذي يمنح النهاية . . . والذي يعطي الراحة لأشياء مكسورة هو أيضاً يكسر ويجبر".
>
> جون ماسفليد

٢٣ - ثمار معاناة يوم الجمعة العظيمة



"في كل المآسي الدرامية القديمة، سواء التي عاشوها فعلاً أو التي مُثلت على المسرح، نكتشف نفس النموذج: البطل- سواء كان الإسكندر أو أوديب- يصل إلى القمة ثم يهبط ويموت. أما في مأساة يسوع نجد نموذجاً عكسياً: فالبطل يموت لكي يحيا ويقوم".

توماس كاهيل

في بداية هذا الكتاب أخبرتكم عن صديق قال لي: "ليست لدي أية مشكلة في الإيمان بأن الله صالح. ولكن سؤالي هو: أي صلاح هذا؟ عندما أصرخ طلباً للمعونة، يصعب عليّ معرفة كيف يستجيب. في أي شئ يمكننا أن نعتمد على الله؟" وهذا السؤال يكمن في خلفية كل فصل وهو دافعي الحقيقي لكتابة هذا الكتاب. وفي كل العلاقات الشخصية الأخرى لدينا فكرة عما نتوقع ونستند عليه. ماذا عن الله؟

ووجدت لمحة للإجابة على السؤال في عبارة كتبها دالاس

ويلارد، الذي يشتمل كتابه "المؤامرة السماوية" على هذه الكلمات: "لم يحدث أي شئ لنا لا يمكن فداؤه أو يمكن أن يحدث لنا مستقبلاً في طريقنا إلى الأبدية". العالم حسن وصالح، العالم سقط، العالم يمكن فداؤه. ويؤكد ويلارد أن نفس هذه الخطة تنطبق ليس فقط على هذا الكون ككل ولكن على كل شخص من أتباع الله. لا شئ مما نواجهه خارج نطاق قوة الله للفداء.

وفي أسلوب الله الساخر، ما نعتقد أنه عيب قد يكون ميزة، وهذه حقيقة أكدها الرب يسوع في كل قصصه تقريباً وكل اتصالاته الإنسانية. فقد أنقذ السامري الصالح- ولم ينقذه القادة الدينيون- كمثل للرحمة. كما أنقذ المرأة السامرية، المرأة التي كان لها خمسة أزواج والسادس ليس زوجها. وأشار إلى قائد المئة الوثني كنموذج للإيمانٍ، وخلص جابي الضرائب الشره الذي يدعى زكا وجعله نموذجاً للكرم. وعندما قارب على ترك هذا العالم، ترك إرساليته إلى تلاميذه وهم مجموعة من الفلاحين غير المتعلمين يقودهم بطرس الخائن. وفي كل هذه الاختيارات كان يؤكد على سخرية الفداء.

وبعد تجربة الكثير من المحاولات الفاشلة للعلاج من شرب الخمر، فهم بيل ولسون سخرية الفداء. وتوصل إلى الاقتناع الأكيد بأن السكير يجب أن يُضرب بقوة لكي يرتفعٍ لأعلى. وكتب لزملائه ما يلي: "إنه لامتياز عظيم لنا أن نفهم جيداً هذا التناقض السماوي الظاهري بأن القوة تنبع من الضعف، والذي يحدث قبل القيامة: والألم ليس هو فقط الثمن بل هو حجر الإنقاذ للولادة الروحية".

وتستمر السخرية عبر الشفاء. ومع أن السكير قد يصلي في يأس لكي يتخلص مما هو فيه، فقليلون من السكيرين أو مدمنين آخرين يحدث لهم شفاء معجزي. ومعظمهم يناضلون ضد التجربة كل يوم في حياتهم. إنهم يختبرون النعمة ليس كجرعة سحرية بل كبلسان تظهر قوته كل يوم بالاتكال الواعي على الله.



يعيش كل إنسان على الأرض وله حالته المتفردة والخاصة من الصعوبات: فقد يظل أعزباً بينما الزواج هو هدف دائم، أو يعاني من إعاقة جسدية، أو فقر إيذاء جسدي في طفولته، تفرقة عنصرية، مرض مزمن، تفكك عائلي، إدمان، طلاق. فإذا نظرت إلى الله كما يراه Zeus (كبير الآلهة لدى اليونان) يطلق الصواعق على البشر البائسين الذين على الأرض، فسوف أوجه كل غضبي وضيقي نحو الله لأنه السبب الرئيسي لكل متاعبي. ومن الجانب الآخر، إذا تخيلت أن الله يعمل من وراء ستار على الأرض، وهو يدعونا من خلال كل ضعف أو عدم مقدرة، فسوف أهيئ إمكانية الفداء لذات الشيئ الذي أكرهه كثيراً في حياتي.

"إن الخير والشر - بالمعنى الأخلاقي - لا يوجدان في الأشياء بل دائماً في الإنسان نفسه". فالأشياء والأحداث سواء كانت طيبة أم رديئة، هي ببساطة كما هي، محايدة أخلاقياً. والمهم في الأمر كله هو أسلوب تفاعلنا معها. ونادراً ما نسيطر أو نتحكم في الأحداث ولكن - مع أولئك الذين يساعدوننا - نحن مسئولون عن ردود أفعالنا .. فالأحداث قد تمنحنا الألم أو الفرح، ولكن نمونا يتوقف على استجابتنا الشخصية لكل منهما بمشاعرنا الداخلية". هذا ما كتبه بول ترونر وكطبيب بشري عارض ترونر موضوع الألم والمعاناة وبذل قصاري جهده ليقنع مرضاه بهذا ويخفف عنهم. وكمستشار، استفاد من ذلك، ووجهه برفق مرضاه نحو استجابة تقودهم لأن ينمو من خلال الألم والمرض.

وكتب ترونر كتاباً عنوانه "المعاناة المبدعة" لكي يكتشف ظاهرة جديدة سببت له الحيرة دائماً: إن معظم الناجحين نشأوا في عائلات غير سعيدة. وأجرى أحد زملاء الدراسة بحثاً في حياة القادة الذين كان لهم تأثير عظيم في تاريخ العالم واكتشف أن معظمهم - تضمنت قائمة الأسماء ٣٠٠ إسماً ومن بينهم الاسكندر الأكبر، يوليوس قيصر، لويس الرابع عشر، جورج واشنطن، نابليون، الملكة فيكتوريا - اشتركوا في أمر واحد: لقد كانوا يتامى. وتحير ترونر، فهو الذي أمضى وقته في إلقاء المحاضرات عن أهمية

الأب والأم وتعاونهما في إقامة البيئة الصالحة للأسرة، وجد أن كل هؤلاء القادة كانوا محرومين من الحنان العاطفي في الأسرة. وكيتيم، بدأ ترونر ينظر إلى الصعوبات لا كأمر يحاول التخلص منه بل بالحري كأمر يُعده ويقوده للفداء الذي يحول الشر إلى خير.

وفي كتابه "نفوس عظيمة" أجرى الصحفي ديفيد أكمان تقييماً للقرن العشرين بحثاً عن أفراد تمتعوا بقوة روحية وأخلاقية. وتوصل إلى ستة أشخاص هم: الأم تريزا التي عملت بين أكثر الناس فقراً ومعاناة، والكسندر سولزهنشتاين Alexander Solzhenitsyn مؤرخ، جولاج Gulag، إيلي ويسل الذي ظل حياً من محرقة اليهود، ونيلسون مانديلا الذي سجن لمدة ٢٧ عاماً، والبابا يوحنا بولس الثاني الذي نشأ تحت حكم النازي والشيوعيين، والمبشر بيللي جراهام. ومن بين الستة الذين ذكرتهم بيللي جراهام فقط هو- رجل عادي من الطبقة الوسطى. ومع ذلك فيعتبر هؤلاء الستة في قمة القادة الروحيين في القرن العشرين.

وبالرغم من أنه ليس لنا الحق في أن نفرض على الآخرين وصفات مبهجة لكي يتغلبوا على المعاناة بنعمة الفداء، كما أننا لا نستطيع أن نتجاهل شهادة أولئك الذين يصرون على هذا الحق. وأنا كصحفي شاهدت عن قرب قوة التحرر من الصعوبات. وأتذكر أنني التقيت جوني أريكسون عندما كانت في سن المراهقة، بعد عدة شهور من الحادث الذي تعرضت له، وكانت تتأمل في مستقبلها من خلال ضباب اليأس والارتباك. كيف يمكنها أن تخدم الله وهي على كرسي متحرك ولا تستطيع حتى أن تطعم نفسها، أو ترتدي ملابسها بدون مساعدة آخرين؟ قالت لي: "أنت لا تستطيع أن تتخيل العار والذل الذي أنا فيه". ما هو الخير الذي يمكن أن يأتي من هذه المأساة؟ والآن، بعد ثلاثين سنة من هذا الحادث، تتذكر جوني اليوم الذي كُسرت فيه عنقها وهي تقفز في مياه خليج Chesapeake Bay وتدعو هذا اليوم كأفضل يوم في حياتها. لقد سمحت لله أن يعمل فيها ويفتديها ويحررها من هذه المأساة، لكي يخرج الخير من الشر.

وأتذكر أيضاً شخصاً يدعى سادان وهو أحد مرضى البرص بمستشفى الدكتور بول براند في الهند. إنه يشبه غاندي: نحيل، أصلع يوضع ساقاً على الأخرى وهو مستلق على حافة السرير. أخبرني بعض القصص المؤلمة عن ماضيه وقال: "زملائي في المدرسة عذبوني، والسائق رفسني بحذائه خارج أتوبيس عام، كثيرون من أصحاب العمل رفضوا توظيفي بالرغم من موهبتي والتدريب الذي حصلت عليه وحتى المستشفيات طردتني بسبب مخاوف لا أساس لها. ثم بدأ سادان يعدد العمليات الجراحية التي تعرض لها - تغيير أو نقل الوتر، إزالة عصب، بتر أطراف، عملية مياه بيضاء بالعين - وقام بها الدكتور براند وزوجته. واستمر يتحدث لمدة نصف ساعة يتحدث عن حياته التي هي عبارة عن كتالوج من المعاناة الإنسانية. ولكن ونحن نشرب آخر فنجان شاي بمنزله، قال سادان عبارته المدهشة: "يجب أن أقول أنني سعيد الآن أنني عانيت من هذا المرض".

فسألته باندهاش: "سعيد!!؟

أجاب: "نعم. لولا البرص لكنت إنساناً عادياً ولي عائلة عادية أسعى وراء الثروة والمركز في هذا المجتمع. ما كان بإمكاني معرفة مثل هؤلاء الناس المدهشين مثل الدكتور براند والدكتورة مارجريت، وما كنت عرفت الله الذي يعيش فيهما".

مثل أخير. في عام ١٩٨٤ أصبت بحزن شديد عند سماعي بإصابة رونالدز برس بالسرطان، وهو من قادة كتّاب القصة في ولايات الجنوب، كما كتب في النقد الأدبي والتأملات الروحية. وبعد عشر سنوات قرأت الفقرة التالية في مذكراته عن مرضه والشلل الذي أصيب به:

> "نعم لقد حدثت الكارثة، بالنسبة لي هي لبرهة - ولكن في الواقع لمدة أربع سنوات. بالتأكيد هي كارثة، بعض أجزاء جسدي فُقدت تماماً من داخل ومن خارج. ولكن لو طُلب مني عمل تقييم بأمانة لحياتي الحاضرة بجانب

حياتي الماضية قبل إصابتي بالمرض - السنوات من ١٩٣٣(ميلاده) وحتى ١٩٨٤ (إصابته بالمرض) والسنوات التي بعد ذلك، فإنني يجب أن أقول، بالرغم من الخمسين سنة المرحة من حياتي الأولى، فإن هذه السنوات الأخيرة التي أصبت فيها بالمرض هي أفضل بكثير إذ تمتعت فيها بالكثير من الحب والرعاية والمعرفة والصبر وأنجزت الكثير من العمل في وقت أقل".

إن برس يمتدح المرض المرعب الذي قاده إلى نعمة الله المدهشة. وعلاقتنا مع الله لا تعطينا الوعد بأن نتجرر تماماً من الصعوبات التي تواجهنا ولكن باستخدامها لخيرنا بطريقة غير عادية.

في معظم المحاولات الإنسانية نحن نقدر قيمة "الأسلوب أو الطريقة" بالنظر إلى نتيجة المجهود الذي بُذل. فالباحث الذي يفشل في إيجاد "جين معين gene" بعد إجراء أبحاث لمدة ثلاثين سنة يشعر أنه أضاع وقته. والكيميائي الذي يجمع المركبات معاً لا يشعر بالنجاح الحقيقي إلى أن يستفيد شخص ما من هذه المركبات. وفوق الكل يريد الروائي أن تُنشر قصته. والمنقب عن المعادن يحفر بهدف واحد في ذهنه وهو: تحديد مكان الذهب.

أما العلاقات الإنسانية فلها أسلوب مختلف. وعندما أفكر في بعض أصدقائي فسأقول: "أعتقد أنني سأكون صديقاً مع تيم سكوت، رينر. ولنرى ما سيحدث، إنني أحتاج إلى خطة لتحقيق هدفي". هذه الصداقات تنمو من حولي دون توقع "تيم" و"سكوت" كانا زميلاي في الكلية و "رينر" كان يقيم معي في نفس الحجرة بالجامعة. أما في العلاقات "فالطريقة أو الأسلوب" ذاته هو الهدف. وتخلق الخبرات المشتركة الألفة، كما أن الأوقات الصعبة تقوي روابط العلاقة وتجعلها أكثر أماناً.

قال الرب يسوع: "أنا هو الطريق والحق والحياة". الحق والحياة

يمنحاننا الدوافع للطريق، ومع ذلك ففي النهاية تأتي العلاقة والشركة مع الله، ومثل أية علاقة أخرى فهي تؤدي إلى "الطريق" ودعوتنا اليومية لله لأن يتدخل في تفاصيل وجودنا وحياتنا. وشبّه سورين كيركجارد بعض المؤمنين بطلبة المدارس الذين يريدون معرفة حل بعض المسائل الرياضية في نهاية الكتاب. إننا لا نستطيع تعلم حل المسائل الرياضية خطوة خطوة. وفي كتاب سياحة المسيحي الذي كتبه جون بنيان يظهر لنا أنه عن طريق تتبع الطريق والتقدم فيه من خلال أفراحه وصعوباته ومنحنياته الصعبة استطاع السائح أن يصل إلى الوجهة التي يقصدها.

لدي صديق غير متزوج ويصلي بكل حماس لله لكي يقلل أو يُزيل قوته الجنسية. إنها تتسبب في سقوطه الدائم في التجربة كما يقول. ويدهشه الأدب الإباحي إذ حينما يقرأه يتسبب في سقوطه ويحطم حياته المكرسة. وبكل لطف أقول له إنني أشك في استجابة الله لصلاته كما يريد هو بإعادة تقويم مادة ومستوى التستوسترون. ولكن من الأفضل أن يتعلم الإخلاص والأمانة كما يتعلمها الآخرون ويتحكم في ذاته.

ولأي سبب من الأسباب، سمح الله لهذا العالم المكسور أن يبقى في حالة السقوط لفترة طويلة. وبالنسبة لنا نحن الذين نعيش في هذا العالم، يبدو أن الله يقيِّم ويقدر شخصيتنا أكثر من راحتنا، مستخدماً نفس العناصر التي تسبب إزعاجنا كأدوات لتشكيلنا. إنها قصة قد كُتبت بنهاية نتلمسها بصعوبة. فإما أن نثق في مؤلف القصة أو أن نظل بمفردنا.

وفي حياتي الروحية الخاصة، أحاول أن أكون منفتحاً على حقائق جديدة، فلا أوجه اللوم إلى الله عندما لا تتحقق توقعاتي، بل أثق في أنه سيقودني من خلال فشلي نحو التجديد والنمو وإنني أثق تماماً في أن الآب يعرف الأفضل عن كيف يُدار هذا العالم. وعندما أفكر في أزمنة العهد القديم، أرى أنني إذا أردت من الله أن يتعامل معي بطريقة علنية وصريحة فهذا لا يحقق النتائج التي أتوقعها. وعندما

أرسل الله ابنه - بلا خطية مملوء نعمة وشفاء - قتلناه. إن الله يسمح بما لا يفضله هو لكي يحقق هدفاً أعظم.

كتب جون ميلتون في "الفردوس المفقود" عن آدم الذي رأى كل التاريخ الذي سيأتي. وأخيراً رفع رأسه من الذنب واليأس وغنى قائلاً:

ياله من صلاح غير محدود بل وهائل
أن الخير يخرج من الشر
والشر يتحول إلى خير أكثر ورحمة
من ذلك الذي خُلق في البداية
نور يخرج من الظلمة! وأقف وأنا مملوء بالشك،
هل أتوب عن خطاياي التي ارتكبتها، أم أفرح
أكثر وأكثر للصلاح والخير والآتي ...

"ياله من ذنب يجلب السعادة" إنها أغنية من لاهوت العصور الوسطى ومازالوا يرددونها في قداس يوم السبت المقدس. وهي ببساطة تعني، أننا بطريقة غامضة أصبحنا في حالة أفضل بكثير مما كان قبل "سقوط آدم". والفصل الأخير من القصة - الفداء - حقق حالة أفضل جداً من الفصل الأول. وقد عبر عن ذلك أوغسطينوس: "لقد تصرف الله بحكمة فائقة إذ جلب لنا الصالح من الشر كما لو أننا لم نعان شراً على الإطلاق". وسوف تُثبت النتيجة النهائية أن كل هذا يستحق الثمن الذي دُفع فيه:

وبالتأكيد نحن أفضل على الأقل من جانب واحد: نحن لنا المسيح، الذي في حياته وموته حقق للعالم كله نفس قصة الفداء التي وعد بها كل واحد منا على حدة. وقد ركزت على علاقتي مع الله من الناحية الإنسانية، وهي فقط التي امتلكها. ومع ذلك، فأنا متنبه لحقيقة أنه يجب أن "نعرف الله معرفة شخصية" وكذلك الله يجب أن يعرفنا نحن. وفي الحقيقة، يجب على الله أن يسير في نفس

الخطة. وتحدث المؤمنون من الكتّاب الأوائل عن المسيح كالذي "أعاد" ثانية الدراما الإنسانية.

وَرَاى اللهُ ذَلِكَ انّهُ حَسَنٌ. هذا ما قاله الله في نهاية كل يوم في الخليقة. وحتى في حالة السقوط، رأى الله أن العالم (نحن) يستحق المجهود والتضحية والموت لإنقاذه. العالم سقط في الخطية. لقد وعد الله بأن يقضي على المعاناة والفقر والشر والموت. وسيلته لكي يحقق ذلك تتضمن أن يعاني من نفس تلك الأشياء في جرعات قوية. ومع ذلك فالله قد لا يمنع صعوبات هذا العالم الحر والخطير ولا يحقق لهم مناعة شخصية منها. وعمداً وطواعية سلّم ابن الله الرب يسوع المسيح لكل ما هو سيئ في هذا العالم الساقط.

وأخيراً، يمكن لهذا العالم أن يُفتدى. وكان هذا هو الهدف الوحيد من مجئ المسيح إلى هذه الأرض. وفي قمة هذه السخرية، حول الله الشر إلى خير، وبدأ يعمل من خلال عنف الإنسان وكراهيته لكي يحقق الفداء. وعبر عن ذلك الرسول بولس: "الذي إذ جرد القوات والسلاطين من سلاحهم أشهرهم جهاراً منتصراً عليهم بالصليب".

وتغير التاريخ للأبد كنتيجة لفداء المسيح. واتضحت خطة الله للعالم كله: وما على التاريخ إلا أن يكتب التفاصيل. ومرة أخرى يقول بولس: "إن كان الله معنا فمن علينا؟ الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا معه كل شئ؟ من سيفصلنا عن محبة المسيح؟".

واليوم، نحن نشير إلى اليوم الذي مات فيه المسيح "بالجمعة العظيمة" وليس "الجمعة الحزينة أو المظلمة" إذ بجلدته شُفينا.

بعد الدموع يأتي السكون:
الضوء البطئ والوقت الحزين الساكن،
المغسول، الفارغ والذي له طعم الملح،
انقضى كل هذا في انتظار بلا أمل.
وبعد الليل يأتي الحمل:

كوكب الصبح المنير، ومعه الماء الحي
مجاناً، وكان هذا ثمرة معاناة يوم الجمعة.

ن. ت. رايت



تقوم زوجتي جانيت بقيادة اجتماع صغير في بيت رعاية للمسنين. وتحضره سيدة مريضة بالزهايمر تُدعى بيتسي وتجلس طوال الساعة وهي فترة الاجتماع. وهي سيدة نحيلة ذات شعر أبيض وعيون زرقاء وابتسامة جميلة. وفي كل أسبوع تعرف جانيت نفسها لهم، وكل أسبوع أيضاً تسألها بيتسي عن اسمها كما لو أنها لم ترها من قبل. وعندما يضحك أحد الحاضرين على طرفة ما يضحك بيتسي حتى وإن لم تفهم هذه الطرفة. وطوال الوقت تجلس هادئة ناظرة إلى لا شئ مستمتعة بتغيير المناظر ولكنها لا تفهم شيئاً مما يدور حولها.

وبعد بضعة أسابيع، علمت جانيت أن بيتسي لم يعد لديها القدرة على فهم ما تقرأه. وغالباً ما كانت تحمل معها بطاقة معايدة كانت ابنتها قد أرسلتها لها منذ عدة شهور وهي تحملها معها كما لو أنها وصلتها بالأمس. وهي لا تفهم ما تقرأ وقد تُعيد قراءة السطر مرة تلو الأخرى حتى يشجعها أحد على مواصلة القراءة. ولكن في أيام أخرى يمكنها أن تقرأ فقرة كاملة بصوت واضح وقوي. وبدأت جانيت تطلب منها قراءة ترنيمة كل أسبوع.

وفي أحد أيام الجمعة طلب منها الحضور أن تقرأ ترنيمة محفوظة منذ الطفولة عن الصليب. وبعدما قرأت السطر الأول توقفت وقالت "لا أستطيع الاستمرار. ياله من أمر محزن للغاية". وتنهد أحد الحضور وحملق فيها آخرون. وطوال سنوات حضورها لهذا المكان لم تتمكن بيتسي ولو لمرة واحدة أن تفهم الكلمات التي تقولها. ولكن الآن في هذه المرة بدأت تفهم.

وهدأت جانيت من روعها وقالت لها: "هذا جميل، يا بيتسي، لا

داعي لأن تقرأي أكثر من هذا إذا كنت لا تريدين ذلك".

وبعد برهة بدأت القراءة ثانية ثم توقفت عند نفس السطور التي توقفت عندها من قبل. وبدأت الدموع تنساب على خديها وهي تقول: "لا أستطيع مواصلة القراءة. إنه لأمر محزن". ولم تدرك أنها قالت نفس الكلمات من فترة وجيزة. وحاولت ثانية ولكنها صُدمت وحزنت لعدم قدرتها على القراءة.

وعندما قارب الاجتماع على النهاية تحرك الحضور من المسنين متجهين إما لغرفهم أو للكافيتريا. وتحركوا ببطئ كما لو كانوا في كنيسة ناظرين إلى بيتسي بشئ من الخوف. وعندما حضر عمال المكان ليعيدوا ترتيبه توقفوا وحملقوا في بيتسي التي لم يروها من قبل في مثل هذه الحالة من الوعي واليقظة.

وأخيراً قادتها جانيت إلى المصعد لكي تعود إلى غرفتها. ولدهشتها بدأت بيتسي ترنم الترنيمة من ذاكرتها. وبدأت الدموع تنساب مرة أخرى ولكن في هذه المرة لم تتوقف بيتسي بل واصلت الترنيم وبقوة.

وفي مكان ما في هذا الذهن الممزق قد تضرب الخلية العصبية على شبكة اتصالات قديمة لكي تُحس المعاني في ذهن بيتسي. وفي ارتباكها هذا ظهر أمران: المعاناة والخجل.

"نحن نعلم يوم الجمعة العظيمة الذي تتمسك به المسيحية بعمل الصليب. ولكن غير المسيحي والملحد يعرفه أيضاً. أي أنه يعرف عن الظلم والمعاناة والنهاية الوحشية الغامضة، والتي تكوّن ليس فقط البعد التاريخي للحالة الإنسانية بل وأيضاً التكوين اليومي لحياتنا الشخصية ونعرف الألم الذي لا يمكن تجنبه، وفشل المحبة والوحدة التي هي تاريخنا ومصيرنا الخاص. ونعرف أيضاً يوم الأحد. هذا اليوم بالنسبة للمؤمن يعني نوعاً من الخصوصية والود الذي هو مؤكد ومشكوك فيه أيضاً، وهو واضح وفوق مستوى الفهم أيضاً، عن القيامة والعدل والمحبة التي هزمت الموت. وسمات يوم الأحد تحمل اسم الرجاء.

ولكن أيامنا هذه التي نعيشها هي رحلة اليوم الطويل.. يوم السبت.

جورج شتاينر

وهاتان الكلمتان تلخصان حالة الإنسانية نفسها، الحالة التي تعيش فيها كل يوم من حياتها الحزينة. ومن يعاني من أكثر مما تعانيه بيتسي؟ وبالنسبة لها، أجابت الترنيمة على هذا السؤال إنه يسوع.

وتنتهي الترنيمة وتنتهي القصة المسيحية بالوعد أن الفداء سيتم يوماً ما، والله سوف يثبت نفسه بقوة لإعادة الخلق وأن معرفة الله الشخصية سوف تكون مؤكدة بأقوى علاقة نعرفها على الأرض. "لأننا الآن ننظر في مرآه، ولكن عندئذ وجهاً لوجه، الآن أعرف بعض المعرفة ولكن عندئذ سأعرف كما عرفت".

وتنتهي القصة المسيحية بالوعد أن بيتسي سوف تحصل يوماً ما على عقل جديد يتذكر المعاناة والخجل كشئ من الماضي. ولمن هم على شاكلة بيتسي، تبدو أيام السبت يوم رحلة طويلاً وهم يحملون حملاً ثقيلاً. وقد يقدم يوم الجمعة العظيمة نوعاً من الصحبة والزمالة. ومع ذلك فإن تذكر المعاناة والخجل وذهناً قد تغطيه سحابة من عدم الفهم، فوعد يوم الأحد يبدو غائماً وغير قريب. ولكنه حقيقي.

كيف يمكن أن تكون لي علاقة شخصية مع كائن لم أتأكد تماماً من وجوده؟
وهل هناك طريقة تؤكد لي حقيقة وجوده؟

كتبت هذا الكتاب وأنا في محطة إنتقاليّة ونقطة فاصلة من الشك إلى الإيمان، وهو ما يلخص رحلة حياتي. وأقترح على أولئك الذين يتسمون بالحذر في روحانياتهم، أو الذين يعانون من اختبارات دينية سيئة أن يقرأوه بأسرع ما يمكن ثم يتوقفوا هنيئة ويتفكروا. وإنني أخطط لكتابة كتاب ثانٍ أكتب فيه عن المزيد من القضايا العملية في هذه العلاقة مثل الإتصال بالله. وفي كل أمر من هذه الأمور يحضرني تعليق س.إس. لويس الذي يقول: بأننا نحتاج إلى من يذكرنا أكثر ممن يعلمنا.

لقد وصلني خطاب من أحدهم كتب فيه:

"أنا أعلم أنه يوجد إله: أؤمن أنه موجود، ولكنني فقط لا أعرف بماذا أؤمن؟.. ماذا أتوقع من هذا الإله؟.. هل هو يتدخل في حياتنا (غالباً/ نادراً) عندما نطلبه، أم أنه يجب عليّ أن أقبل ذبيحة ابنه من أجل خطاياي؟ إنني أحسب نفسي محظوظاً، وهل أجعل العلاقة تصل إلى هذا الحد؟

إنني أشعر أنني مؤمن غير ناضج: وأن توقعاتي من الله غير واقعية. وأعتقد أنني أصبت بخيبة الأمل مرات كافية حتى أنني أصلي من أجل أن لا يتكرر هذا الأمر مرات ومرات.

ما هي الصورة التي يجب أن تكون عليها العلاقة مع الله؟ وما الذي يجب أن نتوقع من الله الذي يقول: أننا صرنا أصدقاوءه وأصفياءه؟

وأنا أتناول هنا تلك الأسئلة التي أنهكت المؤمنين في القرن الأول، والتي تضنينا اليوم ونحن في القرن الحادي والعشرين.

فيليب يانسي



٤ شارع حجاج عين شمس الشرقية - القاهرة
مصر ت:٤٩١٤٢٧٦٠ - ٦٣٦٣٩٨٩
Web site:www.elkalema.com
E-mail:info@elkalema.com